

محمد صلى الله عليه وسلم

من نبعته إلى بعثته

تأليف الشيخ
محمد الصادق عرجون
من كبار علماء الأزهر الشريف
(ت: ١٤٠١هـ - ١٩٨٠م)

محمد ﷺ

من نبعته إلى بعثته

تأليف

الأستاذ الدكتور

محمد الصادق عرجون

من كبار علماء الأزهر الشريف

(ت ١٤٠١هـ/ ١٩٨٠م)

إشـــراف

أ.د/ محيي الدين عفيفي أحمد

الأمين العام لمجمع البحوث الإسلامية

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة المصرية العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

عرجون، محمد الصادق
محمد ﷺ من نبعته إلى بعثته
الأزهر الشريف ـ مجمع البحوث الإسلامية
١ـ البيئة الطبيعية والاجتماعية لحياة محمد ﷺ
٢ـ أسرة محمد ﷺ
٣ـ ميلاد محمد ﷺ
٣٠٢ص، ٢٠سم
العنوان: مجمع البحوث الإسلامية ـ القاهرة

رقم الإيداع: ٢٧٧٦٧/ ٢٠١٧
الترقيم الدولى: ٠-٢٣٧-٢٠٥-٩٧٧-٩٧٨

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تصدير

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن دعا بدعائه واهتدى بهداه .. أما بعد،،،

فلقد كان الأزهر الشريف على مر تاريخه - ولا يزال - الحارس الأمين على الإسلام؛ عقيدةً وشريعةً وأخلاقًا، يؤدي رسالته، ويتحمل مسئوليته في المحافظة على الدين وتراثه وعلومه الشرعية والعربية وغيرها، حتى صار كعبة العلوم الدينية والعربية والثقافية في مصر والعالم، ومركز إشعاع روحي وديني وثقافي، ينشر مباديء وأخلاق الإسلام، ويوضح المنهج النبوي في مواقف الحياة المتنوعة بعيدًا عن التعصب الأعمى، أو الاضطهاد الفكري أو المادي، مراعيًا لظروف الناس وحاجاتهم، وكتب الله له القبول فتهيأت له النفوس على مدار عقود وقرون طويلة، فأصبح الجامعة الإسلامية الكبرى الفريدة في العالم بتاريخها وأهدافها ورسالتها ومنهجها ووسطيتها.

إن الأزهر الشريف يضطلع بمسئولياته ويواصل مسيرته العلمية في بيان حقائق الإسلام بمنهج وسطي معتدل يحترم التعددية الدينية والمذهبية والفكرية، ويعمل على تصحيح المفاهيم المغلوطة، لأجل حماية العقول من الغلو والتطرف والتسيب.

وانطلاقًا من هذه المسئولية كان الدور العظيم لفضيلة الإمام الأكبر شيخ الأزهر الأستاذ الدكتور/ أحمد الطيب في النهوض بالتبعات الملقاة على عاتق الأزهر الشريف في الداخل والخارج، ببيان حقائق الإسلام ومواجهة التطرف والإرهاب، وأهمية المجابهة الفكرية وبيان جهود الأزهر الشريف وجميع هيئاته حيث أكدّ فضيلته: أن الأزهر الشريف قد عاش أكثر من ألف عام ـ وسيظل ـ يُدرِّس المذاهب الفقهية، والمسائل الكلامية على افتراقها، والعلوم الإسلامية بمختلف أذواقها ومشاربها، لكن الأزهر قد وجد ضالته ـ منذ القدم ـ في مذهب أهل السنة والجماعة، واتخذه طوق نجاة للمسلمين كلما عضّتهم نوائب التشرذم وآفات التعصب المقيت لمذهب يراه أصحابه: هو الإسلام الذي لا إسلام غيره .. وسبيل الأزهر اليوم هو سبيله بالأمس: السعي الحثيث لجمع كلمة المسلمين، ووقوفهم صفًا واحدًا في مهب العواصف والتيارات.

إن الأزهر الشريف الذي يرفع راية «جمع الكلمة» بين المسلمين، لا يتردد في مقاومة موجات الإلحاد، والتغريب، والإفساد الأخلاقي، ولا يدخر جهدًا في مقاومة الانحراف التكفيري الطارئ، والمرفوض من جماهير الأمة الإسلامية قديمًا وحديثًا، وليس أمامه ـ من أجل تحقيق هذا الهدف ـ إلا مواصلة السعي ـ بصدق ـ لجمع علماء المسلمين على كلمة واحدة، لمواجهة الأخطار التي تهدد الجميع، ولتحقيق مصالح الأمة، ودرء المفاسد عنها، ومن دون هذا الالتقاء،

فإن النتائج لن تكون على النحو الذي نرجوه لأمتنا، وتقتضيه مصلحتها في هذه الظروف التي يمر بها العالم الآن[1].

هذا، وتتعاظم آمال وطموحات الناس حول الأزهر الشريف يومًا بعد يوم، وتتعالى صيحات النداء والفزع إليه ـ بعد الله تعالى – باعتباره الملاذ الآمن للمسلمين في العالم من الانحراف الفكري، والتطرف والإرهاب ، وقد عمل الأزهر الشريف على تلبية هذه النداءات وتحقيق الطموحات، وذلك بكل هيئاته ودواوينه ودوائره العلمية والمعرفية، ومنها: مجمع البحوث الإسلامية، الذي أسهم بجهود عظيمة في العطاء العلمي للأزهر الشريف من خلال دراسة القضايا العلمية المختلفة، إيمانًا منه بدوره العلمي في تصحيح المفاهيم الخاطئة، وبيان وسطية وسماحة الإسلام، وأهمية التيسير ورفع الحرج عن الناس.

إن ما قدمه مجمع البحوث الإسلامية ويقدمه في هذا الصدد ليؤكد جهوده الدؤبة في خدمة الحياة العلمية والعملية للمسلمين؛ في التنظيم، والتشريع، والثقافة، والحضارة، والاجتماع، والسلوك، والأحوال الشخصية، والمعاملات، وما إلى ذلك مما يدخل في صميم الحياة ومتطلباتها.

---

(١) كلمة الإمام الأكبر شيخ الأزهر أ.د/ أحمد محمد الطيب، في افتتاح مؤتمر خطورة الفكر التكفيري والفتوى بدون علم، ١٤٣٥هـ ـ ٢٠١٤م ـ المجلس الأعلى للشئون الإسلامية.

إن مجمع البحوث الإسلامية وهو يؤدي دوره باعتباره هيئة علمية وبحثية وثقافية ومعرفية بالأزهر الشريف، لا ينفصم عن واقع الناس والمشكلات والتحديات التي تحيط بهم، وظهور أنماط من السلوك وألوان من المعاملات تتطلب ضرورة بيان الرأي والشرعي والديني لها؛ حتى لا ينخدع الناس بالسيىء منها، أو ينساقوا وراء الفكر المنحرف والفتاوى الشاذة التي تعاني منها مجتمعاتنا في ظل انتشار التطرف والإرهاب.

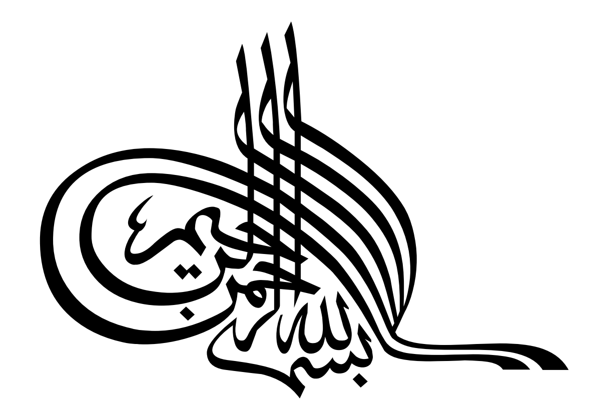
ومن المؤلم غاية الألم أن ترتكب جرائم باسم الإسلام وباسم شريعته السمحاء، وتُنفذ العمليات المدمرة مع صيحات التهليل والتكبير، ودعوى الجهاد والاستشهاد في سبيل الله، الأمر الذي استغله الإعلام الغربي أسوأ استغلال في تشويه صورة الإسلام، وتقديمه للعالم بحسبانه دينًا همجيًا متعطشًا لسفك الدماء وقتل الأبرياء، وأنه يحرض أبنائه وأتباعه على العنف والكراهية والأحقاد، وللأزهر موقف واضح في هذه القضايا قام بإعلانه وبيانه كأشد ما يكون البيان وضوحًا وجلاءً.

وانطلاقًا من دور المجمع ومسئولياته العلمية؛ فقد قام بإعادة طبع مجموعة من الكتب العلمية النافعة، والتي تتنوع موضوعاتها، وتلبي عددًا من احتياجات المرحلة الراهنة، حيث تشتمل هذه الكتب على قضايا ومسائل تتصل بالعقيدة، والشريعة، والأخلاق، والتفسير، وعلوم السنة النبوية، والثقافة الإسلامية في مجالاتها المختلفة؛ ليكون

الناس على بينة من أمرهم فيما يتعلق بالأمور الدينية والاجتماعية والأخلاقية، خاصة في ظل تراجع منظومة القيم الأخلاقية، وانتشار موجات التطرف والإرهاب والتكفير والإلحاد والتسيب والإنحلال، مما يستلزم معالجة هذه المسائل من خلال الفكر الوسطي الذي يعمل الأزهر الشريف على ترسيخه.

نسأل الله تعالى القبول، وأن يكون العمل خالصًا لوجهه تعالى، إنه نعم المولى ونعم النصير.

الأمين العام لمجمع البحوث الإسلامية
أ.د/ محيي الدين عفيفي أحمد



فتــح وتمهــيد

الحمد لله الذي اصطفى من ينابيع جوده نبع بدائعه، محمدًا أكمل الخلق روحًا وعقلاً، وأقومهم بدنًا ورسمًا، وأعلاهم قدرًا وذكرًا، وأرفعهم فضلاً ونبلاً، وأشرفهم مجدًا وعزًّا، وأحسنهم خَلقًا وخُلقًا، وأصدقهم قولاً وفعلاً، وأصفاهم طوية وقلبًا، وأطهرهم نية وقصدًا، وأهداهم طريقًا وهديًا، وأرشدهم سلوكًا ومنهجًا، وأسدهم مسلكًا ورأيًا، وأنبلهم غاية ومقصدًا، وأكرمهم أصلاً ومحتدًا، وأعزهم بيتًا ومنبعًا، وأعرقهم أرومة وجمعًا.

أدّبه فأحسن تأديبه، وربّاه فأكمل تربيته، آواه إلى كنف عزّه في يتمه، وهداه من حيرة تعبده إلى نور نبوته، وأغناه من عيلته فلم يحوجه لغير جوده، وشرح له صدره حتى انفسح لكتاب الكون علمًا ومعرفة، ورفع له ذكره فقرنه إعزازًا له في تحقيق الإيمان به بذكره، وجعل محبته شطر الإيمان، واتباعه عنوان محبته، فلا إيمان يقينًا لمن لم يكن أحب إليه من نفسه التي بين جنبيه، وأحب إليه من ولده ووالديه، ولا إيمان يقينًا لمن لم يكن هواه تبعًا لما جاء به من الهدى والعلم، ولن يغنى في قبول الإيمان اتباع مع جفوة، أولئك يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية، ولن يفارق الإيمان صدق المحبة، فالاتباع المرضي عنوانًا لمحبة الله هو الاتباع النابع من المحبة، ومن هنا كانت طَاعَتُهُ طَاعَتَه، وهَدْيُهُ هديَهُ، ورِضَاهُ رِضَاهُ، وبيعتُهُ بيعتَهُ، وصراطُه صراطَه، خلع عليه

حلل فيضه، وألبسه خلع رأفته ورحمته، فكان الرؤوف الرحيم بالمؤمنين، وكان المرسل رحمة للعالمين، وخصه بالصلاة عليه، ومنح ملائكته ـ تشريفًا ـ هذا الفضل بين يديه، وأمر عباده المؤمنين أن يتخلقوا بخلقه الأعلى في سبحات الصلاة عليه، وجعل سلامهم عليه وصلة أرواحهم بنور روحه، لينعموا بجنات رده تسليمهم عليه، ولن يشقى من حظى من حبيب الله بَرَدّ السلام عليه.

فصلوات الله، وصلوات الملأ الأعلى، وصلوات المؤمنين في عالم الغيب والشهادة أينما حل الزمان بهم في مكان من الوجود على محمد المجتبى من أشرف أرومة، رسولاً لخير أمة كانت به بؤرة شمس الإنسانية ومشرق إشعاع الهداية الربّانية، والسلام الأكمل الأنضر ورحمة الله وبركاته عليه ما ذكر الله الذاكرون، وغفل عن ذكره الغافلون.

وبعد، فهذه سبحات «متطفلة» في بحار أنوار سيرة الصادق الأمين محمد سيد الوجود ﷺ، تصور ملامح حياته تصويرًا يجري مع الأحداث والوقائع، لتكون طرازًا من الأسلوب في تحقيق معالم ما أبرزه التاريخ الصادق المصدوق من مظاهر الكمال الإنساني في حقيقته الإنسانية التي يستطيع العقل البشري أن يدرك مشاهدها في إطار من الواقع التاريخي، دون اقتحام يتوثب الحجب تطلعًا إلى أنوار خصائصه الروحية وكمالاته النبوية، فذلك ما لا يدركه تصور، ولا

يلاحقه خيال، فالبصائر في أودية خصائصه حسيرة، والأبصار من دون وصفه كليلة، وقصارى غلوة الألسنة والأقلام في هذا المجال الوقوف عند طاقتها فيما تمدها به العقول من رشحات نصوص الأحداث.

فهو ﷺ الحقيقة الكبرى للإنسانية المستخلفة في الأرض، تستمد الأجيال في أعصرها المختلفة من هديه نورًا يضيء لها آفاق الحياة، ويشرح لها بقدر ما يطيق كل جيل من تحمل أمانة الله في إدراك الحقائق الكونية: ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا﴾ [النمل:٩٣].

والحديث في سيرته ﷺ عريض الجوانب، طويل المدى، واسع الآفاق، عميق المسقى، غزير المادة، تسابقت الأقلام في حلبته، وتنافست الأفكار في ديباجته، فالقدماء من المؤرخين والرواة والعلماء حدثوا ورووا وكتبوا ما تناهت إليهم به الأحداث والوقائع من الحقائق، كما كتبوا غيره من الأقاصيص التي لا تثبت للنقد والتمحيص.

وقد تعددت مناحيهم، واختلفت طرائقهم، وتباينت مذاهبهم، وجمعوا في دواوينهم الكثير مما ناء به كاهل التاريخ فأطال بعضهم القصير، وكثر القليل، ودعم المتهافت، وَلَمّ المنتشر، وضم المتفكك، واخترع ما لم يكن، وقصّ ما لُقِّن، وحكى ما رُوي، وكانت دواوينهم مراجع لمن جاء بعدهم، فالناقد الممحص تخيّر فكتب، والعليم البصير حقق وتثبّت، والصحفي الغُمر تلقف وأتلف، والمتعالم

الجهول رمرم وضمضم، والجَحُود الكنود الذي طوى كشحه على مستكنة من الحقد الأسود للإسلام والمسلمين في الغرب والشرق أشاح عن الحق، وعشا عن ضوئه فأدلج في دياجير الأباطيل وأوغل، وقال للحق وتقوّل، ونقل وتنقّل، وزوّق وبهرج، وزيّف وهرّج، وكان فينا سمّاعون لهم، عباد لِصَنّمِ جحودهم، فركعوا بين يديه، وسجدوا تحت قدميه، تباهيًا بالعصرية، وتفاخرًا بالتجديد، وتظاهرًا بحرية التفكير، وتكلموا بلسان معبودهم، وكتبوا بقلمه، وترنموا بنغمه، ورقص على توقيعهم أتباع كل ناعق من ذوى الغرارة والجهالة، وفتن بهم ذوو الثقافة الفجة، والمعرفة الضحلة، فتشابهت قلوبهم، وتواءمت أفكارهم، وأعرضوا عن بينات التاريخ، وراحوا يحفرون بأظافر عقولهم الحاقدة في أرض الأكاذيب؛ ليتصيدوا من غثاء الروايات والأقاصيص ما يرضى أحقادهم، وتشبثوا بكل ما يخدش وجه الحقيقة التاريخية زورًا وبهتانًا، وتأولوا بأهوائهم وسوء مقاصدهم أحداثًا كانت في السيرة المطهرة عنوانات على السمو والشرف والفضل والنبل، فقلبوا حقائقها، وغيروا معالمها، وفرطحوا أديمها، وأبدوا فيها وأعادوا، وآمنت منهم طائفة، وكفرت طائفة، غير أن المؤمنين منهم لم يستطيعوا التحرر الكامل من عبودية التلمذة للمستشرقين والمستغربين من أعداء الإسلام، ولكنهم وقفوا يتنازعهم الإيمان القاهر بالحقيقة الكبرى ممثلة في جوهر الأحداث والوقائع التي كانت عناصر الحياة في

الواقع التاريخي لهذه السيرة الطاهرة المطهرة، وتنازعتهم الرغبة الملحة في التظاهر بالتجديد والعصرية وحرية التفكير، ويتنازعهم القصد إلى «مقاربة» المنهج الاستشراقى في رفض كل ما يتعارض مع رغائبهم من روايات التاريخ وأحداثه، وتصيّد كل ما يوافق أهواءهم، أو يشيد نظرياتهم في توهين شأن الأحداث من هذه الروايات، ولو كانت مغرقة في حمأة الأباطيل على ما هو دأبهم في تدوين وفهم الأحداث التي تضمنتها مراجع التاريخ للسيرة النبوية المشرفة.

ولكن هؤلاء المقهورين بالإيمان استطاعوا أن يرضوا إيمانهم بمزيد من التحمس الإنشائى في أسلوب بالغ الروعة البيانية، بيد أن ذلك لم يعصمهم من تيار التشكيك، بل التكذيب لما لم يفهموا من حقائق الأحداث في إطارها من النظام الكونى التي وقعت متلبسة به، وفي كثير من وقائع الإعجاز تشبثوا بمألوف العقول وقضايا العلم وسنن الكون العامة، وفي كثير من الأحداث الاجتماعية داروا ولفوا حول أنفسهم يغمغمون بالكلمات، ويجمجمون بالهمسات ينظرون من طرف خفي إلى أساتذتهم وهم يغمزون بلذعات الحقد الأسود أديم السيرة المطهرة، توهمًا منهم، أنهم يستطيعون أن ينالوا من الشمس في عليائها: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطۡفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَيَأۡبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾[التوبة: ٣٢].

وعمود البحث في منهجنا هو ما أَصّلْنا في كتبنا ومؤلفاتنا، ولاسيما التاريخية منها[1] أننا نقرأ، ونقرأ حتى نظن أننا استوعبنا أو قاربنا، ثم نفحص ونمحص، ونوازن وننقد ونعتمد ما تثبت لدينا صحته سندًا، ويدخل في وصيد القبول متنًا وأصلاً، ولم يعارضه من منخول العقل والعلم ما يعلو عليه، مع إيماننا بأن للعقل حدًّا يقف عنده، ولقضايا العلم موضوعات تنتهي عندها، وهما محجوبان عن عالم الغيب، مقصران دون إدراك كثير من حقائق عالم الشهادة.

وسنن الله العامة التي أقام على دعائمها نظام الكون وترابط عوالمه ترابطًا متناسقًا، تجري إلى جانبها سنن الله الخاصة التي تربط بوشائجها نظام بعض الأحداث عند مناسباتها متناسقة في وقوعها، وهذه وتلك محكومة بقهر القدرة الإلهية، واختيار المشيئة الربانية.

وحديث السيرة النبوية يجري في ثلاث مراحل متميزة بخصائصها، مترابطة بوحدة موضوعها:

المرحلة الأولي: هي مرحلة الإعداد الإلهي لتمهيد جو الحياة وصهر العوامل المقومة لإبراز الحدث الجلل الذي غير وجه التاريخ، تغييرًا أصيلاً شاملاً، وهذه هي مرحلة الاصطفاء لقنوات التحدر الإنساني من أعالي الذرى إلى وادي الوجود، وهي أيضًا مرحلة التربية

(١) لنا في ذلك كتاب: (خالد بن الوليد) وكتاب: (عثمان بن عفان).

والحضانة لمن سيحمل لواء الرسالة الخاتمة الخالدة، التي جاءت لتصحح أغاليط الحياة في نظامها الاجتماعي، لتقيمه على دعائم التوحيد: توحيد الخالق، وتوحيد الإنسان، وتجعل من هذا التوحيد ركيزة للقيم الخلقية والفضائل الإنسانية.

وتمشيًا مع منهجنا في البحث لم نبعد النجعة في تطلب الأورمات الواغلة في الدوحة الإنسانية في أفنائها العربية؛ لأن المعالم البعيدة مطموسة في مهايع التاريخ، وقد اكتفينا في البحث أن نجعل بَدْأَنَا من فنن نبعة محمد ﷺ القريبة التي انبثق منها غصناه الزهراوان، متتبعين تسلسل الحوادث التي تنتهي ذرى أعاليها إلى رائد الرسالات الإلهية الموحدة، خليل الله ورسوله أبي الأنبياء والمرسلين إبراهيم عليه السلام، الذي كان محمد ﷺ في سلسلة نسبه واسطة العقد، ولؤلؤة الجيد، وجوهرة القلادة في ميراث صادق الوعد إسماعيل بن إبراهيم ـ عليهما السلام ـ حتى بلغ الكتاب أجله، وأشرق الوجود بنور محمد ﷺ وليدًا في مهد الاصطفاء الجامع لما يعرف من فضائل الحياة وكمالات البشرية.

وهذه المرحلة في تتابع سير الأحداث تمتد منذ ميلاد محمد ﷺ لمدى أربعين سنة عاشها محمد ﷺ إنسانًا أكمل ما يكون الإنسان، عربيًّا في سماته وأخلاقه وفواضله بين قومه، يقاربهم في كل ما يشده إلى القيم الخلقية النابضة بالكمال، وينأى عنهم مباعدًا في كل ما يخدش

حياء الفضيلة، فكان فيهم المثل المضروب لأفضل الفضائل المقدسة في سجل الإنسانية، وكان بينهم نموذجًا يحتذي في مكارم الجبلة والتطبع، فهو منذ عرفوه وعرفهم «الصادق الأمين»، والصدق والأمانة إطاران لأقدس محاسن الإنسان في هذه الحياة، لأنهما مجمع الإحسان في الإنسان.

* * *

طالت رحلة الحياة على التاريخ، وهو مستعبد مكبل بأغلال الطغيان «الامبراطوري» في الإنسان، ذلك الطغيان الذي أثقل كاهله بما حمله من أوزار وأضاليل تاهت في زواياها المظلمة الحقيقة العظمى: حقيقة التوحيد وعقيدة الإيمان بالله الواحد الأحد، التي تنساب من ينابيعها جداول الحرية الاجتماعية للإنسان في تفكيره وعيشه.

وظل التاريخ مشغولاً بتجميع ركام الوثنية الحطوط في أمم عمرت الحياة دهورًا وأحقابًا، وهو يقول عنها في إعجاب «أبله»: إنها بلغت من العلم والمعرفة الذرى، وتربعت على قمة «الفلسفة»، وتسنمت آفاق التفكير الإنساني، وقدمت للحياة أرفع قضايا العلم، وأعلى قمم الحقائق في المعرفة.

ولكنها عاشت حياتها في حمأة الوثنية الهابطة، فعند كل أمة عشرات «الآلهة» التي تعبد من دون الله، وتُقرّب لها القرابين، وتنشب

بينها الحروب المدمرة للشعوب باسم «الآلهة» من أجل شهوات الطغيان «الامبراطوري» الذي كان يستغل هذه الوثنية «الداعرة» ليعيث في الأرض فسادًا باسم «الآلهة».

وتنبه التاريخ ـ بعد أن شاخ وترهل ـ وحزم تراثه وحمله على مناكبه، وسار به في سرعة خاطفة ميممًا مشرق الشمس، حتى إذا بلغ «الربوة الحمراء» في فيافي الجزيرة العربية ألقي عن كاهله أثقاله في الجزيرة العربية يومئذ في عزلة موحشة ونسيان شرود، ولكن ضربات المخاض القاسية التي كانت أناتها تؤذن بانفراجها عن الحدث الجلل ذكرت التاريخ بها، فذهب إليها وهو يلهث مكدودًا، وغَطَّ في نومٍ قلقٍ، ملئ بالرؤى وأضغاث الأحلام، رجعًا لصدى ماضيه السحيق.

وعلى صوت حفيف أقدام خافت في رمال الصحراء تيقظ من غفوته، فانبعث من مرقده متكاسلًا، يتمطى ويمسح عن عينيه رماص الكرى، وإذا به مع نفسه وحيدًا إلا من طفل في مهده يضغو من شدة العطش، وإلى جانبه امرأة رصينة ستور، لهفانة لا تستقر نظرتها على شيء، حتى على طفلها المتضاغي في مهده، كأنها تخاف أن تنظر إليه، بيد أنها كانت تنوء تحت وطأة الآلام تعصر قلبها، وتحرق كبدها كلما حرك الطفل قدميه يفحص بهما رمال الصحراء، كأنه يطلب شيئًا أودعه له فيها حفيظ أمين.

وانفجرت الرمال عن الوديعة، فإذا هي «زمزم» عين لا تغيض، وصدق إلهام «هاجر» حين قالت لأبي الطفل، الذي جاء به مع أمه إلى هذا الوادي الأجرد اليابس: «الله أمرك بهذا؟» قال الخليل عليه السلام: نعم، ولم يزد، ثم ولي مسرعًا، كأنه على موعد: «إذن لا يضيعنا».

أجل يا أم إسماعيل لن يضيعكما الله، وفي صلب وليدك وديعة الوجود، وهدية السماء إلى الحياة.

أجل يا أم إسماعيل إن الله سيجدد بوليدك صادق ديباجة الحياة، وسيخلع عليها من جلاليب الفيض السماوي ما يحول ظلامها نورًا، وجبالها مآذن، وهضابها منائر للهداية، ووديانها مساجد يتعبد في محاريبها الموحدون، وآفاقها مراتع للحرية الإنسانية، يرتع في مسارحها المؤمنون بقداسة الحياة، وتنفلق صخورها عن سر الأسرار في هذا الوجود، عن النور المخبوء في كنز الغيب، عن كلمة الله وأمانته، منذ كان آدم بين الطين والماء.

صبرًا أم إسماعيل، إن إبراهيم عليه السلام خليل الله، وللخيل مع الخليل مناجاة، وفي المناجاة أسرار وأسرار، سوف تنفجر عنها رمال الحياة كما انفجرت عن «زمزم» رمال الصحراء.

أجل يا أم إسماعيل، لقد جيء بك وبوليدك إلى هنا لتؤديا أمانة الله إلى رمال الحياة في هذا الوادي «الصديان» لتكون الآية الإلهية أضخم

من تراث التاريخ كله في فلسفته، وعلومه، ومعارفه، وتجاربه، وأنظمته، منذ وعى التاريخ حقيقة الحياة.

وافتر ثغر «هاجر» عن ابتسامة الرضى، وهي ترى واديها الأجرد المقفر يجذب إليه فئات من الناس، كانوا يمرون به من قبل فلا يجدون فيه أثرًا للحياة.

وشَبّ إسماعيل وترعرع بين أطفال جُرْهُم وشبابها عربيًّا خالصًا، ولما استوت رجوليته أصهر فيهم إلى سيدهم، وجاء إبراهيم خليل الله عليه السلام زائرًا ولده، ولقي إسماعيل أباه، وتحدثا حديث حنان الأبوة، ووله النبوة، وأفضى خليل الله إلى ابنه إسماعيل بسر رمال الصحراء التي كان قد أودعه فيها مع أمه في هذا الوادي ليؤديا أمانة الله إلى الحياة.

ونبأه بأمر الله في بناء بيته وقد بوأه الله مكانة من الربوة الحمراء، وبني إبراهيم وإسماعيل ـ عليهما السلام ـ «الكعبة المشرفة» بيتًا لله ـ تعالى ـ ليكون رمزًا إلى الحقيقة الكبرى في الوجود، حقيقة التوحيد، في توحيد التوجه إلى الله الواحد الأحد، وتضرع خليل الله ودعا ربه وأمن إسماعيل أن يجعل الله أفئدة من الناس تهوي إلى ذريته في جوار هذا البيت المحرم: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ﴾[إبراهيم:٣٧].

وهذه ضراعة داعية، تنساب من قلب خليل الله إبراهيم لجوءًا إلى أرحم الراحمين؛ أن يجعل من هذا الوادي الأفيح المقفر اليابس بلدًا عامرًا بذرية هذا الوليد، الذي جاء به إلى هنا وحيدًا إلا من أمه الراضية الوالهة ـ استجابة لأمر الله تعالى ـ ولما يعلم الخليل ما كتبه قلم القدر الحكيم في لوح الكون من أسرار تحجبها رمال الصحراء في هذا الوادي المجيد، ولكن إلهام «الخلة» في وحي النبوة ألقي إليه كلمة الله في رسالة التوحيد، تلك الرسالة التي حاف عليها تاريخ المجتمع البشري، فلم تجد لها في تراثه إلا سم الخياط منفذًا تنسرب منه متسللة في مسارب الحياة.

وكانت هذه الضراعة الداعية دعوة عامة، تستهدف الاستقرار والأمن، وجلب الرزق لذرية إسماعيل، وتبرز ما استسر وراء سجف الغيب من تجليات وأحداث تجعل من إسماعيل دوحة تلقي بظلال أفنانها على جنبات الوادي الأجرد، فتحيله حياة حية خالدة، تهوي إليه الأفئدة من أطراف الأرض، هائمة والهة بحب الحقيقة الكبرى في رمزها العظيم «الكعبة المشرفة»: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿٢٦﴾ وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ [الحج: ٢٦، ٢٧].

واستجاب إبراهيم وإسماعيل لأمر الله، وطهرا بيته الذي جعله مثابة للناس وأمنًا، طهراه من رجس الوثنية التي أثقلت كاهل التاريخ على طول مسيرته في حياة المجتمع البشري، ونادى إبراهيم في الناس بالحج إلى بيت الله، وأبلغ الله النداء إلى أهله في عالمي الغيب والشهود، وأتوا من كل فج عميق ملبين دعوة ربهم على لسان خليله إبراهيم، يتداولون عصرًا بعد عصر، وجيلاً وراء جيل؛ تحقيقًا لوعد الله بقبول دعاء إبراهيم وإسماعيل: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾[البقرة:١٢٧].

وتزاحفت القرون، والعُصُر متواثبة، وهي تطوى بساط التاريخ، وتسوق الأجيال جيلاً إثر جيل، وبلغت دعوة إبراهيم العامة مداها في الانتشار، وتكاثر ولد إسماعيل حتى كانوا غمرة العرب وجمهرتهم، وسادوا وتسيدوا، وتشعبوا وتفرغوا، وملؤوا السهل والجبل، ونزلوا الوديان وتسنموا القنن.

بيد أنهم نسوا دعوة أبيهم إبراهيم، وجهلوا منها الحقيقة الكبرى، حقيقة التوحيد، وأوغلوا في وثنية بليدة، وجعلوا من «بنية» إبراهيم وإسماعيل المطهرة «متحفًا» لوثنيتهم، يضاهئون بها وثنية الفجور من قبلهم.

وتنفس الغيب، وبدت إشراقة الفجر الجديد ترسل أشعتها من أفق

«الربوة الحمراء» وتعالى صوت الحق في ترنيمة الرسالة العظمى، رسالة التوحيد والعلم والطهر، علم الكتاب والحكمة، لا علم الهلوسة والفلسفة؛ ورتل القدر مرة أخرى ضراعة أخرى للخليل في دعوته الخاصة بعد أن حقق الله له دعوته العامة، وكانت هذه الدعوة الخاصة هي ميراث الحياة في خلة الخليل، والعنوان المشرق في ملته الحنيفية والكلمة الباقية من نبوته ورسالته، وجاءت هذه الدعوة متوافقة تمام التوافق مع نفس الغيب في إشراقة الفجر، وتكلم الله ـ جل جلاله وعز سلطانه ـ على لسان خليله يلهمه سر الوجود في ضراعة خاصة يطلب بها إظهار مكنون الغيب حين يحين الحين: ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾[البقرة:١٢٩].

يقول الإمام ابن كثير: وقد وافقت هذه الدعوة المستجابة قدر الله السابق في تعيين محمد ﷺ رسولاً في الأميين إليهم وإلى سائر الأعجميين من الإنس والجن.

وحان الحين وكانت كلمة الله الخاتمة الخالدة، في اصطفاء منابع السر الأعظم من دوحة الإنسانية، واستخلاص ثمرتها في معنى كلمة الله، وجاء التعبير البياني عن ذلك الاصطفاء مصدقًا لما بين يديه: «إن الله اصطفي كنانة من ولد إسماعيل، واصطفى قريشًا من كنانة، واصطفي من قريش بني هاشم، واصطفاني من

بنـي هاشـم؛ فأنـا دعـوة أبـي إبـراهيم». وكـان خلاصـة «الخلـة» في نبـوة الرسـالة مـن إسـماعيل صـادق الوعـد محمـد الصـادق الأمـين، المبعوث رحمة للعالمين، بين يدي الساعة، خاتمًا للنبيين.

تمهيد

الرسالات الإلهية والعقل الإنساني:

مكان الرسالات الإلهية من الحياة مكان العقل الإنساني من أفراد البشر، والعقل هو المرشد الأول للإنسان، يهديه إلى سواء الطريق، وينير له ظلمات الوجود، ويفتح أمامه مغاليق الكون، ويسدده في مسيره ضاربًا في بيداء الزمن حتى يقضي ما قدر له من بقاء.

وعلى قدر استعداده الفطري يكون كسبه من تجاريب الحياة، وعلى قدر ما يكسبه من تلك التجاريب تكون فائدته، وعلى قدر هذه الفائدة تكون مكانة الفرد في الجماعة ومكانه منها، ومن ثم يتدخل العقل بوساطة الفرد في إرشاد الجماعة وهدايتها وتسديدها والسمو بها صعدًا في مدارج الرقي والكمال.

وإذا كانت الحياة لم تعرف حدًّا لرقي الفرد في الجماعة البشرية ينتهي إليه، فَأَحْرِ ألا يكون للجماعة نفسها حد تقف عنده في رقيها، فالحياة متجددة، والمعارف الإنسانية متزايدة والعقل البشري دائب العمل، وخزائن الكون لا تزال مغلقة، وأسراره ما برحت محجبة، وحقائقه ما فتئت مجهولة.

وكيف يقف رقي الفرد أو الجماعة عند حدٍ، ومهمة العقل في الحياة هي كشف تلك الأسرار الكونية، ومعرفة حقائق الوجود

واستخدامها في إفادة الإنسانية؟ ومن الغرور العقلي أن يزعم إنسان أنه وصل إلى درجة من المعارف والعلم بحقائق الكون وأسرار الوجود تقربه من الكمال المقدور للبشرية، فالمجهول من تلك الأسرار وهذه الحقائق لا يزال أعظم بكثير جدًّا مما عرف، لا يزال الكثير منه مستخدمًا في الحياة على غير جهته التي تفيد منها الحياة، فالجهاد أمام العقل واسع المدى، فسيح الجنبات.

بيد أن هذه المعارف العقلية التي لا تنتهي عند حد في الأفراد والجماعات هي في الواقع المشهود محدودة المنزع، لا تتعدى مشاهد الوجود ومظاهر الكون.

وهنا يأتي دور من أدوار الرسالات الإلهية في قيادة العقل إلى مجاهل الطبيعة ومطويها ومداخل الوجود، وبواطن الحياة، بل إلى ما وراء الطبيعة وإلى ما فوقها، إلى الخالق ـ جلّ شأنه ـ، وإلى عظيم قدرته وباسط سلطانه، وبالغ حكمته، وواسع علمه، وهيمنة إرادته؛ وإلى الكون وما فيه من أسرار وآيات ودلائل تدل ـ بما اشتملت عليه من نظام متماسك وقوى مترابطة وسنن متوافقة؛ ومنافع متتابعة ـ على فضل الله ورحمته، ولطفه وإحسان وجوده وقهره وكبريائه، ولطائف تدبيره.

وهذا مجال تنبيه وإرشاد، تتجه فيه الرسالات الإلهية إلى مخاطبة العقل؛ لتوجهه إلى تعرف جلال الكون، وعظمة الوجود، وخطر

الحياة؛ ليقف منها على وشائج التكوين والإبداع التي تصل المخلوق بالخالق، وتربط بين أجزاء الوجود، وتكشف عما طُوي فيها من منافع واستجابات لرغبات الإنسان المادية والروحية.

وكلما اتسعت معارف العقل عن حقائق الكون ازدادت استجابات الحياة له، وقوى سلطانه في تسخير قوى الطبيعة فيما يفيد النوع الإنساني ويرقي عناصره ويدعم قواه، ويهيئ أمامه الفرص للتغلب على احتمال أعباء الحياة في ثقة واطمئنان.

وليس العقل الإنساني بمعصوم من الزلل والخطأ، بل ربما كان من الحق أن يقال أنه كثير الخطأ والزلل، ولا سيما إذا ضعف أمام الغرائز والقوى الحيوانية، واستجاب لدواعيها وخضع لسلطانها؛ فإنه حينئذ يصبح أداة طيعة لهوى تلك الغرائز؛ وعبدًا لشهواتها تتحكم فيه وتوجهه في طريق أغراضها، وتصبح معارفه وسيلة من وسائلها في تلوين الحياة كما تشتهي وتريد.

وتاريخ الحياة والأحياء يدل على أن سلطان الغريزة كان أقوى في الأفراد والجماعات من سلطان العقل، ويدل على أن الحياة أسرع استجابة لنداء الغريزة من منطق العقل، وأسلس قيادًا في يد الغرائز منها في يد العقل، والغرائز في الإنسان شبيه بعضها ببعض في مطالبها وغاياتها، ولكنها تختلف في الأفراد قوة وضعفًا، وظهورًا وكمونًا وليس العقل الإنساني على هذا الغرار في أفراد الإنسان، فهو مختلف فيهم

أشد الاختلاف، وقلما يتفق عقل وعقل، فاتفاق الغرائز في الغايات يكسبها قوة في مطالبها وتنفيذ أغراضها، واختلاف العقول يوهن من سلطان العقل على الغرائز، والغرائز منافذ للقوى المادية تتنفس منها، ومن ثم نراها تشتط في تنفيذ رغائب الجسد وتحاول أن توجه قوى الحياة ـ حتى العليا منها ـ إلى مقاصد مادية، لا وزن عندها للقيم الخلقية من العدل والرحمة والإيثار إلا إذا كانت وسيلة لنفع مادي وقضاء شهوة جسدية، فالظلم والقسوة والأثرة في لغة الغرائز ومنطق المادة الصماء تساوي العدل والرحمة، والإيثار في كثير من الأحايين والأوقات.

فالغرائز إذا انطلقت على سجاياها وتغلبت على العقل كيفت أعمال الأفراد والجماعات على حسب ميولها وهواها، وخلعت على تصرفات الأشخاص والأشياء نعوتًا من لغتها حتى تصبح القوة الغاشمة هي الميزان الأعلى في شرعة الحياة، ولا فرق بين أن يكون هذا الميزان منصوبا على حشائش الأحراش والأدغال وعلى أبواب الكهوف والغيران، أو موضوعًا على بساط سندس الحضارة الزائفة الملوثة بدماء الضعفاء، وهذا هو المنبع الذي نبعت منه المذاهب المادية منذ قامت الحياة.

وهنا يأتي دور آخر للرسالات الإلهية هو دور إيقاظ العقل من ذهول سطوة الغرائز وإفساح المجال أمامه لتنظيم رغائبها في صورة

تخضعها لموازين الأخلاق، وإعطاء الفضائل قيمتها في الحياة، ووضع الرذائل في مواضعها منها، حتى تقاس كل فضيلة أو رذيلة في أعمال الأفراد والجماعات بالمقياس العادل الذي لا يعرف الغش والخداع[1].

فالدور الأول للرسالات الإلهية دور قيادة وتعليم، ومجالها في هذا الدور هو الحقائق الكلية والمعارف العليا، فهي التي تنبئ عن الغيب وتكشف عن حقائقه في صور واقعية، وأمثال تقربها إلى الواقع المشهود حتى تكون دانية إلى مجال العقل ومدركاته، وهي التي تتحدث عن الخالق ونعوت كماله، وعن فيض الحياة من خزائن رحمته، وعن عوالم السماء والأرواح، وعن الوحي والنبوة، وعن نظام الكون وقوانين ترابطه، وعن الحياة الأخرى وما فيها من ثواب وعقاب.

ولا سبيل للعقل وحده إلى إدراك هذه الحقائق إدراكًا يتجاوب صداه مع الواقع الغيبي في هذا المجال؛ لأن الغيب محجوب عن

(١) في صدد تحديد موازين الأخلاق، قد تعرض للباحث هنا مشكلة يراها بعض الباحثين الاجتماعيين من أعوص المشاكل، تلك هي مشكلة تحديد حقائق الفضائل بتحديد يميزها عن الرذائل، وهل ذلك من مهمة العقل وحده، أو له في ذلك شريك؟ وأي شيء هو ذلك الشريك؟ أو أن العقل لا شأن له في ذلك، ويجب أن ينحى عن هذه المرتبة، وإذا أبعد العقل عن هذا المجال فأي كائن هو الذي توليه الحياة ثقتها؟ ولا يمكن أن يكون ذلك الكائن هو الغرائز وقد عرف شأنها بيد أن جميع أهل الأديان والملل يطمئنون -كل الاطمئنان- إلى أن مرجع ذلك هو الرسالات الإلهية.

الحس، والحس بأدواته المادية هو المشكاة التي يستضيء بمصباحها العقل، فيهتدي إلى أوليات من الحقائق يحمل عليها مثيلاتها بضرب من القياس والتشبيه، ومن هذه الحقائق تتولد القضايا العقلية المنتزعة من الوجود المشهود انتزاعًا مباشرًا أو غير مباشر.

فالعقل الإنساني في هذا الدور يجب أن يكن خاضعًا للرسالات الإلهية، آخذًا عنها، وهي التي تمده وترشده وتهديه، فإذا استجاب لها أمِن العثار والزلل، وإذا تأبّى عليها وقع في أغلال الغرائز، وانقلب عمله إلى استجابات مادية تصب المعارف العليا في قوالب وثنية تعتمد على التشبيه والتصوير، وتاريخ الفلسفات والأديان مليء بالشواهد الصادقة على ذلك.

أما الدور الثاني للرسالات الإلهية فهو دور مؤاخاة العقل ومظاهرته حتى يتغلب على جموح الغرائز ويكفكف من حدتها، ويطامن من غرورها، ويقلل من اندفاعها، ويوجهها وجهة صالحة دون كبت يميتها، أو انطلاق يفسدها.

ومجال هذا الدور هو الحياة الواقعية التي يحياها الأفراد والجماعات، وتحديد علاقة الفرد بالفرد، وعلاقة الفرد بالجماعة، وعلاقة الجماعة بالجماعة، بل علاقة الفرد والجماعة بالحياة والأحياء، وتنظيم هذه العلاقات على أسس من العدل تعطى كل ذي

حق حقه، وتشيع بين الأحياء الثقة والاطمئنان والتعاطف والتواس والمحبة والإخاء.

والعقل الإنساني في هذا الدور يجب أن يكون هو المسيطر على الغرائز، يقودها بحكمته ويوجهها بسياسته، والرسالات الإلهية هي المرشد العليم، والمستشار الأمين، والناصح الحكيم، وعلى ضوء إرشادها ونصحها ومشورتها يسير العقل في طريقه مؤديًا واجبه على أكمل وجه في الحياة.

ولقد مرت الإنسانية بأطوار متعددة اختلفت عليها في تلك الأطوار الرسالات الإلهية فكانت فيها معالم للتاريخ على تلك الأطوار، وكانت كل رسالة مبدأ لطور ونهاية لآخر.

وقد احتفظت تلك الرسالات بخصائص ومميزات، هي في الواقع خصائص ومميزات الأطوار التي سايرتها، ومن تلك الخصائص يعرف نصيب العقل الإنساني في تلك الأطوار، فهو مولود مع الإنسانية وخاضع لما تخضع له من حكم التدرج في طريق الاكتمال.

وكما مرت الإنسانية في مرحلة الطفولية الغريزية محكومة بالغرائز المنطلقة، مر معها العقل الإنساني في هذه المرحلة منطلقًا مع الغرائز يفتح لها أبواب المادية المجنونة الجائعة، وجاءت الرسالات الإلهية في هذا الطور تومئ إلى الحقائق العليا ولا تفصح وترمز ولا تصرح

تمشيًّا مع طاقة الإنسانية الساذجة، وحالة الطفولة التي يمر العقل مرحلتها في هذا الطور من أطوار التاريخ البشري.

واستعراض الصور الجدلية التي يقصها التاريخ وتحدثنا بها كتب الرسالات الإلهية عن أوائل الأنبياء والرسل ومتقدميهم في الزمن «كنوح، وإبراهيم، وهود، وصالح، وشعيب» مع أممهم تدلنا على أن العقل البشري وقتئذ كان مدثرًا في مهاد الطفولة محاطًا بالغرائز تهدهده حتى يظل نائمًا لصيقًا محجوبًا عن السماء.

وقد يكون هذا هو السبب فيما يقع من الوهم في صلاحية العقل وحده لإدراك الحقائق العليا إدراكًا مباشرًا دون اعتماد على الحس، ولعل هذا الوهم يستند إلى تاريخ الفلسفات القديمة التي أطلقت للعقل أعنة السبح فيما وراء الطبيعة: في الخالق ونعوته، وفي عوالم الأرواح والملائكة، والأفلاك والسموات، وفي الحياة وطريقة صدورها عن (الله) - تعالى -.

ولا شك أن هذه حقائق عليا لا سبيل لتدخل الحس فيها، بل استقل العقل في خوض بحارها فغرق في أعماقها، ثم طفا وفي يديه قضايا ومعارف آمن بها، وأقام عليها صرح أعرق فلسفاته القديمة، وهي الفلسفة الإغريقية التي ثقفها فلاسفة الإسلام في المشرق والمغرب، وكان عليها مِعْوَلُهم، وها هو ذا العلم التجريبي وفلسفات العقل المتوثب قد زعزعا أركان تلك الفلسفات القديمة.

ونحن إذ تجاوزنا عن قول بعض مؤرخي الفلسفة القديمة كالقفطي: إن الفلسفة الإغريقية كانت وليدة الفلسفة المصرية، وهذه الفلسفة المصرية اعتمدت في أصلها على بقايا من الرسالات الإلهية، كرسالة نبي الله ورسوله (إدريس) عليه السلام، وهو الذي تسميه الفلسفة (هرمس)؛ فيكون حينئذ العقل فيها غير مستقل، وليست هذه القضايا من عمله وحده، بل اعتمد في أصلها على نبوآت الرسالات الإلهية، إذ تجاوزنا عن ذلك - رغم أننا لا نجد سندًا تاريخيًا يصحح رواية القفطي - فإننا لا نفقد أثر الحس واضحًا في كثير من قضايا هذه الفلسفة؛ وحسبنا أن نلقي نظرة على أهم قضاياها عند أبرع فلاسفتها، تلك هي قضية (الإله) الخالق عند (أرسطو) فسوف نجد عمل الحس هنا سابقًا على عمل العقل، ولعل نظرية (العقول العشرة) التي فتنت بها هذه الفلسفة تعطينا صورة عن عمل الحس وقياس الغائب على الشاهد، وهذه النظرية (العقول العشرة) التي ابتدعها أرسطو - أبرع فلاسفتهم - تعتمد على وجوب الوسائط في الخلق والتكوين؛ وهذا من آثار عمل الحس في التفكير.

وكان هؤلاء الرسل الكرام يضيقون ذرعًا بهذه البلادة العقلية، وذلك التعبد الذليل للغرائز العمياء التي تستلهم المادة وتستهدي بها في أغراضها، وتستوحي الأرض في تحقيق مطالبها، وتتصامم عن سماع صوت السماء، حتى إذا استيأس الرسل وظنوا أن منافذ الأمل قد

سدت، وأبواب الرجاء في تخليص العقل من سلطان الغرائز وسيطرتها قد أوصدت، لم يبق لهم إلا طلب التطهير العام بإفناء هؤلاء الميؤوس من هدايتهم وتحرير عقولهم، تطلعًا منهم إلى طور إنساني جديد، يتجدد به ميلاد الإنسانية بعقل يشب عن الطوق، وتتهيأ له وسائل التغلب من أغلال الغرائز، مستعدًا لفهم لغة فوق لغة الحس، تتحدث عن عوالم الغيب وموازين الأخلاق.

ولقد كان للعقل الإنساني ومضات في هذا الطور من أطوار الحياة، إذا نبهته الرسالات الإلهية تنبه، وأشرقت آفاقه بنور الحق في سرعة خاطفة، أما إذا غلبت عليه كثافة الغرائز المتحكمة فإنه سرعان ما ينكص على عقبيه، وعاد كأنه لم يبصر من الحق والهدى شيئًا، وفي ذلك يقول القرآن الكريم في قصة إبراهيم رسول الله وخليله ـ عليه الصلاة والسلام ـ: ﴿۞وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٦﴾ وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾ فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾ قَالُوا۟ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُوا۟ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا۟

فَأْتُواْ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ۝٦١ قَالُوٓاْ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۝٦٢ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ ﴾[الأنبياء:٥١-٦٣].

وهذا تصوير بارع لمغالبة الطبيعة المادية القائمة للعقل الحبيس في أتون الغرائز، مع قارعات الحج الإلهية وداويات النذر، فلم يبق أمام الرسالة الإلهية إلا الأسف الحزين على إهدار كرامة العقل الذي بدأ يشب عن المهد: ﴿قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ۝٦٦ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾[الأنبياء:٦٦، ٦٧].

وفي هذا الطور من أطوار الحياة حفل التاريخ الإنساني بأعمال عقلية، سجلها فيما ادخره من فلسفات كانت في نظره حقائق فكرية.

وفي هذا الطور بدأت الرسالات الإلهية تمزج بين الحقائق الكلية وأمور الحياة الواقعة والحوادث الجزئية التي تحيا مع الناس ويحيا الناس معها، وجاءت شريعة التوراة تتحدث عن الله ـ تعالى ـ وعن الكون والخلق، والأنبياء والرسل، وعن الوحي وعن الملأ الأعلى مما لا يدركه الحس، وتتحدث عن حياة بعد هذه الحياة، وعن الثواب والعقاب، وعن علاقة الناس بالخالق، وعلاقاتهم بعضهم ببعض، ونحو هذا من التشريع الذي لم يعهد في شرائع الرسالات السابقة.

بيد أن أسلوب التوراة في التعبير عن ذلك كله كان أسلوبًا قائمًا على الاستعانة بالحس، وتغمره الأمثلة والصور الحسية، ويقل فيه التجريد، بل يكاد ينعدم، وذلك مراعاة لأثر الرواسب الغريزية المستخفية في الطبيعة الإنسانية؛ ذلك الأثر الذي كان يطفو أحيانًا على سطح الحياة في غفلة من العقل كفقاعات الهواء الفاسد التي تتنفس عنها مستنقعات النزير.

وكان مظهر ذلك جيل بني إسرائيل، فهو جيل عرف من المعارف العليا كثيرًا من الحقائق، وخاطبت فيه الرسالات الإلهية العقل ـ على ظلعه عندهم ـ وشرعت له، وهو نفسه الجيل الذي تبلد وأنكر كل معارفه العقلية في لحظة استعلى فيها سلطان الغرائز على العقل فحجبه عن السماء، وشده إلى الأرض، فنسى حتى تنكر لماضيه القريب، والقرآن الحكيم صور ذلك كله تصويرًا بارعًا في قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾ قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[الأعراف:١٣٧-١٤٠]

فانظر.. ليس إلا مجاوزة البحر بهم ناجين من فرعون وعذابه، وكانوا قبل تلك المجاوزة المثل المضروب في عالم زمانهم في عرفان الحقائق العليا من توحيد الله، ونعوت كماله، وعوالم الغيب، مما هو وراء الطبيعة، فنسوا كل شيء من هذه المعارف، وطمس على عقولهم فعادوا كأخبث ما كانت طبيعة مظلمة، وكأحط ما كان عقل سجينًا، وكأبلد ما كانت أمة من الناس، وكأجهل ما كان جيل في تاريخ البشرية.

أما ما جاءت به التوراة إليهم من التشريعات الجزئية للحوادث الواقعة في الحياة، فقد أحالته غرائزهم المادية المسعورة إلى رسوم استغلالية لا تقيم وزنًا للقيم الخلقية، ولا للفضائل الإنسانية، ولم يبق ـ عند تطبيق هذه التشريعات ـ فيصل بين فضيلة ورذيلة، وأصبحت الحياة ـ في نظرهم ـ متجرًا للاستغلال والمرابحة، كأنهم ولدوا بغير قلوب، وخلقوا بغير وجدان، فليس بين أحضانهم رائحة للعواطف الإنسانية في معاملة الناس من غير جنسهم، بل من أنفسهم.

ومن ثم كانوا ـ وكانت الحياة من أجلهم ـ في أشد الحاجة إلى «ثورة» عاطفية حنون تنبع من وجدان مليء بحب الحياة وحب الأحياء؛ «ثورة» تعرف الحق وتقدسه، ولكنها تلفه في غلالة الإيثار، وتعرف العدل مقدرًا جلاله، ولكنها تغلفه بالرحمة الحانية، وتعرف الإخاء وشيجة بين أبناء الإنسانية قاطبة، ولكن تجعله مودة موصولة بالتسامح والسماحة.

«ثورة» تقوم في داخل كل نفس إنسانية، يسمع صوتها القلب والعقل وهي تقلب الضمير ظهرًا لبطن، وتعرضه لشمس الحياة كما يعرفها الناس، عساه يستطيع أن يصنع من غلاظ الرقاب، قساة القلوب والأكباد أناسي يعيشون في دفء الشمس كما يعرفها سائر الناس.

وكان الله رؤوفًا رحيمًا، فجاءهم بعيسى المسيح ابن مريم عليه السلام، روحًا من الله وكلمة رحمته الودود، وأنزل عليه الإنجيل ترنيمات عاطفية باكية، ترمي بدموعها إلى مداخل قلوبهم لتطهرها من رجس غرائزهم المادية المظلمة، وتكفكف من غلواء نفوسهم الجامحة.

ولكن طبيعة اليهود لم تألف السماحة وتعاطف الرحمة، فمسخوا ترنيمات الرحمة الإنجيلية إلى وثنيات ترابية، فلسفتها لهم غرائزهم في صور مادية بعيدة كل البعد عن آفاق التفكير العقلي بله التراحم العاطفي، فلبسوا الحق بالباطل، وكتموا الحق تضليلاً، وافتروا على الله الكذب؛ وجعلوا من المسيحية مسخًا غامضًا لا تسيغه العقول.

ووقف العقل وحده في مكانه من الحياة، يتطلع مشدوهًا ـ في رجاء وأمل ـ إلى السماء يستهديها الرشد؛ يسترشدها الهداية؛ ويسألها في ضراعة أن تمده بمددها في رسالة إلهية كاملة شاملة توائم نضجه ورشده؛ تعرف الحق والعدل؛ وتتخذهما أساسًا لبناء الحياة الكريمة.

وتعرف السماحة والرحمة، وتجعلهما أساسًا لبناء حياة الإخاء الإنساني، وتعرف ـ قبل هذا وذاك ـ فطرية العقيدة التي تعتمد في معرفة الله ـ فاطر السموات والأرض ـ على دراسة الكون في غير غموض ولا تلبيس، ولا تغمض عين العقل على قذى فلسفات جوفاء، ولا تقبل عليه وصاية من خارج تفكيره، بل تمنحه حرية الانطلاق الكامل في كل تملك قوته العمل في مجاله، وتحجزه حفاظًا عليه من متاهات الاسترسال فيما لا يستطيع ولا يطيق من عوالم الغيب التي لا تخضع لسنن البحث والتفكير، وإن كان الإيمان المطلق بها يعتمد على مقدمات تخضع للبحث الذي يجعل من نتائجها قضايا يطمئن العقل إلى الإيمان بها؛ كإيمانه بأية قضية بحث من قضاياه.

وكان الله عليمًا حكيمًا، فأنزل القرآن الحكيم تبيانًا لكل شيء وأرسل به نبيه محمدًا ﷺ، وختم به رسالات السماء، وأبان فيه مكانة العلم والمعرفة، وجعل للعقل قيادهما، ومن هنا كان «العلم» بأوسع معانيه هو المعجزة الخالدة لهذه الرسالة الخاتمة، وفي ذلك يقول خاتم النبيين محمد ﷺ «ما من الأنبياء نبي إلا أوتى ما على مثله آمن البشر، وكان الذي أوتيته وحيًا أوحاه الله إليَّ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعًا يوم القيامة».

البيئة الطبيعية والاجتماعية لحياة محمـــد ﷺ

البيئة الطبيعية لحياة محمد ﷺ هي الجزيرة العربية كلها بوجه عام، سماؤها وأرضها، شمالها وجنوبها، جبالها ووديانها، نجودها وتهائمها، وهي ـ بوجه خاص ـ شمال تلك الجزيرة المعروف بأرض الحجاز، وهي بوجه أخص «مكة» من أرض الحجاز.

والتاريخ الطبيعي عرف للجزيرة العربية في جملتها خصائص شاملة تشترك فيها جميع أجزائها، وعرف ـ بعد ذلك ـ خصائص فصلت الجنوب عن الشمال، وعرف خصائص امتازت بها أرض الحجاز، وخصائص امتازت بها مكة في موقعها من أرض الحجاز.

عاصرت تلك الخصائص الجزيرة العربية مفرقة بين شمالها وجنوبها آمادًا طويلة، وأحقابًا متعددة، تدخل مع التاريخ في أعماقه البعيدة حتى تقف معه عند مجاهل العصور التي لم تتبين له معالمها، ولم تزل تمخضها الحوادث وتدافعها الأحداث، وتمر مع الزمن في أطوار طبيعية حتى تبلورت إلى صورة واحدة مشت بالجنوب إلى الشمال، فمزجته به في خصائصه حتى صار كأنه هو، جدبًا وشظف عيش، وقسوة طبيعية، وجفوة حياة، واكفهرار منظر، وعبوس جو، ولفح سموم، وكثرة تقلبات، وقلق إقامة، وتطلعًا إلى السماء رجاء غيث، وتوثبًا في أرجاء الأرض طلبًا لمرعى.

وهي ـ بعد ذلك ـ بيئة تدرع الليل، وتأنس بالوحش، وتستضيء بالنجوم، وتطرب لصوت الرعد، يكنفها فضاء لا نهاية له، وتظلها سماء لا تستقر على حال، تصفو مرة فتلمع بالليل نجومها، وتضحى بالنهار شمسها آناء، وتغيم مرة فيسود أديمها، وتتوارى كواكبها وتحتجب شمسها، ويكفهر أفقها، ويتجهم منظرها، أكنانها الجبال، ومسارحها الوديان، لا صناعة تشذب من مظاهرها، ولا زراعة ترفه من جوها، وكل الأمل المرجو منها مرعى تجود به الطبيعة؛ لتحيا عليه قطعان من إبل وشاه، عليها قوام تلك البيئة القاسية.

وقد شهر ذلك عن الجزيرة العربية حتى عرفه جيرانهم من الفرس والرومان فزهدوا فيها مع طغيان روح الاستغلال الاستعماري في الدولتين.. يحدثنا ابن هشام في السيرة: أنه لما طال بلاء الحبشة على أهل اليمن، خرج سيف بن ذي يزن الحميري حتى قدم على قيصر ملك الروم فشكا إليه ما هم فيه، وسأله أن يخرج الحبشة عنهم ويليهم هو، ويبعث لهم ما شاء من الروم، فيكون له ملك اليمن، فلم يشكه[1]، فخرج حتى أتى النعمان بن المنذر وهو عامل كسرى على الحيرة وما يليها من أرض العراق، فشكا إليه أمر الحبشة، فقال له النعمان: إن لي على كسرى وفادة في كل عام، فأقم حتى يكون ذلك ففعل فأدخله على كسرى، فقال له: أيها الملك غلبتنا على بلادنا الأغربة. فقال كسرى:

(١) يشكه: مضارع أشكاه إذا أزال شكايته.

أي الأغربة؟ الحبشة أم السند؟ فقال: بل الحبشة، فجئتك تنصرني ويكون ملك بلادي لك. قال كسرى: بعدت بلادك مع قلة خيرها، فلم أكن لأورط جيشًا من فارس بأرض العرب، لا حاجة لي بذلك.

* * *

هذه الخصائص الطبيعية كانت خلاصة ما انتهت إليه الأحداث الضخمة والحوادث الهائلة التي انتابت الجزيرة العربية في مدى الأحقاب المتوغلة في مجاهل التاريخ، تجمعت من أرجائها كلها وتلاقت في شمالها من أرض الحجاز، فكانت ـ فوق أنها خصائص الجزيرة كلها منذ بدأ انسياح القبائل الجنوبية إلى الشمال؛ طلبًا للعيش، عقب انهيار سد مأرب وتخريب عمران اليمن ـ هي في الوقت ذاته خصائص بلاد الحجاز منذ عرفها التاريخ.

مكة المكرمة ومكانتها

أما «مكة» بلد محمد ﷺ وبيئته اللصيقة به فسمها قرية أو مدينة أو ما شئت من أسماء الأمكنة التي كانت موئلاً لاستقرار قبيل من الناس يضطربون فيه طلبًا لوسائل الحياة والعيش، فيتسع لهم ويعطيهم ما تسمح به طبيعته، ويظهر أن أمر هذه التسمية يرجع إلى العرف ومصطلح الناس، وقد يختلف باختلاف الأزمنة والعصور، والقرآن الكريم أطلق عليها «بلدًا» وسماها مرة «قرية» ومرة أخرى سماها «أم القرى».. وأصول الاجتماع لا تأبى عليها اسم «المدينة».

ومهما يكن من أمر ذلك كله فإنها منذ كانت فهي عاصمة الحجاز غير منازعة ولا مزاحمة، وإطلاق اسم المدينة عليها أقرب إلى تسمية القرآن لها «أم القرى»، وأدنى إلى ما عرف لها من مكانة واحترام قبل البعثة المحمدية، وأشبه بما صارت إليه في الإسلام من منزلة دينية واجتماعية.

تلك المدينة التي كانت مسقط رأس محمد ﷺ، وموطن أسرته، ووطن قبيلته، وصفها القرآن على لسان خليل الله إبراهيم عليه السلام بأنها: «واد غير ذي زرع» فيما حكاه الله عنه بقوله: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ﴾[إبراهيم:٣٧].

وهذا أصدق وصف وأجمع كلمة لخصائصها الطبيعية فكلمة:

﴿وَادٍ﴾ تصور ـ أتم تصوير ـ وضعها من الأرض، فهي منخفض تحيط به الجبال، وكلمة: ﴿غَيْرِ ذِي زَرْعٍ﴾ تعطيك أن هذا الوادي له طبيعة شحيحة أشد الشح بالماء، فهي لا تكاد تجود به نبعًا، وإذا جادت به غيثًا تفرق في غير كبير فائدة، وتعطيك فائدة، وتعطيك نتيجة لذلك جدوبة الأرض وقحولتها، وتعطيك يبس الطبيعة، وشظف الحياة، وبؤس العيش، وتعطيك صرامة الجو، ولفح السموم، وهو وصف ـ في جملته ـ يدخل على النفس يأسًا قاتمًا أن تجد وسيلة من وسائل العيش الرغيد، أو سببًا من أسباب الكسب الربيح في هذا البلد السجين.

لكن «مكة» بلد محمد ﷺ لم تترك للطبيعة تحبسها في واديها الأجرد بين جبالها السود المكفهرة القاسية، بل تداركتها العناية الإلهية فأهدت إليها «الكعبة» بيت الله الحرام، فصارت بها «مكة» بلد الله الحرام، وكان الذي أقام الكعبة إبراهيم وولده إسماعيل، وإبراهيم جد العرب الذي تنتهي إليه مفاخرهم، وإسماعيل أبوهم، وقد تعرب منذ كان، فلم يعرف غير العرب شعبًا، ولا غير جزيرة العرب وطنًا، ولا غير «مكة» بلدًا.

روي البخاري: فحفظ الأبناء تراث الآباء، ورعى الأحفاد ذخيرة الأجداد، وعظم العرب كلهم «الكعبة» بيت جدهم إبراهيم وأبيهم إسماعيل، وعظموا لتعظيمها «مكة» واتخذوها حرمًا آمنًا يقدسونه

ويتحامون فيه المآثم، وينزهونه عن وقوع المظالم، ويؤمنون فيه الخائف، ويجبرون الكسير، وينصرون المظلوم، ويخافون الظلم فيه، روي ابن هشام: أن سبيعة بنت لاجب، قالت لابنها خالد بن عبد مناف الكعبي، تعظم عليه حرمة مكة وتنهاه عن البغي فيها:

أَبُنَيَّ لا تظلم بمكة لا الصغير، ولا الكبير
واحفظ محارمها بني، ولا يغرنك الغرور
أَبُنَيَّ من يظلم بمكة، يلق أطراف الشرور
الله أمنها، وما بنيت بعرصتها قصور
والله آمن طيرها، والعصم تأمن في ثبير

يحجون إليها ويجتمعون في مواسمها، يتعبدون ويتجرون، ويجلبون إليها الأرزاق والسلع، ويتبادلون ذلك فيما بينهم، فيصدر عنها من وردها بغير ما ورد، ويردها من صدر عنها بغير ما صدر، ثم اتخذوها منارًا لإذاعة مفاخرهم ومحكمة لتحاكمهم وملجأ لضعفائهم، وملاذًا يلوذ به أصحاب التبعات والجرائر منهم، ومصدرًا لمحالفتهم وتعهداتهم، ووضعوا لذلك سننًا متبعة لا يحيدون عنها، ونظامًا مأثورًا يأثره الخلف عن السلف، من غيره، أو انتهك حرمته فقد جاء بإحدى الكُبَر.

وهكذا أصبحت «مكة» شيئًا آخر غير كونها واديًا أجرد محصورًا بين الجبال، أصبحت متعبد العرب قاطبة، تهفو إليها قلوبهم؛ تحنّثًا فيها

وتعبدًا بالطواف حول بيتها المحرم؛ يقدسونها تقديسًا لا يفوقه تقديس، ويفدون إلى بيتها المعظم بالمهج والأرواح.

روي ابن هشام أن أبرهة الأشرم ـ وكان واليًا على اليمن من قبل النجاشي ـ كتب إلى النجاشي يقول له: إني بنيت لك ـ أيها الملك ـ كنيسة لم يبن مثلها لملك كان قبلك، ولست بمنته حتى أصرف إليها حج العرب، فلما تحدثت العرب بذلك غضب رجل من النسأة ـ قوم من العرب كان لهم النسيء في الأشهر الحرم ـ فدخل كنيسة أبرهة وقذرها، فلما بلغ ذلك أبرهة سأل عنه من فعله؟ فقيل له: رجل من العرب، من أهل هذا البيت الذي يحج العرب إليه بمكة، فحلف أبرهة ليسيرن إلى هذا البيت حتى يهدمه وتجهز لذلك، فلما سمعت العرب بمسيره أعظموه وفظعوا به ورأوا جهاده حقًا عليهم.

تلك هي صورة مجملة تصور البيئة الطبيعية التي ولد فيها محمد ﷺ، والتي عاش بين أحضانها، وتلك هي خصائصها العامة والخاصة.

* * *

أما البيئة الاجتماعية التي نهد محمد ﷺ بين أعطافها، وشب في مدارجها، واستوى رجلاً في مجامعها؛ فهي البيئة العربية التي تشمل جميع الشعوب والقبائل، والبطون والعشائر ممن سكن الجزيرة العربية في جنوبها وشمالها، وتكلم بلغة العرب، ودان بأديانها، واعتقد

عقائدها، وتخلق بأخلاقها، وتسنن بعاداتها، وتأثر بمن خالطها من الأمم والجماعات التي طرأت بتراثها الاجتماعي على جزيرتها، فهي أوسع مدى، وأشمل أثرًا من البيئة الطبيعية، لأن خصائص البيئة الطبيعية مظاهر جامدة ترتبط بالأرض والسماء، والخصب والجدب، والجو والطبيعة، أما خصائص البيئة الاجتماعية فهي انعكاسات لمظاهر البيئة الطبيعية تظهر صورها وآثارها حية في الإنسان الذي عاش فيها، وتقلب في أنحائها يتسبب لمعاشه، فهي على الحقيقة مجموعة أخلاق الناس وطبائعهم وعقائدهم ومظاهر حياتهم فيما يغلب عليهم من وسائل الحياة في صناعة أو تجارة أو زراعة أو استثمار حيوان، وما يتولد عن التنافس في ذلك من حرب أو سلم طلبًا للمطالبة؛ ودفاعًا عن البقاء، وأثر هذا في الأفراد والجماعات.

وأول مظاهر البيئة الاجتماعية وأعمها مظهرًا العقيدة الدينية وما ينشأ عنها من مناسك وتعبدات، وعنوان ذلك عند العرب قاطبة هو الوثنية التي تتمثل في عبادة المخلوقات من الكواكب وأصناف الحيوان والأشجار والأحجار، وهي وثنية جامدة بليدة في شكلها وموضوعها، لا تتفلسف ولا تتعالم، ولكنها تقوم على التقليد الأبله والوراثة المتعصبة التي لا تسمع لصوت العقل، ولا تصغى إلى الشعور ونداء الوجدان، وقد حكى القرآن عنهم هذا في معرض الرد على دعوتهم إلى الحق، فقال:

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلۡ نَتَّبِعُ مَآ أَلۡفَيۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ﴾[البقرة:١٧٠]، ثم بكتهم على هذه البلادة العقلية التي لا تناسب إنسانيتهم، فقال: ﴿أَوَلَوۡ كَانَ ءَابَآؤُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَهۡتَدُونَ﴾[البقرة:١٧٠]، ثم مثلهم في سد طرائق الفهم والتعقل على أنفسهم، وعدم تأملهم لما يسمعون، بالبهائم التي ينعق بها راعيها فتسمع الصوت، ولا تفهم مغزاه، وتحس بالنداء، ولا تفهم معناه، فقال: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِي يَنۡعِقُ بِمَا لَا يَسۡمَعُ إِلَّا دُعَآءٗ وَنِدَآءٗۚ﴾[البقرة:١٧١]

ثم سجل عليهم أنهم لم يكتفوا بإلغاء عقولهم، ولكنهم ألغوا كذلك حواسهم فعطلوها عن عملها الجاد المفيد فقال: ﴿صُمُّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٞ فَهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ﴾[البقرة:١٧١] وقد دفعهم الفراغ عن جد الحياة إلى التفنن في وثنيتهم البلهاء، فنوعوها وعددوا آلهتها واتخذوا لها الأنصاب والتماثيل والأصنام والأوثان، بنوا لها البيوت والمتعبدات حتى أصبح لكل قبيلة صنم أو تمثال في بيت خاص به تتعبد له وتذبح عنده قرابينها، وتطوف به وتتقرب إليه بصدقاتها ونذورها، وتستقسم بأزلامها في كنفه ليأمرها أو ينهاها، بل لم يبق بيت من بيوت العرب إلا اتخذ أهله صنمًا يعبدونه.

قال محمد بن إسحاق: «واتخذ أهل كل دار في دارهم صنما يعبدونه، فإذا أراد الرجل منهم سفرًا تمسح به حين يركب، فكان ذلك آخر ما يصنع حين يتوجه إلى سفر؛ وإذا قدم من سفره تمسح به فكان ذلك أول ما يبدأ به قبل أن يدخل على أهله».

ومن هنا جاء عجبهم حينما دعاهم رسول الله ﷺ إلى التوحيد، فقالوا: كما حكى القرآن عنهم: ﴿ أَجَعَلَ ٱلْـَٔالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴾[ص:٥].

قال هشام الكلبي في كتاب الأصنام: واستهترت العرب في عبادة الأصنام، فمنهم من اتخذ بيتًا ومنهم من اتخذ صنمًا، ومن لم يقدر عليه ولا على بناء بيت نصب حجرًا أمام الحرم وأمام غيره مما استحسن، ثم طاف به كطوافه بالبيت وسموها الأنصاب، فإذا كانت تماثيل دعوها الأصنام والأوثان، وسموا طوافهم الدوار، فكان الرجل إذا سافر فنزل منزلاً أخذ أربعة أحجار فنظر إلى أحسنها فاتخذه ربًا وجعل ثلاثة أسافي قدره، وإذا ارتحل تركه، فإذا نزل منزلاً آخر فعل مثل ذلك فكانوا ينحرون ويذبحون عند كلها ويتقربون إليها، وقد تبلغ البلاهة ببعضهم إلى أن يصنع صنمه من طعام يعجبه، يطوف به ويتنسك لديه ما دام مستغنيًا عنه، فإذا عضه الجوع عدا عليه فأكله، وقد يتنبه الوعي الداخلي في نفس أحدهم فيدرك في لحظة عابرة أنه ليس على شيء، ولكنه تنبه الخطرة الخاطفة، لا تنبه العقل المتأمل والعقيدة المفكرة.

روي محمد بن إسحاق وابن الكلبي: أن رجلاً من بني ملكان بن كنانة أقبل بإبل له كثيرة؛ ليقفها على صنم لهم يقال له «سعد» وهو صخرة طويلة بفلاة من أرض جده التماس بركته - فيما يزعم - فلما رأت الإبل سعدًا، وكانت مرعية لا تركب - وكان يهراق عليه الدماء - نفرت منه، وذهبت في كل وجه، فغضب ربها وأخذ حجرًا ورمى به سعدًا ثم قال له: لا بارك الله فيك إلهًا، نفّرت عليّ إبلي، ثم خرج في طلبها حتى جمعها، فلما اجتمعت له قال:

أتينا إلى سعد ليجمع شملنا		فشتتنا سعد فلا نحن من سعد
وهل سعد إلا سخرة بتنوفه		من الأرض لا يدعى لغي ولا رشد

وقال ابن الكلبى في كتاب الأصنام: وكان لمزينة صنم يقال له «نهم» وبه كانت تسمى عبد نهم، وكان سادن «نهم» يسمى خزاعى بن عبد نهم، من مزينة، ثم من بني عداء؛ فلما سمع بالنبي ﷺ ثار إلى الصنم فكسره، وأنشد يقول:

ذهبت إلى نهم لأذبح عنده		عتيرة نسك كالذي كنت أفعل
فقلت لنفسي حين راجعت عقلها		أهذا إله؟ أيكمٌ، ليس يعقل ؟
أبيت فديني اليوم دين محمد		إله السماء الماجد المتفضل

وفي كتاب الأصنام أن امرأ القيس بن حجر لما أقبل يريد الغارة على بني أسد مر بذي الخلصة وكان صنمًا بأرض تبالة، وكانت العرب تعظمه، وكانت له ثلاثة أقداح: الآمر، والناهي، والمتربص؛ فاستقسم

عنده ثلاث مرات، فخرج الناهي، فكسر القداح، وضرب بها وجه الصنم، وقال له: (عضضت با.. أبيك لو كان أبوك قتل ما عوقتني، ثم غزا بني أسد فظفر بهم).

وإلى جانب هذه الوثنية البلهاء الغامرة كانت هناك قلة منثورة في أرجاء الجزيرة العربية تنفرد باعتقادات خاصة، وتدين بديانات أخرى، فكانت اليهودية باليمن حتى غلبت عليها الحبشة، فأدخلت فيها النصرانية التي عاشت بنجران حتى جاء الإسلام، ثم تحولت اليهودية إلى الحجاز فأقامت بيثرب وخيبر، وهناك لقيها الإسلام، وفي غضون هذا الخضم الوثني كانت توجد حفنة من الناس تنكر على قومها التعبد للأحجار، وتتطلع إلى الحنيفية دين إبراهيم وإسماعيل، وكانت قد بقيت لها آثار باهتة لا تتضح منها معالمها، فتمسكت بأهدابها باحثة عن حقيقتها، حتى جاء الإسلام، فسمعوا ديباجة حديثه، ولم تَتَلَبَّث بهم أعمارهم، حتى يطلعوا على حقيقته، فمضوا على نياتهم وعقائدهم.

قال محمد بن إسحاق فيما يرويه ابن هشام في السيرة: واجتمعت قريش يومًا في عيد لهم عند صنم من أصنامهم كانوا يعظمونه وينحرون له ويعكفون عنده، ويدورون به، وكان ذلك عيدًا لهم في كل سنة يومًا، فخلص منهم أربعة نفر نجيا، ثم قال بعضهم لبعض: تصادقوا وليكتم بعضكم على بعض، قالوا: أجل، وهم: ورقة بن نوفل، وعبيد الله بن جحش، وعثمان بن الحويرث، وزيد بن عمرو بن نفيل، فقال بعضهم

لبعض: تعلموا والله ما قومكم على شيء، لقد أخطئوا دين أبيهم إبراهيم، ما حجر نطيف به لا يسمع ولا يبصر ولا يضر ولا ينفع؟ يا قوم التمسوا لأنفسكم، فإنكم والله ما أنتم على شيء، فتفرقوا في البلدان يلتمسون الحنيفية دين إبراهيم.

فأما ورقة بن نوفل فاستحكم في النصرانية حتى علم علمًا من أهل الكتاب، وأما عبيد الله بن جحش، فأقام على ما هو عليه من الالتباس حتى أسلم، ثم هاجر إلى الحبشة، وهناك تنصر ومات على نصرانيته، وأما عثمان بن الحويرث فقدم على قيصر ملك الروم وتنصر وأقام هناك، وأما زيد بن عمرو بن نفيل، فوقف فلم يدخل في يهودية ولا نصرانية وفارق دين قومه، واعتزل الأوثان والذبائح التي تذبح لها، ونهي عن قتل الموءودة، وقال: أعبد رب إبراهيم، وبادى قومه بعيب ما هم عليه، وقد قالت أسماء بنت أبي بكر الصديق: لقد رأيت زيد بن عمرو ابن نفيل شيخًا كبيرًا مسندًا ظهره إلى الكعبة، وهو يقول: يا معشر قريش والذي نفس زيد بن عمرو بيده ما أصبح منكم أحد على دين إبراهيم غيرى، ثم يقول: اللهم لو إني أعلم أي الوجوه أحب إليك عبدتك به، ولكنى لا أعلمه، ثم يسجد على راحته.. وقد قال عنه النبي ﷺ: «إنه يبعث أمة وحده»، وفي رواية عند ابن سعد في الطبقات: «إني رأيته، يسحب ذيله في الجنة».

وكان من أثر بقاء آثار الحنيفة بين العرب أنهم كانوا يؤمنون بوجود الله، ويسندون إليه عظائم الأمور، وأن آلهتهم هذه إنما تقربهم إلى الله زلفي، كما حكى عنهم القرآن في قوله: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾[الزمر:٣٨] وفي قوله ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾[الزمر:٣]. وكان بعضهم يقول في تلبيته للحج: «لبيك اللهم لبيك لا شريك لك، إلا شريكًا تملكه وما ملك».

وهكذا كانت الجزيرة العربية تموج بالشرك والوثنية في صور مختلفة ومظاهر متعددة، تتلاقى كلها في تفاهتها وسذاجة أوضاعها، وبعدها عن يقظة العقل والوجدان.

أما أخلاق العرب وعاداتهم الفاشية فيما بينهم فهي في الأغلب أخلاق وعادات تنبع من ينبوع عقائدهم الوثنية وبيئتهم الطبيعية، فخيرها يستوحي البيئة ومستلزماتها من الفاقة وضنك العيش وقسوة الحياة، فالنجدة والمروءة والوفاء بالعهد وصدق الحديث والشجاعة والكرم والسخاء والإيثار، والذود عن المحارم ورعاية الجوار، والحلم، والصبر، وسرعة الخاطر، وصفاء البديهة، وكل ما جرى هذا المجرى، مما سجله تاريخهم وأودعته أشعارهم، وشاد به أدبهم فضائل كان لها عند العرب من المكانة ما لم يكن لها عند غيرهم من الأمم.

ومن المعروف أن العرب ما كانوا يرجعون في ذلك إلى قانون خلقي، ولا نظريات نفسية، ولا مراسم تربوية، ولكنهم كانوا يستلهمون دواعي البيئة التي تؤويهم، ودوافع الحياة التي يحبونها، وتلك البيئة هي التي جعلت من هذه الفضائل أمهات المكارم التي تتفاخر بها العرب، حتى أسرفت فيها إسرافًا أخرجها عن دائرة الفضائل الفطرية، التي تقرها العقول السليمة، وتحض على التحلي بها الرسالات الإلهية.

وتلك البيئة نفسها هي التي جعلت من بعض رذائل الفطرة ومقل العقول ومناهي الديانات السماوية فضائل محلية، فشرب الخمر، والمقامرة، والفتك، ونصر القريب الظالم، ووأد البنات، وإكراه الإماء على البغاء تكسبًا، وما إليها مما كان فاشيًا بين مجتمعات العرب، وفي قبائلهم هي رذائل الفطر النقية، ولكنها كانت عند العرب فضائل يتفاخرون بها، ويعيبون الذي لا يتحلى بحليتها.

وكان للعرب -إلى جانب ذلك- خرافات سخيفة يعتقدونها وخيالات ساقطة يقيمون حياتهم عليها، وهي في الأغلب وليدة البله في العقيدة الدينية والوثنية التي كانت شائعة بينهم، ومن خرافاتهم: الاستقسام بالأزلام، وهي أقداح موضوعة عند سدنة الأصنام مكتوب عليها: «افعل» ولا «تفعل»، أو نحو ذلك، مما يدل على المضي في المقصود أو العدول عنه؛ فإذا أراد أحدهم سفرًا أو أمرًا مما يعرض له في حياته، ذهب إلى السادن، وطلب إليه إخراج الأقداح؛ ليأخذ منها

واحـدًا يـأتمر بمـا فيـه، ولهـا صـور متعـددة.. ومـن خرافـاتهم التطيـر بالسوانح والبوارح من الطير، ومن سواقطهم طوافهم بالبيت عراة، وقد عدد القرآن الكريم كثيرًا من هذه الرذائل مبكتًا المتعلقين بها؛ عائبًا عليهم اعتقادها؛ ناعيًا عليهم سفاهة أحلامهم وركاكة عقولهم.

وقد قضت البيئة الطبيعية، والفوضى الدينية، وشيوع الخرافات أن تتوافر لدى العرب أسباب، لإشعال نيران الحروب، وإيقاد جذوة التطاحن، قلما توافرت لأمة أخرى من الأمم، ولا يغلو من يقول: إن حياة العرب في جاهليتهم كانت حياة لا تعرف الأمن والسلام، بل كانت حياة تخفق فوقها بنود الحرب والتقاتل، وكأنما ضنت عليها الطبيعة بما يروي غلتها، ويخصب أوديتها من غير الماء، فجادت عليها لتعوضها بصبيب الدماء، وكأنما أصبحت الحرب طبيعة من طبائع ذلك الجيل من الناس، فمن العسير جدًّا على التاريخ أن يجد يومًا من أيام الناس مر على جزيرة العرب وليس بين أبنائها قتال، فإذا لم يكن في الجنوب كان في الشمال، وإذا لم يكن في نجد كان في تهامة، وإذا لم يكن بين قبائل حمير كان بين نزار، وإذا لم يكن في ربيعة كان في قيس، وقد عدد المؤرخون أيام الوقائع الكبرى في الجزيرة العربية وذكروا أسبابها ونتائجها، فإذا بها راجعة إلى تَغَالُبٍ على مرعى، أو حماية جار، أو أخذ بثأر، أو مساعدة حليف، وكم من سبب تافه ألهب لظى حرب

لبثت أعوامًا يَصْطَلي أوارها الناس، وحسبك أن تعرف أن روايات التاريخ الجاهلي تذكر أن حرب داحس والغبراء مكثت أربعين عامًا لا تخمد جمرتها، فلا يتحاجز الناس إلا ريثما يتهيئون لوثبة أخرى تعود فيها الحرب جذعة، تأكل شباب المقاتلين وشجعانهم، وحسبك أن تعلم أن سبب كل هذه الحرب الطويلة الدامية محاولة تغليب فرس على فرس في سباق، وحسبك أن تعلم أن حربًا بين بكر وتغلب دامت عشرات الأعوام وكان سببها إصابة ناقة البسوس، وكانت جارة لجساس بن مرة البكري فقتل بها كليبًا سيد تغلب ونشبت بين القبيلتين حرب شابت فيها الولدان.

وهكذا لا تكاد تنظر في تاريخ العرب قبل البعثة المحمدية إلا وتجد صفحات من الدماء خطتها على أديم جزيرتهم أسنة الرماح وظباة السيوف، وقد وَلَّدَتْ هذه الحروب العداوة بين قبائل العرب وبيوتاتهم، ففشا بينهم التقاطع والشحناء، وكان من أثر ذلك تعصب كل قبيلة لأفرادها والانتصار لهم مهما بلغ شأنهم، ومن ثم ساد بين العرب في جاهليتهم النظام القبلي الذي يعطى الفرد من المكانة ما لم يعرف له في الأنظمة الاجتماعية التي تنسق فيها الجماعة على نسق نظامي يحكمه قانون ثابت وحكومة تقوم على تنفيذ ذلك القانون.

وقد استحكم هذا الوضع الفردي في الأسرة العربية، فحكمها الفرد وتحكم فيها، فنظام الزواج والمفارقة والمواريث وعلاقة أفراد الأسرة كلها قائمة على حكم الفرد الذي لا يرد حكمه، وما بالك بنظام يجعل من قوانينه حرمان المرأة أن تتصرف في شيء من أمرها؟ وما بالك بنظام يجعل من حق أكبر أبناء الرجل أن يخلف أباه على زوجته؟ وما بالك بنظام يرمي بالأسرة كلها بل بالقبيلة من أجل جريرة فرد من أفرادها، ولو كان ذلك الفرد صعلوكًا أو خليعًا؟.

محمد الإنسان ﷺ
تسلسل الأحداث

توجيه البحث في هذا الفصل:

المقصود من هذا الفصل هو تصوير شخصية سيدنا محمد ﷺ تصويرًا تاريخيًّا يقوم على معرفة الأحداث والحوادث والأشخاص والأزمنة والأمكنة في الحياة التي كانت تحياها بيئة محمد ﷺ الطبيعية والاجتماعية، والحياة التي كان يحياها محمد ﷺ نفسه في تلك البيئة، وبيان الأطوار التي مر فيها تاريخ محمد ﷺ مدى تلك الحياة، وبيان آثار تلك البيئة في بناء شخصية محمد ﷺ التاريخية، وبيان آثار محمد ﷺ في البيئة من ناحيته الذاتية كرجل من رجالات تلك البيئة، نشأ في أحضانها، وعاش بين عاداتها وأخلاقها وشام تفكيرها[(١)]، ورأي عقائدها ، وخالطها في حربها وسلمها، ثم بيان آثاره كإنسان مكتمل خصائص الإنسانية في احتمال أعباء الرسالة الإلهية التي يبعثه الله بها إلى الناس كافة، في أطوارها المختلفة.

وهذا التصوير يقتضينا أن ننظر في شخصية محمد الإنسان ﷺ لنتعرف عليه في نشأته وعيشه كيف نشأ، وكيف عاش في بيئة لها خصائصها ومميزاتها الطبيعية والاجتماعية، وكل إنسان نشأ وعاش في بيئة فلابد أن يأخذ منها وتأخذ منه، ويجاذبها وتجاذبه، وفي هذا

(١) شام تفكيرها: هو من قولهم: شام البرق، إذا نظر إليه، ليتعرف أين يقصد.

التجاذب بين البيئة وأفراد مجتمعها تظهر مميزات الأفراد الذاتية التي تحميهم من التأثر بعوامل البيئة تأثرًا كليًّا قد تجعل الفرد صورة للبيئة وأثرًا من آثارها، ليس غير، كالآلة يصنعها صانعها؛ ليعمل بها ما يريد، وهي مجردة من الإرادة والاختيار اللذين هما خصيصة الإنسان النابعة من إنسانيته، بيد أن هذه الخصيصة تتفاوت في أفراد الإنسان، وهذا التفاوت هو فيصل الامتياز والتفوق في الشخصية المتكاملة، فما مدى أثر هذا التجاذب بين محمد ﷺ وبيئته في حياته مدى أربعين سنة قبل أن يبعث نبيًّا، عاشها في قومه وبيئته أطوارًا مختلفة مرهف الحس، قوى الوجدان صادق الشعور، مشبوب الرجولية، فارع الشباب.

هذا التصوير يقتضينا أن ننظر - بعد هذا - إلى حياة محمد ﷺ التي تولي الله فيها تربيته وأعده لرسالته ا لخاتمة الخالدة فأدبه فأحسن تأديبه؛ لنتعرف على معالم تلك التربية الإلهية والإعداد الربإني والتأديب الرحماني الذي جعل الله به عبده محمدًا ﷺ رحمة للعالمين.

وقد جرت سنة الله في رسالاته الإلهية أن يعد من يصطفيه لها في خلائقه، وجوهر إنسانيته وخصائص رجوليته إعدادًا خاصًا يوائم بينه وبين ما انتدب إليه، حتى يستطيع القيام بما حمل، ويؤدي ما كلف، كما أشار إلى ذلك القرآن الحكيم في قوله: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ۗ﴾[الأنعام: ١٢٤].

أسرة محمد ﷺ

خصائصها ومكانتها في العرب

ونظرنا إلى محمد ﷺ الإنسان، يدفع بنا إلى الوراء قليلاً قبل أن يكون محمد ﷺ شخصًا بين قومه، لنعرف النبعة التي انشقت عنه، ونعرف ماذا كان لها في شخصيته من أثر وراثي، أو أثر اجتماعي، ولسنا نعني هنا دوحته الكبرى «قريشًا» فهذه قد استوفت حظها من البحث، وإنما نعني فرعيها الفارعين الزاكيين: «عبد مناف» و«زهرة» اللذين انفرجا عن محمد، فعبد مناف غصن من الدوحة القرشية زكا وأينع فأثمر لسيدها عبد المطلب ابنه «عبد الله» وزهرة غصنها الذي زهي ونما، فأثمر لوهب سيدها ابنته «آمنة»، وهاتان الثمرتان ضمهما القدر المغلف بأسرار الغيب على وساد من الحب الشفيف واللقاء الشريف في سنة عربية للزواج بين كرام العرب معروفة، وشرعة إلهية منذ كان الناس مقدورة، فكان منهما «محمد» ﷺ رسول الرحمة للعالمين.

ووقوفنا عند «عبد مناف» و«زهرة» من بين أغصان الدوحة القرشية التي تجمعهما، لأنهما نقطتان تجمع فيهما كثير من خصائص الأصل والنبعة الكبرى، حتى كأنهما أصل مع الأصل، أو فرع انتهت إليه خصائص الأصل، فعبد مناف ورث مجد أبيه «قصي» الذي يعتبر في تاريخ قريش عرق الثرى في إمداد أغصانها بأمجاد المناقب وأصول المكارم التي كانت سائدة في العرب.

كان «قصي» بن كلاب أخا «زهرة» لأبيه وأمه، وكان في سن الفطام حين هلك أبوه وكان «زهرة» قد بلغ مبلغ الرجال، فتزوجت أمهما رجلاً من قضاعة، فارتحل بها إلى أرض قومه من مشارف الشام، فأخذت معها قصيًّا لصغره وتركت «زهرة» في قومه، ولما كبر قصي وبلغ مبلغ الرجال عاد إلى بلده وقومه فوجد أخاه «زهرة» قد كبر وعمي، فتعرف إليه فعرفه بعد أن استوصفه، ووجد «قصي» أمر مكة بيد خزاعة، فخطب إلى سيدها حليل بن حبشي ابنته «حبى» فزوجه بها لمكان نسبه وشرفه.

وكان «قصي» جلدًا نهدًا نسيبًا، فكثر ماله وولده وانتشروا في مكة، وسمت نفسه، فطمح إلى سيادة قومه، ورأي أنه أحق بالبيت وبأمر مكة من خزاعة، فحاربهم مستعينًا بأخوته لأمه من قضاعة، وانتزع أمر مكة من أيديهم، فشرف في قومه وساد.

قال ابن هشام في سيرته: «كان قصي بن كلاب أول بني كعب ابن لؤي أصاب ملكًا أطاع له به قومه، فكان شريف أهل مكة لا ينازع فيها، فابتنى دار الندوة وجعل بابها إلى البيت، ففيها كان يكون أمر قريش كله، وما أرادوا من نكاح أو حرب أو مشورة فيما ينوبهم، ولا يعقدون لواء حرب لهم مع قوم من غيرهم إلا في دار الندوة، يعقده لهم قصي، ولا يُعزّر لهم غلام إلا في دار الندوة، ولا تخرج لهم عِيرٌ فيرحلون إلا منها، ولا يقدمون إلا نزلوا فيها؛ تشريفًا له؛ وتيمنًا برأيه؛ ومعرفة

بفضله؛ ويتبعون أمره كالدين المتبع، وكان إليه الحجابة والسقاية والرفادة واللواء والندوة وحكم مكة كله».

ولما هلك «قصي» خلفه على أمر مكة ابنه «عبد مناف»، لأن عبد الدار بكر قصي وكبير ولده كان ضعيفًا فائل الرأي، وكان إخوته قد شرفوا عليه، وكان أعلاهم كعبًا في السيادة والشرف «عبد مناف»، وقد شرف في زمان أبيه وذهب كل مذهب[1]، وكان يقال له: «القمر» من حسنه، وله يقول الشاعر:

كانت قريش بيضة فتفلقت فألمح خالصه لعبد مناف

وقد اجتمعت قريش على «عبد مناف» فاختط لها الرباع بمكة، ووطد سلطانها عليها وعلى عبد مناف.. اقتصر النبي ﷺ في بيان القرابة في قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ﴾[الشعراء: ٢١٤].

روي ابن سعد في الطبقات عن ابن عباس قال: لما أنزل الله - تعالى- على النبي ﷺ ﴿وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ﴾ خرج حتى علا المروة ثم قال: «يا آل فهر» فجاءته قريش، فقال أبو لهب بن عبد المطلب: «هذه فهر عندك فقل، فقال: «يا آل غالب» فرجع بنو محارب وبنو الحارث ابنا فهر فقال: «يا آل لؤي بن غالب» فرجع بنو تيم بن الأدرم بن غالب، فقال: «يا آل كعب بن لؤي» فرجع بنو عامر بن لؤي،

(١) الطبري، جـ٢، ص ١٨٤.

فقال: «يا آل مرة بن كعب» فرجع بنو عدى بن كعب، وبنو سهم، وبنو جمح أبناء عمرو بن هصيص بن كعب بن لؤي، فقال: «يا آل كلاب بن مرة» فرجع بنو مخزوم بن يقظة بن مرة وبنو تيم بن مرة، فقال: «يا آل قصي» فرجع بنو زهرة بن كلاب، فقال: «يا آل عبد مناف» فرجع بنو عبد الدار بن قصي، وبنو أسد بن عبد العزى بن قصي، وبنو عبد بن قصي، فقال أبو لهب: «هذه بنو عبد مناف عندك فقل، فقال رسول الله ﷺ: «إن الله قد أمرني أن أنذر عشيرتي الأقربين، وأنتم الأقربون من قريش، وإني لا أملك لكم من الله حظًا، ولا من الآخرة نصيبًا، إلا أن تقولوا: لا إله إلا الله فأشهد بها لكم عند ربكم، فتدين لكم بها العرب، وتذل لكم بها العجم».

ورواه البخاري مختصرًا.. قال ابن حجر في شرحه: ووقع عند البلاذري من وجه آخر عن ابن عباس رضي الله عنه أبين من هذا ـ ثم ساق لفظه موافقًا لرواية صاحب الطبقات، وكذلك رواه مسلم، والإمام أحمد، والبيهقي، وغيرهم.

وهذا الحديث وحده يكفي سندًا لوقوفنا عند «عبد مناف» في تطلب الأصل القريب الذي ترجع إليه شخصية محمد ﷺ بالوراثة في بعض الخلائق والسجايا، فأنت ترى أن النبي ﷺ وهو في بيان مقام القرابة التي لها القدمة في الإنذار حسمًا للأطماع، والتي أوثرت من قبل الله ـ العلي الأعلى ـ بالسبق، ليعتمد على وشائج القربى في حميتها

لحماية دعوته وحمايته لتجاوب ما بينه وبينهم من المشاركة في خصائص تنزع إلى عرق واحد ـ قد سلك مسلك التدرج في التخصيص حتى إذا بلغ مجتمعها الحافل رآها سوية في «عبد مناف» فأخبرهم أنهم أخص من يجتمع به عرق من قريش، ولهذا التدرج الذي سلكه النبي ﷺ من الأعم إلى الأخص حكمة لطيفة، تبين أن الخصائص المشتركة بين فروع الأصل الواحد موزعة على الفروع كلها بنسب متفاوتة؛ ولكنها قد تنتهي مجتمعة عند فرع ينزل منها منزل القلب من الشجرة، وذلك الفرع هو الذي يسقي الأغصان المتفرعة عنه بجميع موارد الخصائص السابقة واللاحقة.

وهذا التفسير العملي للقرابة ـ في هذا المقام ـ يوحي بأن عبد مناف هو الفرع القرشي الذي تحدرت إليه جداول الخلائق الموروثة من أعراق آبائه، وهو الذي تقاطر فيه غيث «قصي» وأمجاده وانتهت إليه خصائصه، فنبل وساد ومجد في حياة أبيه، على رغم صغر سنه، وعلى رغم وصية أبيه لأخيه الأكبر «عبد الدار» بكر قصي بما كان لقصي من مناصب السيادة والشرف، وترك عبد مناف لهمته وفواضله.

روي ابن الأثير قال: لما كبر قصي ورق، وكان ولده «عبد الدار» أكبر ولده، وكان ضعيفًا وكان «عبد مناف» قد ساد في حياة أبيه، وكذلك إخوته، فقال قصي لعبد الدار: والله لألحقنك بهم فأعطاه دار الندوة والحجابة، وهي حجابة الكعبة، واللواء فهو كان يعقد لقريش ألويتهم،

والسقاية كان يسقي الحجيج والرفادة، وهي خرج تخرجه قريش، في كل موسم من أموالها إلى قصي بن كلاب، فيصنع منه طعامًا للحاج يأكله الفقراء.

لكن بني عبد مناف لم يرضهم أن تذهب منهم مكرمتا الجود والبذل، والسقاية والرفادة فانتزعوهما من بني عبد الدار، وتركوا لهم من شارات المجد ما سواهما حتى جاء الإسلام فأقر حجابة الكعبة في بني عبد الدار، وسألوا رسول الله ﷺ أن يجعل اللواء فيهم مع الحجابة فقال لهم: «إن الإسلام أوسع من ذلك»[1]، وهو يشير بذلك إلى أن اللواء صار في الإسلام مرتبة من مراتب المسلمين عامة، ولم يعد منصبًا من مناصب أمجاد قريش بل ولا عامة العرب فانتزعه منهم وجعله لعامة المسلمين، وأقر السقاية والرفادة في بني عبد مناف يتوارثها الخلف منهم عن السلف، حتى أدركت أبا جعفر المنصور ثاني خلفاء بني العباس، وتعاقبها الخلفاء من بعده.

أما «زهرة» الجد الأعلى للسيدة «آمنة» أم سيدنا محمد ﷺ فهو الأخ الأكبر لقصي والد عبد مناف، وقد أقام «زهرة» بمكة حياته كلها لم يفارقها ولم يرحل عنها، ولما رجع قصي من بلاد قضاعة، تعرف إليه فعرفه أدناه، ولم يزل ولده مع ولده لا يفارقونهم، يدخلون معهم في

(١) ابن الأثير، جـ٢، ص ١٠.

كل حلف ويشاركونهم فيما يقومون به من عمل، فأول حلف عقده بنو عبد مناف «حلف المطيبين» فكان بنو زهرة معهم على بني عبد الدار.

قال ابن هشام في سيرته: ثم إن بني عبد مناف بن قصي أجمعوا على أن يأخذوا ما بأيدي بني عبد الدار من الحجابة واللواء والسقاية والرفادة، ورأوا أنهم أولي بذلك منهم لشرفهم عليهم وفضلهم في قومهم، فتفرقت عند ذلك قريش، فكانت طائفة مع بني عبد مناف، يرون أنهم أحق به من بني عبد الدار لمكانهم في قومهم، وكانت طائفة مع بني عبد الدار يرون ألا ينزع منهم ما كان قصي جعل إليهم، وكان بنو أسد بن عبد العزى بن قصي، وبنو زهرة بن كلاب، وبنو تيم بن مرة، وبنو الحارث بن فهر مع بني عبد مناف، وكان بنو مخزوم، وبنو سهم، وبنو جمح وبنو عدى مع بني عبد الدار، فأخرج بنو عبد مناف جفنة مملوءة طيبًا فوضعوها لأحلافهم في المسجد عند الكعبة، ثم غمس القوم أيديهم فيها فتعاقدوا وتعاهدوا هم وحلفاؤهم، ثم مسحوا الكعبة توكيدًا على أنفسهم فسموا المطيبين.

وكان بنو زهرة شركاء بني عبد مناف في نصيبهم عند تجزئة الكعبة لبنائها.. حدث أبو جعفر الطبري عن ابن إسحاق قال: ثم إن قريشًا تجزأت الكعبة فكان شق الباب لبني مناف وزهرة.

هذا الترابط الذي كان بين زهرة وعبد مناف هو الذي يوحي بجعل

فرعيهما في قريش ملتقى ما تنقله الوراثة من الخصائص الإنسانية المنسابة مع تيار التوالد في الأشخاص.

بيد أن هناك فرقًا بين فرعي عبد مناف وزهرة في مقدار ما عند كل منهما من الجاذبية للخصائص والطباع، والتاريخ يذكر لبني عبد مناف خلائق القوة والصلابة والتمجد بالمكارم وحب الشرف والسيادة والبذل ودقة الشعور وسرعة البداهة، وهي خصائص كانت كلها متوافرة في قصي في جدهم الأعلى، فأخذها منه وراثة ابنه عبد مناف وأورثها عبد مناف بنيه من بعده، ويذكر لبني زهرة الأناة والهدوء ورقة الحاشية وحب الثراء، وهي خصائص كانت طبعًا لأبيهم زهرة بن كلاب، ومنه تحدرت إلى ولده موزعة عليهم على حسب ما فيهم من استعداد مفطور.

والناظر إلى سيرة النسل المتحدر من عبد مناف، ولاسيما الفرع الذي انتهي إثماره إلى محمد ﷺ يجد صدق هذا في طباعهم وأخلاقهم، والناظر في بيت زهرة يجد كذلك خصائص أبيهم ممثلة في طبائعهم.

ومن ثم نقول ـ ونحن مطمئنون ـ: إن محمدًا ﷺ انتهت إليه خلاصة ما انطوى عليه بيتا عبد مناف وزهرة من خلائق وطبائع وخصائص إنسانية؛ لأنك ـ بعد ما أجملناه لك من حديث عبد مناف

وزهرة ـ إذا تقصيت التاريخ عرفت أن هاشمًا بن عبد مناف جد محمد ﷺ هو الذي خلف أباه من دون إخوته أبناء عبد مناف في شرفه ومكانته، لتقارب ما بينهما من النوازع والأخلاق، فهاشم أول من سن الرحلتين لتجارة قريش، كان يرحل على رأس عيرها في الشتاء إلى اليمن، وإلى الحبشة إلى النجاشي فَيَحْبُوُه ويكرمه، وكان قد أخذ حلفا لقريش من قيصر؛ لأن تختلف بتجارتها إلى الشام في الصيف[1] وهي آمنة لا يتعرض لها أحد.

وكان هاشم على خلق أبيه في التمجد بالكرم والبذل، يقوم بالرفادة وإطعام الحاج في الموسم كله، وكان رجلاً موسرًا فإذا حضر الحج قام في قومه، فقال: يا معشر قريش إنكم جيران الله وأهل بيته، وإنه يأتيكم في هذا الموسم زوار الله يعظمون حرمة بيته، فهم ضيف الله وأحق الضيف بالكرامة ضيفه وزوّاره، يأتون شعثًا غبراً من كل بلد على ضوامر كأنها القداح، فأقروهم واسقوهم، وكانت قريش ترافد على ذلك حتى أن كان أهل البيت ليرسلون بالشيء اليسير على قدرهم، وكان هاشم يخرج في كل عام مالاً كثيرًا، يقول: لو أن مالي يسع ذلك ما كلفتكم شيئًا وكان يأمر بحياض من أدم ثم يسقي فيها الماء من البئار التي بمكة والماء يومئذ قليل، وكان يطعم ـ أول ما يطعم ـ قبل التروية بيوم بمكة وبمنى وعرفة وجمع، وكان يثرد لهم الخبز واللحم، والخبز

(١) ابن الأثير، جـ٢.

والسمن والتمر إلى أن يصدروا من منى تنقطع الضيافة، ويتفرق الناس لبلادهم[1].

وذكر ابن سعد في الطبقات: أن قريشًا أصابتهم سنوات ذهبن بالأموال، فخرج هاشم إلى الشام، فأمر بخبز كثير، فخبز له، فجعله في الغرائر على الإبل حتى وافي مكة، فأطعم قومه والناس معهم حتى أشبع أهل مكة، فكان ذلك أول الحياة بعد السنوات التي أصابتهم، فحسده أمية بن عبد شمس ابن أخيه، وهو الذي كان يساميه في بيت عبد مناف، وكان أمية ذا مال فتكلف أن يصنع مثل صنيع هاشم فعجز عنه، فتنافر إلى أحد حكام الجاهلية فنفر هاشمًا وجلا أمية عن مكة إلى الشام عشر سنين، فكان ذلك مبدأ العداوة بين بيتهما.

وكانت العرب لا تعرض لقوافل قريش إذا مرت على أحيائها وقبائلها؛ لأن هاشمًا ألف العرب على أن تحمل قريش بضائعهم، ولا كراء على أهل الطريق.

كان لهذه المكرمات والمناقب أثر خطير في مكانة عبد مناف وأبنائه عند جميع العرب فعرفوا لهم فضلهم وقدرهم، ونظروا إليهم نظرة فيها قداسة واحتشام، لم ينظروها لغيرهم ممن يساميهم من أبناء عمومتهم، مع ما كان في أيديهم من مراتب المجد والشرف وشارات

(١) ابن سعد في الطبقات.

السيادة والتقدم مثلهم، لكن بني عبد مناف امتازوا بالصنائع والمكارم يسدونها إلى قومهم واختيارهم من بين مراتب الشرف مرتبتي/ الرفادة والسقاية، وهما مظهر الجود والبذل، هو الذي زاد في مكانتهم ورفعهم في نظر العرب قاطبة، وهو الذي عقد لهم وشيجة المحبة والإعظام في قلوبهم.

أما عبد المطلب ـ جد محمد ﷺ الأدنى ـ فكان أشبه بجده الأعلى قصي ابن كلاب في شرفه وتساميه وطموحه إلى عوالي الأمور، ومن غرائب هذا التشابه أن كلاً منهما نشأ بعيدًا عن قومه وبلده في حضن أمه حتى اشتد ساعده وبلغ مبلغ الرجال، وعرف أنه فرع الدوحة القرشية وابن هامتها، فتمحل إلى قومه وبلده، فاستقبله الشرف والمجد ودانت له السيادة، فقصي رحل إلى مكة فوجد أمرها بيد خزاعة وبني بكر، وليس لقريش منه شيء، فانتزعه منهما انتزاعًا، وأخذه غلابًا، فساد على أهل مكة وملكه قومه عليهم فلا يصدرون إلا عن رأيه، وعبد المطلب نشأ في أخواله بني عدى بن النجار مع أمه سلمى بنت عمرو النجارية الخزرجية، وكان أبوه هاشم رآها وهو في طريقة على المدينة مارًا بسوق النبط، فرأي امرأة حازمة جلدة تأمر بما يشترى ويباع لها فأعجبته وعرف نسبها فخطبها.

وكانت ـ لشرفها ـ لا تنكح الرجال حتى يشترطوا لها أن أمرها بيدها، فتزوجها هاشم وشرطت الإقامة في قومها، فلما بني بها حملت

بعبد المطلب وسمته «شيبة» لبياض في شعر رأسه وكان هاشم ارتحل في تجارته إلى الشام فمات بغزة، وشب عبد المطلب بين لداته وأقرانه من فتيان يثرب حتى كان يومًا مع غلمان من أخواله ينتضلون، فجعل كلما أصاب الهدف صاح مفتخرًا: أنا ابن عمرو العلا، أنا ابن سيد البطحاء، فسمعه ثابت بن المنذر وأبو حسان بن ثابت الشاعر، وكان خليلاً لعمه المطلب، فلما قدم ثابت مكة معتمرًا لقي المطلب فقال له: لو رأيت ابن أخيك شيبة فينا لرأيت جمالاً وهيبة وشرفًا لقد نظرت إليه وهو يناضل فتيانًا من أخواله، فيدخل مرماتيه (سهميه) جميعًا في مثل راحتي هذه، ويقول كلما خسق (أصاب الهدف) أنا ابن عمرو العلا، فشغف عمه المطلب بإحضاره إلى قومه وبلده فأحضره ووقفه على ملك أبيه وسلمه إليه، ونازعه عمه نوفل بن عبد مناف في أشياء فاستعان بأخواله من بني النجار فردها عليه.

وكان المطلب أكبر أخويه هاشم وعبد شمس، ولكن هاشمًا كان سبقه إلى الشرف والسيادة فكانت بيده الرفادة والسقاية، فلما مات هاشم خلفه عليهما أخوه المطلب وكان جوادًا كريمًا، وكانت قريش تسميه الفياض لسماحته، وكان يتجر إلى اليمن بمكان يقال له ردمان وهلك المطلب، فقام بعده عبد المطلب بن هاشم بالرفادة والسقاية.

قصة حفر زمزم

وفي حياة عبد المطلب حادثان مهمان يتصلان من قريب بسيرة محمد رسول الله ﷺ وتاريخه: أما الحادث الأول فهو (حفر زمزم) واتصال هذا الحادث بتاريخ محمد ﷺ أن القدر انتهي به.

أولاً: إلى إبراز والده عبد الله في صورة تحاكى ما وقع لجده الأعلى إسماعيل بن إبراهيم الخليل في قصة الذبح والفداء، وإسماعيل وإبراهيم كانا مناط شرف قريش خاصة ومعقد مفاخر العرب عامة، فلهذه المحاكاة في القصة أثرها النفسي عند العرب عامة، ولقب عبد الله بالذبيح كما لقب بذلك من قبله إسماعيل، وانتهي به.

ثانيًا: إلى جمع أبويه على أكرم أبوة وأطهر أمومة لخير مولود عرفه الوجود.

وحادث حفر زمزم كان له أثر خطير في ازدياد مكانة عبد المطلب رفعة وعلوًا بين قومه، وفي بلده بل بين العرب أجمعين، فقد يسر حفر زمزم الماء، وهو أعز شيء في وجود مكة ومنزلتها على أهل الحرم وعلى الحجيج كله، وعلى عبد المطلب نفسه، وهو صاحب مرتبتي الرفادة والسقاية من مراتب السؤدد والشرف في قريش جيران الله وسدنة بيته.

وكتب التاريخ والسيرة تلون هذا الحادث بألوان مختلفة، يتدخل فيها الخيال أحيانا فيضفي عليها من بريقه اللامع ما يجعلها أقرب إلى

الواقع المشهود، ولكن هناك أشياء في القصة لا يختلف فيها الرواة، ذلك أن عبد المطلب وقريشًا قاطبة كانوا على يقين أن بالحرم ـ إلى جوار بيت جدهم إبراهيم ـ بئر أبيهم إسماعيل، وهي عين ثرارة لا تنزف أبدًا، ولكن أين مكانها على التحديد من البيت؟.

هذا ما حيرهم وصدهم عن التفكير فيها طول مدة التاريخ الغابرة، وهم يتهيبون أن يجعلوا من ساحة البيت منطقة تفتيش وتنقيب عن شيء مهما بلغ عندهم من العزة، فإن عزة البيت وحرمته فوق عزته، وما أدراهم إن هم أقدموا على البحث ألا تغضب عليهم آلهتهم التي أحاطوا بها البيت؟.

بل ما يدريهم ألا تضار جدران البيت من أثر المعاول والمساحي؟ لكن عبد المطلب كان أكثرهم شغلاً وتفكيرًا في ذلك؛ لأنه صاحب السقاية مكرمته، ومكرمة أبيه من قبله، وآبار مكة التي يستقى منها الماء للناس في الموسم الأعظم متناثرة متباعدة، وليست كلها غزيرة الماء مما يجعله يطمئن إلى كفاية الحجيج منها، وهو وحيد وليس معه إلا بكرة الحارث، وبنو عبد شمس وبنو عبد الدار منافسوه في الشرف يتربصون به.

وهنا تذكر الرواية التي لا اختلاف فيها أيضًا بين الرواة أن عبد المطلب أرى مكان زمزم منامًا، وإن كانت الرواية تختلف في أسلوب الرؤيا وكيفيتها، وذلك من الوجهة التاريخية لا يقف في طريق

البحث، وأقرب الروايات وأوفاها رواية ابن سعد في الطبقات من طريق شيخه محمد بن عمر الواقدي، وهي رواية عبد الملك بن هشام في سيرته عن محمد بن إسحاق، وهذان المصدران من أقدم مصادر السيرة والتاريخ، وعليهما معول من جاء بعدهما.

فابن الأثير في كامله، خالف إمامه أبا جعفر الطبري، وتابعهما فيها، قال ابن سعد: فلم يزل عبد المطلب مقيمًا بمكة حتى أدرك وخرج المطلب بن عبد مناف تاجرًا إلى أرض اليمن، فهلك بردمان من أرض اليمن، فولي عبد المطلب بن هاشم بعده الرفادة والسقاية فلم يزل ذلك بيده يطعم الحاج ويسقيهم من حياض الأدم بمكة، فلما سقى زمزم ترك السقي في الحياض بمكة وسقاهم من زمزم حين حفرها، وكان يحمل الماء من زمزم إلى عرفة ليسقيهم، وكانت زمزم سقيا من الله، أتى في المنام مرات فأمر بحفرها ووصف له موضعها، فقيل له احفر طيبة[1]: قال: وما طيبة؟ فلما كان الغد أتاه فقال: احفر بره، قال: وما برة؟ فلما كان الغد أتاه وهو نائم في مضجعه ذلك فقال: احفر المضمونة، قال وما المضمونة؟ أَبِنْ لي ما تقول، فلما كان الغد أتاه فقال: احفر زمزم، قال: وما زمزم؟ قال: لا تنزح ولا تذم تسقي الحجيج الأعظم، وهي بين الفرث والدم عند نقرة الغراب الأعصم،

(١) طيبة، برة، المضنونة: هذه أسماء لبئر زمزم لوحظ فيها مضمناتها من المعاني كما فسرها صاحب النهاية.

قال: وكان غراب أعصم لا يبرح عند الذبائح مكان الفرث والدم، وهي شرب لك ولولدك من بعدك.

قال: فغدا عبد المطلب بمعوله ومسحاته معه ابنه الحارث بن عبد المطلب وليس له يومئذ ولدٌ غيره، فجعل عبد المطلب يحفر بالمعول ويغرف بالمسحاة في المكتل فيحمله الحارث فيلقيه خارجًا، فحفر ثلاثة أيام ثم بدا له الطوى فكبر، وقال: هذا طوى إسماعيل فعرفت قريش أنه قد أدرك الماء، فأتوه فقالوا: أشركنا فيه، فقال: ما أنا بفاعل؛ هذا أمر خصصت به دونكم، فاجعلوا بيننا وبينكم من شئتم أحاكمكم إليه، قالوا: كاهنة بني سعد هزيم وكانت بمعان من أشراف الشام، فخرجوا إليها وخرج مع عبد المطلب عشرون رجلاً من بني عبد مناف، وخرجت قريش بعشرين رجلاً من قبائلها، فلما كانوا بالفقير من أرض الشام أو حذوه فني ماء القوم جميعًا فعطشوا فقالوا لعبد المطلب: ما ترى؟ فقال: هو الموت، فليحفر كل رجل منكم حفرة لنفسه؛ فكلما مات رجل دفنه أصحابه، حتى يكون آخرهم موتًا رجلاً واحدًا فيموت ضيعة، فموت واحد ضيعة خير من أن تموتوا جميعًا فحفروا ثم قعدوا ينتظرون.

فقال عبد المطلب والله إن إلقاءنا بأيدينا هكذا لعجز، ألا نضرب في الأرض فعسى الله أن يرزقنا ماء ببعض هذه البلاد فارتحلوا، وقام عبد المطلب إلى راحلته، فركبها فلما انبعثت به انفجر تحت خفها عين

ماء عذب فكبر عبد المطلب وكبر أصحابه وشربوا جميعًا، ثم دعا القبائل من قريش فقال: هلموا إلى الماء الرواء فقد سقانا الله فشربوا واستقوا، وقالوا: قد قضى لك علينا والذي سقاك هذا الماء بهذه الفلاة هو الذي سقاك زمزم، فو الله لا نخاصمك فيها أبدًا، فرجع ورجعوا ولم يصلوا إلى الكاهنة، وخلوا بينه وبين زمزم.

هذه الراوية بخطوطها الجوهرية من الوجهة التاريخية لم يسقطها المؤرخون ولم يزيفها ـ فيما رأينا ـ أحد من القدامى، وهي من الوجهة النفسية بالنسبة لجوها الذي يحبطها به الرواة لا يأبي التاريخ الواقعي أن يشهدها، فليس فيها شيء تنكره حياة العرب في جاهليتهم، ولا سيما في قريش ومكة خاصة، فهي حياة أحلام، وكهانة ورؤى ومناجاة وأشباح وخوارق مادية، وعجائب حسية تشترك في تمثيلها كائنات مرئية وأخرى غير مرئية، يؤمن العرب عامة وأهل مكة خاصة بقوتها وسلطانها.

وسواء لدى البحث أصحت هذه الأقصوصة كلها أم بطلت كلها، أو صح بعضها وبطل بعضها، فإن كلمة التاريخ في مصادره العربية متفقة على أن إسماعيل بن إبراهيم ـ عليهما السلام ـ كانت له عين ماء إلى جوار مكان البيت الحرام، أغيث بها؛ ليشرب هو وأمه في قصة مشهورة، عرضت لها الروايات الصحيحة في كتب الحديث والسيرة والتاريخ، وكذلك تتفق كلمة التاريخ على أن هذه العين طمت، وسواء

أكان طمها بفعل إنسان ـ على ما تنسبه الرواية لعمرو بن مضاض الجرهمى ـ أم بفعل الجو وأحداث الطبيعة وقلة الأيدي المستصلحة في ذلك المكان وتلك الأزمنة العابرة.

وكلمة التاريخ أيضا متفقة على أن قريشًا لما سكنت مكة وعمرتها ودانت لها بسلطانها الديني تقاسمت مراتب الشرف في بيوتاتها، فكانت سقاية الحجيج في بني عبد مناف يتوارثونها حتى انتهت إلى عبد المطلب بن هاشم، وهو أحوج في موقفه هذا إلى الماء الغزير القريب فما يمنع أن يكون قد دار في نفسه خاطر بئر جده إسماعيل، واعتلج فيها الشوق إلى العثور عليها وتملكه الشعور بذلك، فانعكس في وعيه الباطن، فرأي في منامه ما رأي، وكان هاتفه بها من نفسه وإليها؟ وما يمنع أن يكون عبد المطلب قد ألهم ذلك إلهامًا؟ أو تفرسه فألقي إليه منامًا؟ وما يمنع أن يكون نوجي به في نومه كما يناجي كل مشغول بأمر من الأمور بشيء مما يهجس في خاطره.

ليس في القصة بعد ولا إحالة من وجهة رؤيا المنام وهواتف عبد المطلب ومغالبته قريشًا، فهذه كلها أمور جاهلية معروفة معهودة.

بيد أننا نقف هنا وقفة متأملة مع شيخ مؤرخي الإسلام أبي جعفر الطبري، فإنه ـ رحمه الله ـ مر على قصة حفر زمزم مرور الكرام، فلم يحفل بعديد رواياتها، كعادته في الإسهاب وتكثير الروايات في الحادث

الواحد، واكتفي بقوله في صدد الحديث عن مكانة عبد المطلب: «وهو الذي كشف عن زمزم، بئر إسماعيل بن إبراهيم، واستخرج ما كان فيها مدفونًا».

فما شأن أبي جعفر؟ هل شك في القصة وتفاصيلها فأعرض عنها؟ لا نظن هذا، لأن أبا جعفر نفسه اعتمد على رواية محمد بن إسحاق في قصة نذر عبد المطلب ذبح أحد بنيه إن بلغوا عشرة يمنعونه من قريش، هذه القصة مؤسسة على قصة حفر زمزم، وقد صرح بذلك أبو جعفر في قوله عن محمد بن إسحاق: كان عبد المطلب بن هاشم قد نذر حين لقي من قريش في حفر زمزم ما لقي لئن ولد له عشرة نفر، ثم بلغوا معه حتى يمنعوه؛ لينحرن أحدهم لله عند الكعبة، والذي لقيه عبد المطلب من قريش في حفر زمزم في رواية محمد بن إسحاق هو ما ذكره عنه ناقل سيرته عبد الملك بن هشام في روايته المطابقة لرواية ابن سعد، ومهما يكن من أمر قصة حفر زمزم فإنها تقودنا إلى الحديث عن الذبيح، عبد الله بن عبد المطلب أبي محمد ﷺ، وقصة نذر ذبحه، وما انبثقت عنه من زواجه بآمنة بنت وهب، ومن بينهما كان محمد ﷺ.

قصة الذبيح
عبد الله بن عبد المطلب

يتصل الحديث عن عبد الله بن عبد المطلب أبي محمد رسول الله ﷺ في كتب التاريخ بحديث حفر زمزم اتصالاً وثيقًا، فقد كان حفرها فيما يقول الرواة سببًا في نذر عبد المطلب ذبح أحد أبنائه تقربًا إلى الله.

وكانت قصة الذبح معبرًا إلى زواج عبد الله بآمنة بنت وهب أم محمد رسول الله ﷺ، وبهذا يظهر اتصال الحديث اتصالاً مباشرًا بتاريخ وسيرة محمد رسول الله ﷺ.

وتظهر حكمة تحقيقنا لقصة زمزم لما لها من أثر واضح في مكانة عبد المطلب جد محمد ﷺ الذي رآه في طفوليته ورأى ما يتمتع به من الشرف والمجد، وهو الذي تعهده وكفله بعد وفاة أبيه، وكان عبد المطلب يتمجد بهذا الحفيد العظيم ويتفرس فيه مكنون الغيب عند ولادته فيسميه محمدًا، فيقال له: ما هذا الاسم الذي ليس في أسماء آبائك؟ فيقول: سميته محمدًا ليحمد في السماء والأرض، ويقول لأبنائه ـ وهم حافون حول فراشه في ظل الكعبة وقد أبى محمد ﷺ إلا أن يجلس فوق فراش جده، مَنهمَّ أعمامه بتنحيته، إعظامًا لمكان أبيهم شيخ قريش وسيدها ـ دعوا ابني إنه ليؤنس ملكًا.

وحديث نذر عبد المطلب نحر أحد بنيه وإسهامه بينهم وطيران القرعة على سهم عبد الله، كغيره من أحاديث التاريخ الجاهلي تعددت

رواياته واختلفت أساليبه في مصادر التاريخ العربي، ولونه الرواة بألوان شتى، وهو في إجماله كالمجمع عليه في تلك المصادر.

وصفوة سياقته منها أن عبد المطلب بن هاشم لما احتفر زمزم وأخرج منها كنز جرهم، نازعته قريش، وطلبت أن تقاسمه وتشاركه في الماء، وكانت جرهم حين عزموا الخروج من مكة دفنوا غزالين من ذهب وسبعة أسياف قلعية (نسبة إلى بلدة بالهند تسمى قلوع) وخمسة أدرع سوابغ فاستخرجها منها عبد المطلب، وكان يتأله، ويعظم الظلم والفجور، فضرب الغزالين صفائح في وجه الكعبة، وعلق الأسياف على البابين، يريد أن يحرز به خزانة الكعبة، وجعل المفتاح والقفل من ذهب، فحسدته قريش، وجاءته كأنها تغازيه، فحاكمها، فظفر عليها، وكان وحيدًا فيهم ليس له ولد سوى ابنه الحارث، فهاجت به لواعج الشوق إلى المكاثرة بالولد، فنذر لئن ولد له عشر نفر ثم بلغوا معه حتى يمنعوه؛ لينحرن أحدهم تقربًا إلى الله عند الكعبة.

فلما توافي له بنوه عشرة وعرف أنهم سيمنعونه جمعهم وأخبرهم بنذره فأطاعوه وقالوا له: أوف بنذرك، فأسهم بينهم وقال لسادن أعظم أصنامهم (هبل) اضرب عليهم بالقداح، فضرب عليهم فخرج سهم عبد الله، وكان ـ فيما يقول الرواة ـ: أصغر بني عبد المطلب وأحبهم إليه، فأخذه بيده وأخذ الشفرة بيده الأخرى ثم أقبل به على مذبح قريش الذي تذبح فيه قربانها عند صنميها أساف ونائلة ليذبحه.

قال الطبري: فقامت إليه قريش من أنديتها، فقالوا: ماذا تريد يا عبد المطلب؟ قال أذبحه، فقالت قريش وبنوه: ـ أي بنو عبد المطلب إخوة عبد الله ـ والله لا تذبحه أبدًا حتى تعذر؛ فيه لئن فعلت هذا لا يزال الرجل يأتي بابنه حتى يذبحه فما بقاء الناس على هذا؟ فقال له المغيرة بن عبد الله بن عمرو المخزومي ـ وكان عبد الله بن عبد المطلب ابن أخت القوم ـ والله لا تذبحه أبدًا حتى تعذر فيه، فإن كان فداؤه بأموالنا فديناه.

وقال ابن سعد في الطبقات: ثم أخبر عبد المطلب أولاده بنذره ودعاهم إلى الوفاء به لله، فما اختلف عليه منهم أحد، وقالوا: أوف بنذرك وافعل ما شئت، فقال: ليكتب كل رجل منكم اسمه في قدحه ففعلوا فدخل عبد المطلب في جوف الكعبة، وقال للسادن: اضرب بقداحهم فضرب فخرج قدح عبد الله أولها ـ وكان عبد المطلب يحبه ـ فأخذه بيده يقوده إلى المذبح ومعه المدية، فبكى بنات عبد المطلب، وكن قيامًا، وقالت إحداهن لأبيها: اعذر فيه بأن تضرب في إبلك السوائم التي في الحرم، فقال للسادن: اضرب عليه بالقداح وعلى عشرة من الإبل ـ وكانت الدية يومئذ عشرًا من الإبل ـ فضرب فخرج القدح على عبد الله، فجعل يزيد عشرًا عشرًا كل ذلك يخرج القدح على عبد الله حتى كملت المائة فضرب بالقداح فخرج القدح على الإبل فكبر

عبد المطلب والناس معه، واحتمل بنات عبد المطلب أخاهن عبد الله، وقدم عبد المطلب الإبل؛ فنحرها بين الصفا والمروة.

وقال ابن سعد ـ أيضًا ـ في رواية ابن مجاز: أن عبد المطلب أتى في المنام فقيل له: احتفر، فقال: أين؟ فقيل له: مكان كذا وكذا، فلم يحتفر، فأتي فقيل له: احتفر عند الفرث عند النمل، عند مجلس خزاعة ونحوه فاحتفر، فوجد غزالاً وسلاحًا وأظفارًا، فقال قومه لما رأوا الغنيمة كأنهم يريدون أن يغازوه، فعند ذلك نذر لئن ولد له عشرة لينحرن أحدهم، فلما ولد له عشرة وأراد ذبح عبد الله منعته بنو زهرة، وقالوا: أقرع بينه وبين كذا وكذا من الإبل، فأقرع فوقعت عليه سبع مرات وعلى الإبل مرة، ثم صار من أمره أن ترك ونحر الإبل.

وفي حديث رواه الحاكم في المستدرك عن معاوية بن أبي سفيان قال: كنا عند رسول الله ﷺ فأتاه أعرابي ، فقال: يا رسول الله خلفت البلاد يابسة والماء يابسًا، هلك المال، وضاع العيال، فعد عليَّ مما أفاء الله عليك يا بن الذبيحين، فتبسم رسول الله ﷺ ولم ينكر عليه.

قال معاوية ـ مبينًا من هما الذبيحان في قول الأعرابي ـ أن عبد المطلب لما أمر بحفر زمزم نذر لله إن سهل الأمر بها أن ينحر بعض ولده، فأخرجهم، فأسهم بينهم، فخرج السهم لعبد الله، فأراد ذبحه، فمنعه أخواله من بني مخزوم، وقالوا: ارض ربك وافد ابنك ففداه بمائة ناقة، فهو الذبيح الأول، وإسماعيل الذبيح الثاني.

هذه أربع روايات تتفق كلها على أصل قصة نذر عبد المطلب ذبح أحد بنيه، وتختلف في سبب هذا النذر، فحديث معاوية الذي رواه الحاكم يجعل هذا النذر من قبيل الشكر على تسهيل زمزم، وسائر الروايات يجعله من قبيل الشكر على منح عبد المطلب أولاده الذين منعوه من بغي قريش وعدوانها، وتتفق هذه الروايات على أن عبد الله ابن عبد المطلب هو الذي خرج سهمه ليكون الذبيح، وتختلف فيمن تصدى لعبد المطلب فمنعه من ذبحه.

هل المتصدي أبناء عبد المطلب؟ كيف والرواية تذكر أنهم جميعًا أطاعوه حينما أخبرهم بنذره، وقالوا له: افعل ما تشاء؟ ولكن العاطفة عند رؤية العزيمة، وقيام قريش معهم يُقرّب ذلك ويجعله مقبولاً، أو المتصدي لعبد المطلب بناته، بكين لما رأين وسائل التنفيذ قائمة، وقالت إحداهن كالمنبهة لعقل عبد المطلب وعاطفته: أعذر فيه بإبلك السوائم في الحرم؟ أو المتصدي هم أخوال عبد الله من بني مخزوم يقدمهم شيخهم المغيرة بن عبد الله تعزازًا بابن أختهم! أو هم بنو زهرة حلفاء بني عبد مناف.

هذه الرواية التي تسند منع عبد المطلب من ذبح عبد الله إلى بني زهرة أغرب الروايات، وأعجبها، وهي رواية تلفت نظر الباحث إلى ما جاء بعد قصة الذبح مباشرة من زواج الذبيح عبد الله بآمنة بنت وهب

سيد بني زهرة، فهل كان بين قيام بني زهرة دون ذبح عبد الله وإصهارهم إليه صلة؟.

ولم لا؟ وبنو زهرة منذ كانوا هم حلفاء بني عبد مناف وشركاءهم فيما ينوبهم، وأقرب بطون قريش مودة إلى بني هاشم، والمعهود بين الناس طبيعة وعرفا أنه إذا كان بين بيتين من البيوتات صلة مودة وتحالف وناب أحدهما نائبة قام معه أهل مودته وحلفه متقدمين على سائر أقاربه توكيدًا لمظهر المودة والحلف، فلما تصدى بنو زهرة ومنعوا عبد المطلب من ذبح ابنه وأجابهم إلى الفداء طاروا بالذبيح فرحين إلى بيوتهم احتفالاً بحياته؛ وسرورًا بنجاته، وفي غمرة السرور طارت الكلمات بالتهنئة والتحايا يتولاها سيد البيت وزعيمه، وكانت كلمات التودد والتحبب إلى الذبيح.

وجرى حديث مداعبة الشباب بالمصاهرة فتسمع الشيخ الهاشمي وأعجبه فنقلها جدًّا بينه وبين سيد زهرة، توكيدًا لمظاهر المودة على سنن الناس وعوائدهم، وأجاب سيد زهرة كما يجيب كل نبيل يدعى إلى مكرمة من كفء كريم، وارتفعت الكلمات إلى تحقيق موعود الله باصطفاء عبد الله بن عبد المطلب وآمنة بنت وهب قرارًا لخير نسمة برأها الله في الوجود.

وفي رواية عند الطبري : عن عبد الله بن عباس - رضى الله عنهما - أن امرأة نذرت أن تنحر ابنها عند الكعبة في أمر إن فَعَلَتْهُ ففعلتَ ذلك الأمر، فقدمت المدينة لتستفتي عن نذرها، فجاءت عبد الله بن عمر - رضى الله عنهما -، فقال لها عبد الله ابن عمر: لا أعلم لله أمُرُ في النذر إلا الوفاء. فقالت المرأة أفأنحر ابني؟ قال ابن عمر: قد نهاكم الله أن تقتلوا أنفسكم. فلم يزدها عبد الله بن عمر على ذلك.

فجاءت عبد الله بن عباس فاستفتته فقال: أمر الله بوفاء النذر ونهاكم أن تقتلوا أنفسكم. وقد كان عبد المطلب بن هاشم نذر إن توافي له عشرة رهط أن ينحر أحدهم فلما توافوا عشرة أقرع بينهم أيهم ينحر، فطارت القرعة على عبد الله بن عبد المطلب، وكان أحب الناس إلى عبد المطلب، فقال عبد المطلب: اللهم هو أو مائة من الإبل: ثم أقرع بينه وبين الإبل، فطارت القرعة على المائة من الإبل.

فقال ابن عباس للمرأة فأرى أن تنحرى مائة من الإبل مكان ابنك، فبلغ الحديث مروان وهو أمير المدينة، فقال: ما أرى ابن عمر ولا ابن عباس أصابا الفتيا إنه لا نذر في معصية الله استغفرى الله وتوبى إلى الله وتصدقى واعملى ما استطعت من الخير، أما أن تنحرى ابنك فقد نهاك الله عن ذلك، فسر الناس بذلك وأعجبهم قول مروان، ورأوا أن قد أصاب الفتيا، فلم يزالوا يفتون: ألا نذر في معصية الله.

وقد ذكرنا هذه الرواية استيفاء لعرض روايات قصة الذبيح، وهي رواية عجيبة؛ لأنها تسند إلى رجلين من أعلام علماء الصحابة ورأسين من رءوس العبادلة، اشتهرا بالفقه في الدين وحمل الشريعة والتصدر للفتيا، هما عبد الله بن عمر بن الخطاب، وحبر الأمة: عبد الله بن عباس؛ جهلا بحكم شرعي يعلمه أقل الناس فقهًا في الدين.

وتسند إلى عبد الله بن عمر أنه أفتى فلم يصب الفتيا، مع أن الرواية تقول أنه لم يزد على أنه بين أن الله أمر في النذر بالوفاء ونهي عن قتل النفس، وهذا توقف في حكم المسألة وليس فتوى.

وتسند إلى ابن عباس أنه أفتى المرأة بنحر مائة من الإبل مستدلاً بفعل عبد المطلب بن هاشم، ولم يقل أحد من أهل العلم في الإسلام أن فعل عبد المطلب حجة في دين الله، وأطم من ذلك وأفحش أن هذه الرواية تسند الجهل - بهذا الحكم الشرعي - إلى عامة الأمة في الصدر الأول من الصحابة وتلاميذهم ما عدا مروان الذي كشف عن هذا الحكم؛ ففرح الناس به وتعلموه يومئذ، ولم يزالوا من يوم مروان هذا فقط يفتون: ألا نذر في معصية الله، وليت شعري ما كانت فتواهم فيما يعرض لهم من نذر المعصية قبل وجود مروان بعلمه.. هذه الرواية تجزم بعدم صحتها، ولوائح الوضع السخيف عليها لائحة فلا يسوغ التعويل عليها في شيء.

والروايات في قصة عبد الله الذبيح تكاد تجمع على أن عبد المطلب أسهم بين بنيه لينحر أحدهم وفاء بنذره بعد أن بلغوا عشرة: وبعض الروايات يجعل بلوغهم عشرة هو مناط النذر، بل إن صاحب الطبقات من رواية الواقدي يعدهم بأسمائهم فيقول: فلما تكاملوا عشرة، فهم: الحارث؛ والزبير؛ وأبو طالب؛ وعبد الله؛ وحمزة؛ وأبو لهب؛ والغيداق؛ والمقوم؛ وضرار؛ والعباس.

وصاحب الطبقات نفسه يقول: فكان تزوج عبد المطلب بن هاشم، وتزوج عبد الله بن عبد المطلب في مجلس واحد؛ فولدت هالة بنت وهيب لعبد المطلب حمزة بن عبد المطلب؛ فكان حمزة بن عبد المطلب عم الرسول ﷺ في النسب وأخاه من الرضاعة؛ ومعلوم أن زواج عبد الله بآمنة، وزواج عبد المطلب بهالة كانا بعد قصة الذبح؛ فكيف يكون أولاد عبد المطلب عند العزم على الوفاء بالنذر قد بلغوا عشرة وحمزة لم يولد بعد؛ والعباس أصغر من حمزة وكان حينئذ لايزال غيبًا من الغيب؟.

وكيف يعد حمزة والعباس باسميهما في أولاد عبد المطلب الذين تكاملوا عشرة ليفي بنذره؟ وأعجب من ذلك أن الطبري وغيره يصرحون بأن عبد الله أصغر ولد أبيه، فكيف يكون أصغرهم وفيهم حمزة، وهو لم يكن قد ولد يوم أن تزوج عبد الله؟ والعباس أصغر من

حمزة، وكان لقربه من رسول الله ﷺ يشتبه على بعض الناس سِنَّهُ بسِنِّهِ.

فقد روي أنه سئل بعد إسلامه: أنت أكبر أم رسول الله؟ فقال: هو أكبر مني وأنا أسن منه.

وروي عن العباس أنه قال: أذكر مولد رسول الله ﷺ وأنا ابن ثلاثة أعوام أو نحوها وجيء به حتى نظرت إليه، وجعل النسوة يقلن لي: قبل أخاك فقبلته، فأين ميلاد العباس من ميلاد أخيه عبد الله والد رسول الله ﷺ.

هذا لون مما يدخل على الروايات من الغلط فيتناقله الرواة دون نقد وتمحيص، حتى يتقادم فلا يعرف مخرجه، أو يتمحل له، وهو كثير في روايات التاريخ الجاهلي، ولا تخلو منه روايات التاريخ الإسلامي، وقد انخدع به كثير من الباحثين المعاصرين، ونحن ننبه على ما يعرض لنا منه في ثنايا البحث مما قد يصادم حقيقة تاريخية.

وقد عرض القسطلاني في مواهبه إلى نقد هذه الرواية، ولكنه أبعد النجعة في محاولة المخرج، فقال: وقد استشكل بعض الناس أن عبد المطلب نذر نحر أحد بنيه إذا بلغوا عشرة، وقد كان تزوجه بهالة أم ابنه حمزة بعد وفائه بنذره، فحمزة والعباس ولدا عبد المطلب، إنما ولدا بعد الوفاء بنذره، وإنما كان أولاده عشرة بهما.

قال السهيلي: ولا إشكال في هذا، فإن جماعة من العلماء قالوا: كان أعمامه عليه السلام اثنى عشر فإن صح هذا فلا إشكال في الخبر، وإن صح قول من قال: كانوا عشرة لا يزيدون، فالولد يقع على البنين وبنيهم حقيقة لا مجازًا، فكان عبد المطلب قد اجتمع له من ولده وولد ولده عشرة رجال حين أوفي بنذره.

ورواية الاثنى عشر رواها ـ أيضًا ـ ابن سعد في الطبقات؛ ولكن من طريق ابن الكلبي وقد اضطربت في ذكر الأسماء فبلغت بهم ثلاثة عشر كما ذكرت في الإجمال قبل التفصيل بتعديد الأسماء، فزادت على رواية الواقدي المتقدمة ثلاثة، هم: عبد الكعبة، وحجل[1]، وقثم والاعتماد على هذه الرواية في دفع الإشكال اعتماد على متكأ ضعيف.

وأكثر الروايات المحددة تقف عند العشرة، ورواية الزيادة انفرد بها ابن الكلبي، وزعم أن الولد يقع على الولد وولده تكلف لا تحتمله حقائق التاريخ، وأقرب الروايات: رواية الحاكم في حديث معاوية الذي ذكرناه سابقا، ومحصلها: أن عبد المطلب نذر نحر بعض ولده إن سهل الله له حفر زمزم هكذا دون تحديد لعدد أو تسمية لأحد، فلما تم له ما أراد أسهم بين ولده الموجودين، ومنهم عبد الله والد رسول الله ﷺ،

(١) في البداية والنهاية لابن كثير أن الغيداق لقبُ لحجل وليس اسمًا لغيره، وفيه أن عبد الكعبة اسم المقوم، وقيل هما اثنان، وفيه أن حجلاً اسمه المغيرة، وأن الغيداق لقب لرجل منهم اسمه نوفل، وهو غير حجل.

وكان أصغرهم وأحبهم إلى أبيه، فخرج سهمه لتتم المحنة وتجمل بعدها المنحة، فكان هو الذبيح المفدى.

تزويج عبد الله بن عبد المطلب

وصلت قصة الذبيح إلى هذه النهاية؛ لتبدأ بها قصة الحياة في صورة أكبر من عبد المطلب ونذره وسوائمه في الحرم، وأكبر من قريش وزمزم، تلك هي قصة التأذن بميلاد الإنسانية، وتجديدها في أكمل صورة من صلة السماء بالأرض، روع الفتى عبد الله بن عبد المطلب أيما ترويع، وقد رأي من أبيه شيخ قريش وسيدها الجد النافذ والعزيمة الصارمة في أمر ذبحه، ورأي الموت إلى جانب أبيه، يرقبه؛ ليختطفه من بين أخوته وأخواته اللائى بكين له وانتحبن عليه فزاده بكاؤهن ترويعًا، فتوزعت مشاعره، وتبددت أحاسيسه، وذهبت به الخوالج كل مذهب.

حياة البنوة امتداد لحياة الأبوة، هذا هو قانون الأزل للحياة، فلو كان أحد في هذا الوجود يملك أن يعطى من حياته وعمره شيئًا يضاف إلى حياة غيره لما وجد ـ عن صدق وجد إنى ـ من يجود بذلك من غير تلفت أو حساب سوى أب يسخو في إسراف ليمد في حياة ابنه وهو راض مغتبط، يملأه شعور داخلي في نفسه بأنه لم ينزل عن شيء من حياته لغيره؛ لأنه يتمثل في شخص ابنه ومثاله ذاته وشخصيته، ويرى في وجود ابنه وحياته وجوده وحياته، فأي إنسان لا يروع ولا يطيش صوابه وتتحطم أعصابه وهو يرى أباه أرحم الناس به وأحبهم إلى قلبه، وألصقهم بنفسه وأسرعهم إلى رغائبه وهواه، يمشى به على مشهد من

هذه الدنيا ليذبحه على أبشع صورة وأشنع منظر مر على إنسان في هذا الوجود؟.

أي شيء هذا الذي ينتظر عبد الله بن عبد المطلب؟ إنه الذبح، إنه دمه الزكي يتطاير من شفرة أبيه على أرض الحرم، تقربًا لأحجار قريش، إنها إنسانيته الناطقة الضاحكة الجميلة تحال إلى... إلى ماذا؟ إلى صورة بهيمة تذبح ومن الذابح؟ إنه الوالد الذي صبّت فيه الحياة أضخم ما تملك من ذخيرة في عصارة الشفقة والحب والرحمة والحنان، أي ابتلاء هذا؟ وارحمتاه للشيخ الوالد مرة أنه يمشي إلى النهاية فليصبر أو ليذهب، ولكن وارحمتاه ألف مرة للشاب الفينان الذي سيصهر والعود الريان الذي سيذوى ويجفّ، ماذا من الأماني والآمال في خيال هذا الشاب الغض المقبل على زهرة الحياة ونضارتها ستقطعها عن الوجود الثرى تلك اللحظة المشئومة؟ وماذا من الرؤى والأحلام في عينيه الظامئتين لرحيق الحياة؟ بل ماذا من الأفكار والتقديرات في رأس هذا الفتى الحيران؟.

إنها لحظة ويسدل الستار على آخر فصول هذه الرواية الباكية الدامية، لحظة وينصرف النظارة وينتهي كل شيء.

لكن القدر المسيطر على منافذ الحياة كان أسرع من خوالج عبد الله الذبيح، وهواتف عبد المطلب وعزيمته، وتضرعات أبنائه ودموع

بناته، وكأن ضوءًا ساطعًا لمع فجأة؛ فأنار زوايا نفس الشيخ الأسيف وكشف عن بصيرته، وهو آخذ بيد ابنه الحبيب، وفي يده الأخرى الشفرة المشحوذة يمشي به خطًا متثاقلة إلى مذبح قريش، يحدث نفسه والهم القاطع يعتلج فيها ويصيح: الوفاء. وإذا به يجأر إلى السماء بكل ما تملك الأبوة من حنو واسترحام: اللهم هو أو مائة من الإبل؛ بخ ؛ بخ؛ فداء فريد في ضخامته، فداء لم تعرفه العرب لعربي قبل عبد الله الذبيح؛ ولم تعرفه قريش قبل لمفدى قبل أن تسخو به نفس عبدالمطلب، فداء عظيم؛ لأنه لمفدى حبيب من أب يحترق قلبه أسى وتذوب كبده همًّا وأسفًا، قالوا وتعطفت آلهة عبد المطلب، وقبلت الفداء، ونجا الذبيح عبد الله من الموت؛ وكان لابد أن ينجو؛ القدر الكريم كان قد اختاره منذ الأزل؛ ليكون مشرق ديباجة الحياة في صلة السماء بالأرض لآخر مرة في حياة الأحياء.

نجا عبد الله من الموت وبقي له الفزع والروع يملآن حنايا نفسه ويرسمان على ملامحه آثارهما، وهو بعد شاب غض الأهاب لم يكمل الحلقة الثانية من عمره النضير أو جاوزها بشيء قليل؛ فأي شيء يعوضه ويرد إليه نفسه الذاهبة مع إبل الفداء؟ وأي شيء يبعث في قلبه السكون والطمأنينة؟ وأي شيء يعيد إليه مرح الشباب وينسيه آلام تلك الساعة الفادحة؟ لا شيء غير الزواج أمنية الشباب وأمله، ومسرح

خواطره ورؤاه؛ ومجتمع لذاته وأحلامه؛ وصحت عزيمة الشيخ على أن يمسح بيد حنانه الأوصاب عن قلب ابنه الحبيب؛ ومضى في طريقه إلى حلفائه أبناء عمومته الأعلين بني زهرة يخطب لابنه الذبيح سيدة عقائل العرب: آمنة بنت وهب سيد بني زهرة، وهنا يجيء دور التاريخ ليتحدث فنسمع منه: وتختلف رواياته في كثير من أمر هذا الزواج كعهدنا بهذا التاريخ؛ الظالم المظلوم؛ في كل شيء من حوادثه؛ بل الجاهلي منها.

كانت سنُّ عبد الله بن عبد المطلب يوم محنة الذبح سِنَّ شاب أقرب إلى الحداثة؛ ولكنها الحداثة الفارعة التي تسبق إليها الرجولية في سرعة مستعجلة؛ وهي سِنُّهُ يوم أن خطب له أبوه آمنة بنت وهب؛ ويوم أن بني بها فحملت برسول الله ﷺ.

وتزوج هذا الصنف من الفتيان في هذه السن المبكرة يكون إما من قبيل التدليل والترف الناعم تزيدًا في التحبب والتحنن وإما من قبيل العطف والرحمة؛ لإزاحة أثقال حادث فادح، ألمَّ، فأمض، فقد تكون دواعي تزويج عبد الله الذبيح مزيجًا من اللونين، فهو أحب أبناء أبيه إليه، وقد ابتلي بأقسى ما يبتلى به إنسان مع ما كان قد بلغ أبوه الشيخ من سن تبتدر فيها نهاية الآمال إلى حيز الوجود، وقد حمل فوق كاهله

من ثقل غاربات الأيام والسنين ما يوحي إليه بما يسبق به الزمن في تحقيق رغائب الحياة لمن يحبهم.

والذين ذهبوا مذهب التحديد والضبط في تقدير سن عبد الله بن عبد المطلب وقت تزويجه ـ وهو أمر يحف به الشك؛ لأن الحياة يومئذ لم يكن لديها من الوسائل ما يسمح بتحديد وضبط مثل هذه الأمور عند العرب ـ اختلفوا، فالطبري وابن الأثير يحددان تلك السن تحديدًا دقيقًا بما يقف بها عند الثامنة عشرة.

قال ابن الأثير ـ تبعًا لأبي جعفر ـ: ولد عبد الله بن عبد المطلب أبو رسول الله ﷺ لأربع وعشرين سنة مضت من سلطان كسرى أنوشروان، وولد رسول الله ﷺ سنة اثنتين وأربعين من سلطانه..أهـ.

وقد اتفق الرواة على أن ميلاد رسول الله ﷺ كان في طي العام الذي تزوج فيه أبوه بأمه، فلم يكن بين بناء عبد الله الذبيح على آمنة بنت وهب ومولد رسول الله ﷺ سوى مدة الحمل، وهي على المحقق من الروايات تسعة أشهر كوامل، فتكون سن عبد الله ـ على هذه الرواية ـ ثماني عشرة سنة.

ويذهب ابن سعد في الطبقات إلى أن سن عبد الله بن عبد المطلب يوم وفاته كانت خمسًا وعشرين سنة، وهو يصرح بأن وفاته كانت ورسول الله ﷺ يومئذ حمل في بطن أمه، ويتفق مع سائر الرواة في أن

الحمل برسول الله ﷺ عقب تزوج أبيه بأمه، وعلى ذلك تكون سنة وفاة عبد الله أبي رسول الله ﷺ هي سنة تزوجه بأمه، فتكون سنه ـ على هذه الرواية حين تزويجه ـ خمسًا وعشرين سنة.

وقد اختار هذا الرأي ابن كثير في البداية والنهاية، فقال: والمقصود أن أمه حين حملت به توفي عبد الله وهو حمل في بطن أمه على المشهور.. قال محمد بن سعد: حدثنا محمد بن عمر ـ هو الواقدي ـ حدثنا موسى بن عبيدة اليزيدي، وحدثنا سعيد بن زيد عن أيوب بن عبد الرحمن بن أبي صعصعة قال: خرج عبد الله بن عبد المطلب إلى الشام، إلى غزة في عير من عيرات قريش يحملون تجارات، ففرغوا من تجارتهم ثم انصرفوا فمروا بالمدينة وعبد الله بن عبد المطلب يومئذ مريض، فقال: أنا أتخلف عند أخوالي بني عدي بن النجار، فأقام عندهم مريضًا شهرًا ومضى أصحابه فقدموا مكة، فسألهم عبد المطلب عن ابنه عبد الله، فقالوا: خلفناه عند أخواله بني عدى بن النجار وهو مريض، فبعث إليه عبد المطلب أكبر ولده الحارث فوجده قد توفي ودفن في دار النابغة، فرجع إلى أبيه فأخبره، فوجد عليه عبد المطلب وأخوته وإخوانه وجدًا شديدًا؛ ورسول الله يومئذ حمل ولعبد الله بن عبد المطلب يوم توفي خمس وعشرون سنة.. قال الواقدي: هذا هو أثبت الأقاويل في وفاة عبد الله وسنه عندنا.

ثم قال ابن كثير: والذي رجحه الواقدي وكاتبه الحافظ محمد بن سعد أنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ توفي أبوه وهو جنين في بطن أمه؛ وهذا أبلغ اليتم، وأعلى مراتبه.

قصة المتعرضة لعبد الله بن عبد المطلب

كان من الطبيعي في بيئة قريش ومكة وحرمها بعد حادث نذر عبدالمطلب وما انتهت إليه قصة الذبيح أن يستشرف كثيرات من النسوة إلى عبد الله بن عبد المطلب ليكون لهن وينجبن منه، فهو أنهد شباب الحرم وأشب ما يكون فتى في فتيان مكة؛ وأجمل رجال قريش وأنضرهم؛ وهو المختار لذلك الحادث الخطير الذي كان حديث قريش ومكة كلها في محافلها وبيوتها إلى جانب ما كان يتناقله المحدثون في مجالس السمر ومحافل الملأ من أنباء وبشارات تلقفها التجار والسمار والمتأهلون من أفواه الأحبار والرهبان وقارئي كتب الأقدمين عن نبي يبعث من العرب قد أظل الناس زمانه؛ ومن أجدر بالنبوة وهي منصب ديني من قريش قُطَّان الحرم وجيران البيت؟ ومن أحق بها في قريش من بني عبد المطلب وهم أصحاب مراتب الشرف الديني في الحرم؟ بل من أحرى بها يحمل نورها من هذا الفتى الذي اختارته الإرادة العليا قربانًا وزلفى؟ والنساء أبدًا مولعات بالغرائب والفرائد.

فليس من المستغرب أن تعرض امرأة أو أكثر نفسها على عبد الله الذبيح عقب نجاته وفدائه، ولكن الله الذي ادخر ما حمل عبد الله من شرف نوراني ونور قدسي لأشرف عقائل قريش آمنة بنت وهب هو الذي صانه عن الاستجابة إلى من تعرض له.

قال أبو جعفر الطبري وعبد الملك بن هشام: ثم انصرف عبدالمطلب آخذًا بيد ابنه عبد الله فمر ـ فيما يزعمون ـ على امرأة من بني أسد يقال لها أم قتال، واسمها رقيقة أو قتيلة بنت نوفل بن أسد بن عبد العزى، وهي أخت ورقة بن نوفل بن أسد، وهي عند الكعبة، وكانت تنظر وتعتاف[1]، فقالت له حين نظرت إلى وجهه: أين تذهب يا عبد الله؟ قال: مع أبي. قالت: لك عندي مثل الإبل التي نحرت عنك وقع عليَّ الآن، قال: أنا مع أبي، ولا أستطيع خلافه ولا فراقه، فخرج به عبد المطلب حتى أتى به وهب بن عبد مناف بن زهرة، وهو يومئذ سيد بني زهرة سنًا وشرفًا فزوجه آمنة بنت وهب، وهي يومئذ أفضل امرأة في قريش نسبًا وموضعًا، فدخل عليها مكانه حين ملكها فحملت برسول الله ﷺ، ثم خرج من عندها حتى أتى المرأة التي عرضت عليه ما عرضت، فقال: ما لك لا تعرضين اليوم عليّ ما كنت عرضت عليّ بالأمس، فقالت له: فارقك النور الذي كان معك بالأمس، فليس لي بك اليوم حاجة.

وقال ابن كثير في البداية والنهاية من طريق أبي بكر الخرائطي عن ابن عباس: لما انطلق عبد المطلب بابنه عبد الله ليزوجه مر به على

(١) تعتاف: من العيافة، وهي التكهن وصدق الحدس والظن وزجر الطير والتفاؤل بأسمائها وأصواتها وممرها قال ابن منظور في اللسان: وفي الحديث: أن عبد الله بن عبد المطلب أبا النبى ﷺ مر بامرأة تنظر وتعتاف فدعته إلى أن يستبضع منها فأبي.

كاهنة من أهل تبالة متهودة، قد قرأت الكتب يقال لها فاطمة بنت مر الخثعمية، فرأت نور النبوة في وجه عبد الله فقالت: يا فتى هل لك أن تقع عليّ الآن وأعطيك مائة من الإبل فقال عبد الله:

أما الحرام فالممات دونه		والحل لا حل فاستبينه
فكيف بالأمر الذي تبغينه		يحمي الكريم عرضه ودينه

ثم مضى مع أبيه فزوجه آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة، فأقام عندها ثلاثة أيام ثم إن نفسه دعته إلى ما دعته إليه الكاهنة فأتاها فقالت: ما صنعت بعدي؟ فأخبرها فقالت: والله ما أنا بصاحبة ريبة، ولكني رأيت في وجهك نورًا، فأردت أن يكون في وأبي الله إلا أن يجعله حيث أراد، ثم أنشأت تقول:

إني رأيت مخيلة لمعت		فتلألأت بحناتم[١] القطر
فلملئها نور يضيء له		ما حوله كإضاءة البدر
ورجوتها فخرًا أبوء به		ما كل قادح زنده يورى
لله ما زهرية سلبت		ثوبيك ما استلبت وما تدرى

وقالت أيضًا:

بني هاشم قد غادرت من أخيكم		أمينة إذ للباه يعتركان
كما غادر المصباح عند خموده		فتائل قد ميثت له[٢] بدهان

(١) الحناتم: سحائب سود
(٢) الميث: المرس والإذابة.

وروي ابن سعد في الطبقات قصة الخثعمية، وذكر البيتين المنسوبين لعبد الله دون أن يذكر فيهما الشطر الأخير من البيت الثاني، وكأن هذا أشبه، أما الشعر المنسوب إلى الخثعمية فهو شبيه بموضعه، وفي بيتيها الآخرين توضيح يشبه أن يكون طبيعيًّا لدوافع الرغبة في عبدالله بن عبد المطلب، فهو شاب مشبوب الحيوية، خصيب البدن، ريان الدم، قوى البنيان، جميل المحيا، باهر الطلعة، لا يرى في قريش فتى أحسن منه قامة، ولا أوسم وسامة، ولا أحلى منه منظرًا، ولا أعدل منه قدًا، ولا أملح منه وجهًا، ولا أرفع منه حسبًا، ولا أعرق منه نسبًا.

وأما حديث النور الذي تقول الرواية أن النسوة المستعرضات له رأينه في وجهه فطلبن منه ما طلبن من أجله؛ فهو قد يكون حديث الرغبة العارمة التي حركتها المناسبة في حادث الذبح والفداء، فتخيلت رواء الشباب وإشراق الجمال، وفخر الأحدوثة بهذا الحادث الفريد نورًا يبهر، وغرة تسطع، وليس بعجيب أن يكون عبد الله والد رسول الله ﷺ تميز بجمال فوق جمال أقرانه، وحسن فوق حسن لداته، وحيوية أشب وأقوى من حيوية أمثاله؛ لما يحمل من بذرة النبوة التي استدارت في ذاته اكتمالاً، فاستنارت على وجهه حسنًا وجمالاً، حسبه الراؤون غرة في وجهه تسطع، أو نورًا في جبهته يلمع، وليس هو - في بديهة الرأي - شيئًا من أنوار الناس الحسية المعروفة، ولكنه نور روحي قدسي تمثل في قوة الحيوية الطافحة، والجمال الغامر، والإشراق

الباهــر، فعــبرت عنـه كـل رائيـة بمـا تمثلـت أو تخيلـت، وفي قـول الخثعمية:

كما غادر المصباح عند خموده		فتائل قد ميثت له بدهان

لفتة فنية بديعة عميقة لا يقدر على تصويرها إلا أنثى امتازت في أنوثتها، وعرفت من أمر الرجال ما لم يعرف غيرها من أمثالها؛ فعبد الله مر عليها في أول مروره مرافقًا لأبيه وهو ريان الشباب طافح الحيوية، مياس الفتوة؛ بكر الرجولة؛ لم يعرف النساء ولا عرفه النساء؛ ولم تعتصر حيويته ولم يستلب شبابه ولا انتزع رواؤه؛ ولكنه بعد ذلك تزوج آمنة بنت وهب وهي أبرع فتاة في قريش؛ وللشباب عرامة وإسراف؛ فلما خرج من عند زوجه، وكان قد أودعها سر النبوة ونورها ومر بصاحبته المتعرضة أعرضت عنه بعد شغفها؛ وحدثته نفسه بما تحدث به نفس كل فتى في موقفه، وطلب إليها ما كانت طلبته منه بالأمس فأبت عليه؛ لأنها عفيفة شريفة؛ كانت قد أرادت إلى شيء منه قد ذهب عنه فما حاجتها به؟ أين تلك الحيوية الطافحة؟ وأين ذلك الشباب الريان؟ وأين إشراقة ذلك الجمال الفينان؟ وأين الحسن المشبوب في وجه عبد الله؟ لقد استلبته آمنة بنت وهب سر جماله وحيويته فغادرته ذابلاً نعسان؛ وخامدًا كسلان؛ ومعصورًا يابسًا كما غادرت الفتائل الممروسة بالدهن المصباح عند خموده ونفاذ زيته؛ فما

نفعها فيه، وما فائدتها منه؟ لقد فازت به آمنة بنت وهب؛ وما كل قادح زنده يوري.

وأغرب روايات المتعرضات روايات تذهب إلى أن عبد الله بن عبد المطلب كانت له زوجة مع آمنة أم رسول الله ﷺ؛ وهذه الزوجة هي التي عرضت عليه نفسها، أو هو كان قد طلبها فأبطأت عليه فذهب إلى زوجه آمنة.

روي الطبري عن محمد بن إسحاق: أن عبد الله دخل على امرأة كانت له مع آمنة بنت وهب، وقد عمل في طين له وبه آثار من الطين، فدعاها إلى نفسه، فأبطأت عليه لما رأت به من آثار الطين؛ فخرج عنها فتوضأ[1]، وغسل عنه ما كان به من أثر ذلك الطين، وعمد إلى آمنة، فدخل عليها، فأصابها، فحملت بمحمد ﷺ؛ ثم مر بامرأته تلك. فقال: هل لك؟ فقالت: لا: مررت بي وبين عينيك غرة فدعوتني فأبيت، ودخلت على آمنة فذهبت بها.

وهذه رواية تبدو عليها آثار الصنعة؛ ويظهر أن صانعيها وضعوها دفعًا لما تضافرت عليه الروايات من أن امرأة عرضت نفسها على عبدالله قبل زواجه بآمنة بنت وهب أن يستبضع منها، والاستبضاع:

(١) إن ثبتت هذه اللفظة فمعناها ـ من غير شك ـ الوضوء اللغوي الذي يعرفه العرب في جاهليتهم، ويكون عطف ما بعدها عليها عطف تفسير وتوضيح.

نكاح الجاهلية معروف يقصد به نساؤهن الإنجاب ممن يرين عليه مخايل النجابة؛ فكأن واضعي هذه الرواية أرادوا المبالغة في تطهير والد رسول الله ﷺ أن يراد لهذا النكاح الذميم.

وقد يرجح هذا قول ابن كثير في تاريخه: وقد كانت أم قتال رقيقة بنت نوفل أخت ورقة بن نوفل توسمت ما كان بين عيني عبد الله قبل أن يجامع آمنة من النور؛ فودت أن يكون ذلك متصلاً بها لما كانت تسمع من أخيها من البشارات بوجود محمد ﷺ وأنه قد أزف زمانه، فعرضت نفسها عليه.. قال بعضهم: ليتزوجها، وهو أظهر.

فانظر إلى قوله عن بعضهم: ليتزوجها، واستظهاره لذلك تعلم أن زعمهم في المتعرضة أنها كانت زوجة لعبد الله مع آمنة حديث خيله الإغراق في إرادة تصون والد رسول الله ﷺ عن تلك الأنكحة الجاهلية الذميمة، ومن ثم قال ابن كثير ـ عقب ذلك ـ: وهذه الصيانة لعبد الله ليست له؛ وإنما هي لرسول الله ﷺ؛ فإنه كما قال الله ـ تعالى ـ: ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥۗ﴾[الأنعام: ١٢٤].

وأنت ترى أن الصيانة حاصلة ولو لم تكن المتعرضة زوجة لعبد الله مع أم رسول الله ﷺ؛ لأن الله ـ تعالى ـ صانه عن إجابتها إلى ما أرادت؛ وادخر هذا الشرف فوضعه حيث أراد؛ وقد أنكر بعض الرواة والمؤرخين أن يكون لعبد الله زوجة غير أم رسول الله ﷺ، وجزم بأنه

لم يتزوج غيرها، وهذا ما لا نشك فيه، وهو رأي جمهور علماء السير والتاريخ.

ويظهر من تعدد الروايات واختلاف أسماء المتعرضات وأوصافهن أن قصة التعرض ربما تكررت مع أكثر من امرأة واحدة، وفي كلها حفظ الله والد رسوله ﷺ حتى وضع نوره حيث أراد.

وكأنما عز على الرواة أن يخلو حديث زواج عبد الله بن عبدالمطلب بآمنة بنت وهب من طرافة الحب والقصص المترف الناعم فأضفوا عليه لونًا من هذه الألوان الطريفة المستملحة في رواية زعمت أن آمنة بنت وهب حدثت بجمال عبد الله وحسنه؛ فرغبت في زواجه، فتزوجته.

حكى الطبري عن الزهري قال: إن عبد الله بن عبد المطلب كان أجمل رجال قريش، فذكر لآمنة بنت وهب جماله وهيئته، وقيل لها: هل لك أن تزوجيه فتزوجته؛ فدخل بها وعلقت برسول الله ﷺ.. قال الواقدي: هذا غلط، والمجتمع عليه عندنا في نكاح عبد الله بن عبد المطلب ما حدثنا به عبد الله بن جعفر الزهري عن أم بكر بنت المسور أن عبد المطلب جاء بابنه عبد الله فخطب على نفسه وعلى ابنه فتزوجا في مجلس واحد، فتزوج عبد المطلب هالة بنت وهيب بن عبد مناف ابن زهرة، وتزوج عبد الله بن عبد المطلب آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة.

ولولا هذا النقد الذي غلط به الواقدي ـ وهو من متقدمي الرواة ومؤرخيهم ـ هذه الرواية لقلنا إنها تكملة للرواية المشهورة، تتمشى معها في صورتها الطبيعية إلى أن خطب عبد المطلب آمنة بنت وهب لابنه عبد الله، فحدثها أبوها أو عمها ـ على اختلاف الروايات فيمن زوجها ـ عن خطيبها عبد الله بن عبد المطلب، وعن شبابه وجماله، وعن هيئته كالمرغب فيه حتى تأنس فلا تنفر، وترضى فلا تأبي، فرغبت فيه بعلاً، ورضيته زوجًا، وتلك سنة معروفة عند بعض العرب في استشارة بناتهن في أمر زواجهن وترك حرية اختيار الزوج لهن، ولكن نقد الواقدي وتغليطه الرواة في هذه الرواية يشعر بأن الرواة والمؤرخين يذكرون هذه الأقصوصة على أنها رواية مستقلة في بيان الطريقة التي وصلت بعبد الله أبي رسول الله ﷺ إلى زواج آمنة أمه ـ عليه الصلاة والسلام ـ.

ومهما يكن من شأن هذه الروايات فإن عبد الله بن عبد المطلب بني بزوجه آمنة بنت وهب سيد بني زهرة في أهلها، فأقام عندها ثلاثًا، وكانت تلك السنة عندهم إذا دخل الرجل على امرأته في أهلها.

وكان عبد الله بن عبد المطلب يعيش على سنة آبائه الأماجد تاجرًا سفارًا، يذهب مع تجار قريش في عيراتها إلى أسواق العرب ومتاجر اليمن والشام، ولم يكن واسع الثراء كأصحاب المضاربات والمرابين من تجار قريش، ولم يكن فقيرًا يقعده الفقر عن أسباب الكسب

والعمل والحياة من أشرف طرائقها، ولاسيما بعد زواجه، فقد أصبح مسؤولاً عن بيت فيه زوجته التي وجب عليه أن يعولها، ويقوم على واجباتها، وقد شعر بهذا شعورًا ملك عليه أحاسيسه حتى إنه لم يمهله ـ في أشهر الروايات ـ أن يقيم جانب إلى زوجته بعد أن بني بها أكثر من أيام معدودات، ثم أذن مؤذن العير بالرحيل إلى الشام للتجارة، فخرج مع قومه مودعًا من أبيه الشيخ الأسيف وزوجته الحبيبة، على جدة عهده بها وإخوته وأخواته وهم يرقبون عودته، ولكن الأقدار التي تعلو بحكمتها على مدارك العقول أبت على عبد الله الذبيح أن يرجع من سفرته هذه؛ ليشهد آمنة الزوجة الحبيبة، وقد تنفس حملها عن أكرم مولود يشهد الحياة أول ما يشهدها يتيمًا.

وهكذا مات عبد الله بن عبد المطلب في هذه الرحلة وهو عائد من الشام مارًا بأخوال أبيه عبد المطلب بني عدي بن النجار، وهكذا دفن عبد الله أبو رسول الله ﷺ بيثرب مدينة الأسرار والأنوار، ومأوى المهاجرين والأنصار، ومهبط الوحي، ومنزل الأحرار، ومثوى الكملة الأبرار.

ولأمر ما كانت المدينة المنورة مرقد عبد الله أبي محمد رسول الله ﷺ قبل أن يشهد الوجود طلعة محمد بن عبد الله ﷺ، ولأمر ما كانت من بعده مثوى محمد ﷺ، ولله ـ تعالى ـ حكمة فوق مدارك العقول والأفهام.

قصة أصحاب الفيل

أما الحادث الثاني في حياة عبد المطلب جد رسول الله ﷺ الذي وعدنا بالحديث عنه لأهميته في تاريخه، فهو حادث أصحاب الفيل، فقد كان عبد المطلب هو صاحب كلمة قريش وزعيم مكة وسيدها الناطق عنها، وله مع أبرهة قائد جيش الفيل موقف غريب في ظاهره، بيد أنه كان حكمة وكياسة في حقيقته، وهذا الموقف يصور طبيعة المسالمة والتأله في عبد المطلب خاصة وقريش عامة، ومن هنا كانت خصيصة عبد المطلب في قريش وشرفه وسيادته عليهم، فليست قريش من مساعر الحروب في العرب، ولم يعنون لها التاريخ في أيام حروب الجاهلية إلا بما ألجئت إليه إلجاء، ولم يكن ذلك عن ضعف فيها أو جبن عن لقاء أقرانها، ولكن طبيعة حياتها في حرم الله وجوار بيته هي التي صنعتها على هذه الصورة المسالمة.

وكذلك لم يكن سيدها عبد المطلب بن هاشم من رجالات الحروب وأبطال الغزو والقتال، بل كان رجل سلم وسلام؛ لأنه شيخ الحرم الذي يأمن فيه الخائف فلا يهاج؛ وينتصف فيه من الظالم للمظلوم؛ وقد غلبت هذه الطبيعة على قريش وعلى شيخها عبدالمطلب في موقفهم من أصحاب الفيل؛ فهذا جيش جاء لغزو مكة وهدم بيتها المحرم وقريش سادنة البيت وصاحبة مجده، وعبدالمطلب شريف قريش وسيدها؛ فما كان من قريش ولا كان من عبد المطلب

نهوض للحرب ووقوف في وجه هذا الجيش المهاجم ليصدوه عن بلدهم وبيتهم؛ كما وقف في وجهه قبائل من العرب مر بها في طريقه، فعرفت وجهته فحاربته وهزمها؛ ومضى في طريقه إلى هدفه حتى دنا من مكة وتسامعت قريش وعبد المطلب بأخباره، وعدده وعدته؛ فقالوا: لا طاقة لنا بحربه؛ وأشار عبد المطلب على قومه بالخروج من مكة وإخلائها صيانة لهم من عبث الجيش ومعرته فلجأوا إلى شعف الجبال تاركين البيت لرب البيت يحميه ويمنعه؛ لأن التعرض لحرب هذا الجيش إنما هو انتحار على أبشع صورة يسوق إليها التهور المغرور؛ وكان عبد المطلب في رأيه هذا أكيس من رجل يدفع بقومه إلى الانتحار في غير طائل؛ فسالم وخلص بقريش فلم يصبها ما أصاب غيرها من القبائل المتعرضة لهذا الجيش الكثيف.

وقدر عبد المطلب في نفسه أن الله رب البيت سيحمى هذا البيت، وراح في قومه قبل أن يخرجوا عن مكة يدعون الله ويستنصرونه لبيته وحرمه، فلما جاء الله بنصره وأنزل نقمته على أعداء حرمه وبيته عرفت العرب لقريش هذه المكانة، فقالوا: إنهم أهل الله وجيران بيته يحامى عنهم، وازدادت مكانة عبد المطلب رفعة عند قومه؛ لأنه أنقذهم وصان حرمتهم وذاع صيته وصيت قريش في أرجاء الجزيرة، وتداول الناس الأحاديث عن عبد المطلب وعن أبنائه وقومه في قبائلهم وبيوتاتهم ومحافلهم وأسواقهم، وما صنع الله لهم، وقد اتصل ذلك

بحديث ميلاد حفيد عبد المطلب محمد ﷺ ابن ولده الحبيب عبد الله الذبيح.

وهذا الاتصال ربط ذلك الحادث بسيرة وتاريخ رسول الله ﷺ على صورة تجلت في الامتنان عليه وعلى قومه وأمته بما صنع الله له ولبيته العتيق، فصانه وصان أهل جواره عن عبث الغزاة وفجورهم، ورد عليهم كيدهم في نحورهم، وأهلكهم هلاك استئصال بما لم تجربه عادة الناس، فكان إرهاصًا لمقدم محمد رسول الله ﷺ وبعثته، وأنزل الله في ذلك سورة من سور القرآن الكريم سجل فيها هذا الحادث خاصة أروع تسجيل، في أوجز عبارة وأوضح أسلوب:

فقال ـ تعالى ـ: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ۝ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ۝ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۝ تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ ۝ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ﴾[سورة الفيل:١-٥].

وفي خطاب رسول الله ﷺ في مفتتح السورة بهذا الأسلوب التقريري المعجب، وانصباب الاستفهام على الرؤية وهو لم يكن من شهود الحادث عند وقوعه دليل على أن هذا الحادث كان معروفًا متعالمًا مشهورًا بشهوده وآثاره لدى الخاصة والعامة حتى كان الحديث عنه ممن شهدوه إلى من لم يشهدوه حديث رؤية وعلم يقين يستوي مع المشاهدة والعيان، وفي انصباب الاستفهام على رؤية كيفية

فعل الله بهؤلاء الطغاة دون انصبابه على ذات الفعل أو أثره، فقيل: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ﴾، ولم يقل ألم تر ما فعل؟ أو آثار ما فعل ربك، إشارة إلى تهويل الحادث وإيذان بوقوعه على كيفية وحالة هي فوق مستوى ما عهده الناس وجرت به عادة فيما بينهم من طرائق وقوع الأحداث.

وإضافة الفعل المعجب عن طريقة وقوعه إلى الله بعنوان الربوبية المختصة بمحمد ﷺ على ما تقضيه الإضافة إلى ضميره الخطابي خاصة، دون ضمير غيره أو دون مشاركة معه رمز إلى مزيد اختصاص هذا الحادث به وأنه كان من أجله، ومن أجل بعثه، ومن هنا اتفقت كلمة أهل الإسلام -إلا من زاغ عن الجادة- على أن الله قدم هذا الحادث تشريفًا لخاتم أنبيائه؛ وتعظيمًا لشأنه.

قال الإمام فخر الدين الرازي: ولا شك أن هذه الواقعة كانت دالة على قدرة الصانع وعلمه وحكمته، وكانت دالة على شرف محمد ﷺ؛ وذلك لأن مذهبنا أنه يجوز تقديم المعجزات على زمان البعثة تأسيسًا لنبوتهم وإرهاصًا لها.

وإبهام ما فعل الله بهم في صدر الكلام، ثم توضيحه وتفصيله في صورة الاستفهام التعجبي، والتعبير عن مقاصدهم الفاجرة بالكيد الدال على خفي التدبير وسيء المكر، وامتنان الله يجعل ذلك هباء

مضيعًا لا يحظى منه صاحبه بطائل دليل على شدة قهر الله لهم وبطشه بهم، وعلى فظاعة ما كانوا يستهدفون من هدم بيت الله وتخريبه والعبث بحرمه، وهتك حرمات قطانه وأهله، وفي العناية بالتنصيص على طريقة إهلاكهم وذكر ما أهلكوا به بعنوان متعارف في صورة لم تجربها عادة ولا تعارفها الناس فيما بينهم منذ كانت الحروب والغزوات وتجمعات الجيوش آية على أن هذه النهاية السريعة الخاطفة والصورة البشعة الهائلة التي انتهي بها هذا الحادث، ليست من سنن الحياة المألوفة المكررة، ولكنها من سنن الوجود المدخرة لأحيانها ومناسباتها، فهو معجزة لنبوة محمد ﷺ مقدمة عليها إرهاصًا لها؛ وتأنيسًا بوقوعها، أعلم الله بها نبيه، ممتنًّا بها عليه عند تشريفه بدواعيها.

وإلا فمتى كان معهود الناس ومتعارف الأحداث أن طيرًا بهذا العنوان الذي له صورة خاصة لدى من يسمعه، تفد جماعات في إثر جماعات تحمل معها حجارة من طين يابس متحجر، حتى كأنه طبخ بالنار، ثم تعمد هذه الجماعات من الطير إلى جماعات من الناس مخصوصة لا تتعداهم إلى غيرهم فترميهم بما حملت من الحجارة؛ فتصيب مقاتلهم إلا قليلاً ممن نجا سقيمًا؛ ليكون عنوانًا على هول ما أنزل الله بهم من نقمة في هذا الحادث الجسيم، هذا هو الذي قال الله ـ تعالى ـ وقصه علينا في صراحة لا تحتمل لبسًا ولا تأويلاً، وقد آمن بهذا المؤمنون، وعلموا أن سنن الكون أجل من أن يحيط بها علمنا، وأخطر

من أن تكون حبيسة في دائرة عقولنا المحدودة، أن منها سننًا عامة معهودة متعارفة، وأن منها سننًا خاصة تقع عندما تتهيأ لها دواعيها، وخوارق العادات، التي يجريها الله على أيدي أنبيائه ورسله من سنن الكون الخاصة، التي جعلها الله عنوانًا على صدقهم وتكريمهم.

أما الذين وقفت بهم عقولهم عند مألوف الناس واحتكموا في الحوادث إلى العادات الجارية المتكررة، وأرادوا أن يخضعوا سنن الله في الكون وإرادته في خلقه وسلطان قدرته إلى ما جرت به العادة وتعارفه الناس، فقد فظع بهم أن يؤمنوا بهذا كما آمن المؤمنون بجلال الله وواسع قدرته ومحكم إرادته، وعظيم سلطانه، وأبوا ألا تحريف كلم الله عن مواضعه، وتأويل آياته الصريحة الصادقة، والتمسوا في الأمور العادية ملجأ للتأويل.

وفي قصة الفيل تشبثوا بالأوبئة العامة والأمراض الجائحة؛ ليجدوا لهم مخرجًا في تأويلها حتى لا تكون من سنن الله الخاصة في الكون والمعجزات الباهرة لمحمد ﷺ فتحدثوا عن الحصبة والجدري وراحوا يفسرون بهما هذا الحادث.

قال الإمام فخر الدين الرازي في تفسيره: واعلم أن قصة الفيل واقعة على الملحدين جدًّا؛ لأنهم ذكروا في الزلازل والرياح والصواعق وسائر الأشياء التي عذب الله ـ تعالى ـ بها الأمم أعذارًا ضعيفة، أما هذه

الواقعة فلا تجري فيها تلك الأعذار، لأنه ليس في شيء من الطبائع والحيل أن يقبل طير معها حجارة فتقصد قومًا دون قوم فتقتلهم، ولا يمكن أن يقال أنه كسائر الأحاديث الضعيفة؛ لأنه لم يكن بين عام الفيل ومبعث الرسول إلا نيف وأربعون سنة، ويوم تلا الرسول هذه السورة كان قد بقى بمكة جمع شاهدوا تلك الواقعة، ولو كان النقل ضعيفًا لشافهوه بالتكذيب؛ فلما لم يكن؛ علمنا أنه لا سبيل للطعن فيه.

وليس بلازم ـ على المحقق من مذاهب العلماء ـ أن تكون ـ أيّ المعجزات ـ مقرونة بالتحدي، بل من المعجزات ما يجب أن يكون مقرنًا بالتحدي، وذلك ما جعله الله برهانًا على صدق مدعي الرسالة كالقرآن الكريم[1] بالنسبة لمحمد ﷺ؛ والعصا بالنسبة لموسى، وإحياء الموتى بالنسبة لعيسى ـ عليهما السلام ـ ومنها ما يكون لمحض التكريم والتشريف سابقًا للنبوة في زمانها والعمدة فيه اتفاقه مع القسم الأول في خرق العادة، ومخالفة مجرى سنن الحياة المتكررة المعهودة: كتظليل الغمامة، وشق الصدر، وتسبيح الحصى، وتكثير القليل من الطعام أو

(١) وإنما انفرد القرآن الكريم من بين جميع المعجزات المحمدية بجعله برهان الصدق وقرنه بالتحدي لمناسبته لعموم الرسالة؛ لأن التحدي به عم ويعم جميع من أرسل إليهم إلى يوم القيامة بخلاف سائر المعجزات، فإنها لم يشهدها إلا قوم بأعيانهم فليس فيها عموم التحدي، فلم تجعل برهانًا عامًا على صدق الدعوى، وإن كانت برهانًا لمن شهدها، ولم يعرف من طريق صحيح أن النبى ﷺ تعلق بهذه المعجزات المادية الصادقة الوقوع برهانًا على صدق رسالته.

الماء مما وقع لنبينا محمد ﷺ قبل نبوته أو بعدها ولم يتحد به، ولم يتخذه برهانًا على صدقه؛ وإنما جعله الله له تكريمًا لمقامه؛ وتشريفًا لقدره، وقد أغرق رواة السيرة وقصاص التاريخ في رواية القصة فَلوّنُوها بألوان شتى، وأدخلوا عليها من الغرائب ما أوحي به الخيال الفضفاض.

ونحن بعد أن شرحنا ما تضمنته سورة الفيل من سور القرآن الكريم، وهو أصدق وأحكم مصدر لما يقصه ويرويه من الدلائل والإشارات على مغزى القصة في السورة ومرماها وطريقة أدائها للحادث في مقدمته ونتائجه ودقيق عنايتها بنهايته التي هي محط العظة والاعتبار، نرى أن نلم إلمامة موجزة بأشبه روايات القصة وأقربها إلى الحق الواقعي في كتب السيرة والتاريخ.

وقد اختلفت الروايات في سبب هذا الحادث ومبعثه الذي هاجه وحرك إليه، فذهب جمهور الرواة إلى رواية محمد بن إسحاق المشهورة التي تزعم أن أبرهة الأشرم - أمير الحبشة على اليمن - رأي إقبال العرب على الحج إلى مكة لتعظيم الكعبة بيت جدهم إبراهيم وأبيهم إسماعيل، فأراد أن يتقرب إلى سيده النجاشي - وكان نصرانيًا - بصرف العرب عن مكة وكعبتها فابتنى كنيسة صرف همته في زخرفتها وتزيينها وكتب إلى النجاشي: إني بنيت لك كنيسة لم يبن مثلها لملك كان قبلك، ولست بمنته حتى أصرف إليها حُجاج العرب، فلما تسامع

العرب بما صنع أبرهة اشتد عليهم فذهب بعض المتحمسين من متدينيهم واحتال حتى دخل تلك الكنيسة فعبث بها وقذرها فغضب أبرهة وأقسم ليهدمن الكعبة ويطأن مكة.

وذهب ابن هشام الكلبى ومقاتل بن سلميان إلى أن سبب حادث الفيل أن فتية من قريش خرجوا تجارًا إلى أرض الحبشة فنزلوا على ساحل البحر إلى جوار بيعة للنصارى يسمونها الهيكل، فأوقدوا نارًا لطعامهم وتركوها وارتحلوا فهبت ريح عاصف على النار فأضرمت البيعة نارًا فاحترقت فأتى الصريخ إلى النجاشي فأخبره فاستشاط غضبًا فأتاه أبرهة بن الصباح، وحجر بن شرحبيل، وأبو يكسوم الكنديون وضمنوا له إحراق الكعبة وسبي مكة.

هاتان الروايتان هما أمثل الروايات في سبب القصة، وكلتاهما محتملة الوقوع.. فالرواية الأولي ترد السبب إلى دوافع سياسية واقتصادية؛ فالحبشة قوم متغلبون على هذا القطر العربي ـ اليمن ـ يحكمونه وهم أجانب عنه، لا يطمئنون إلى أهله ويتوجسون خيفة من اجتماعهم بإخوانهم عرب الشمال في أرض الحجاز، وهذه طبيعة كل متغلب أجنبي، فلما رأوا رحلات أهل اليمن في مواسم الحج خشوا مغبة ذلك على اقتصادهم، وخافوا عاقبته على وجودهم، فأرادوا أن يصرفوا الناس عن هذه الرحلات فبنوا كنيستهم ليحج الناس إليها، ويتحول اقتصاد الجزيرة وتجاراتها في مواسمها إلى بلادهم، وبذلك

يستطيعون مراقبة من تحدثه نفسه بالخروج على سياستهم المتغلبة تطلعًا إلى الحرية والاستقلال إلى جانب ما قصد إليه أبرهة من استرضاء النجاشي ، والزلفي إليه.

والرواية الثانية ترد السبب إلى العصبية الدينية وتربطه بأرض الحبشة نفسها، وكانت الصلات التجارية بين العرب والحبشة معروفة، ونزول التجار بجوار الأديرة والبيع والهياكل مشهور، وعادة القوافل إذا نزلت منزلاً أن توقد النيران لتطعم وتستدفيء، فإذا رحلوا لم يحملوا معهم جذوات الجمر في دفين الرماد، فإذا هبت الريح اتقدت وازدادت اشتعالاً وسرت مع الريح، فإذا صادفت مسعرًا تسعرت واستشرت فأهلكت ودمرت، وفي الهياكل والبيع أدهان القناديل ومجتمع الهشيم.

فإذا لحقت النيران بأوله لم تلبث حتى تأتي على آخره، ولعل هذا كان أثرًا من آثار أولئك الفتية التجار من أبناء قريش الذين نزلوا بجوار بيعة الحبشة فاحترقت، وظن الحبشة بالعرب الظنون وأرادوا الثأر لبيعتهم، وعرفوا أن الكعبة هي هيكل العرب ومتعبدهم المقدس، فأرادوا تخريبها، فكتب النجاشي إلى عامله على اليمن أو سار العامل بمن معه من الحبشان إلى مكة بجيش جرار يقدمه الفيلة وطليعتها أعظمها، فلما علم به العرب أعظموه وفظعوا به ورأوا قتاله وصده واجبًا عليهم، فتصدى له بعض من كان في طريقه من قبائل العرب، وكان أول من خرج لجهاده ومقاتلته رجل من أشراف اليمن وأذوائهم

يقال له ذو نفر فدعا قومه ومن أجابه من العرب فقاتلوه فهزمهم أبرهة وأخذ ذو نفر أسيرًا، ثم عرض له نفيل بن حبيب الخثعمي على رأس قومه ومن تبعه من غيرهم فقاتلوه فهزمهم أيضًا، وأخذ نفيلاً أسيرًا، فكان دليل الحبشة في طريقهم حتى إذا مروا بالطائف ألقت إليهم ثقيف بطاعتها، وأرسلت معهم رجلاً يقال له أبو رغال يدلهم على الكعبة، فأنزلهم مكانًا قرب مكة يقال له المغمس وفيه مات أبو رغال، فكان سُبةً على ثقيف.

وذهبت طليعة الحبشة فاستاقت إلى أبرهة أموال أهل تهامة من قريش وغيرهم، وأصابوا فيها مائتي بعير لعبد المطلب بن هاشم ـ وهو يومئذ كبير قريش وسيدها ـ ثم بعث أبرهة إلى أهل مكة رجلاً يقال له حناطة الحميري ، فقال لهم إن الملك يقول: إني لم آت لحربكم، وإنما جئت لهدم هذا البيت، فإن لم تعرضوا إليَّ بحرب فلا حاجة لي بدمائكم، فلما دخل رسول أبرهة مكة سأل عن سيد قريش وشريفها فقيل له: عبد المطلب بن هاشم فجاءه فقال له ما أمره به، فقال عبد المطلب: والله ما نريد حربًا، وما لنا بذلك منه طاقة، هذا بيت الله الحرام وبيت خليله إبراهيم، فإن يمنعه منه فهو حرمه وبيته، وإن يخل بينه وبينه فوالله ما عندنا دفع عنه.

فقال له رسول أبرهة: فانطلق إليه، فإنه قد أمرنى أن آتيه بك؛ فانطلق معه عبد المطلب فدخل على ذي نفر في محبسه ـ وكان له

صديقًا ـ قبل أن يدخل على أبرهة، فقال له يا ذا نفر هل عندك من غناء فيما نزل بنا؟ فقال له ذو نفر: وما غناه رجل أسير بيدي ملك ينتظر أن يقتله غدوًا وعشيًّا؟ ما عندي غناء في شيء مما نزل بك إلا أن أنيسًا سائس الفيل صديق لي فسأرسل إليه وأوصيه بك وأعظم عليه حقك وأسأله أن يستأذن لك على الملك فتكلمه بما بدا لك ويشفع لك عنده بخير إن قدر على ذلك، فقال عبد المطلب: حسبي، فبعث ذو نفر إلى أنيس فقال له: إن عبد المطلب سيد قريش وصاحب عين مكة ويطعم الناس بالسهل والوحوش في رؤوس الجبال، وقد أصاب له الملك مائتي بعير فاستأذن له عليه وانفعه عنده بما استطعت، فقال: افعل، فكلم أنيس أبرهة فقال له أيها الملك هذا سيد قريش ببابك ويستأذن عليك وهو صاحب عين مكة، يطعم الناس بالسهل والوحوش في رؤوس الجبال، فأذن له عليك فيكلمك في حاجته، فأذن له أبرهة، وكان عبد المطلب أوسم الناس وأعظمهم وأجملهم، فأجله أبرهة وأعظمه ونزل عن سريره، فجلس معه على بساطه وقال له: حاجتك؟ فقال عبدالمطلب: حاجتي أن يرد على الملك مائتي بعير أصابها لي، فقال له أبرهة: لقد كنت أعجبتني حين رأيتك، ثم زهدت فيك حين كلمتني، أتكلمني في مائتي بعير أصبتها لك وتترك بيتًا هو دينك ودين آبائك قد جئت لهدمه لا تكلمني فيه؟ قال عبد المطلب: إني أنا رب الإبل، وإن للبيت ربًا سيمنعه. قال أبرهة: ما كان ليمتنع مني، قال عبد المطلب:

أنت وذاك، فرد عليه إبله وانصرف عبد المطلب إلى قريش وأمرهم بالخروج إلى شعف الجبال والشعاب تخوفًا عليهم معرة الجيش، ثم قام عبد المطلب وهو آخذ بحلقة باب الكعبة فقال:

لا هم أن العبد يـمـ نع رحله، فامنع حلالك
لا يغلبن صليبهم ومحالهم عدوًا محالك
أن يدخلوا البلد الحـ رام، فأمر ما بدا لك

ثم انطلق مع قومه ينتظرون ما أبرهة فاعل بمكة إن دخلها، فلما أصبح أبرهة تهيأ لدخول مكة وهيأ جيشه يقدمه أضخم أفياله ثم وجهه إلى الحرم فسقط كالبارك فضربوه ضربًا شديدًا فلم ينهض فوجهوه نحو اليمن وإلى كل جهة غير مكة فنهض يهرول، وأرسل الله عليهم طيرًا يجيئهم جماعة في إثر جماعة ترميهم بحجارة فأصابت مقاتلهم وخرجوا يتساقطون بكل طريق، ويهلكون بكل مهلك، وأصيب أبرهة فجعل جسمه يتناثر ويتساقط حتى انصدع صدره فمات بصنعاء.

هذا القدر من رواية القصة هو الذي أجمع عليه الرواة، وهو في مجموعه ليس فيه شيء يعسر على العقل الإيمان بوقوعه، لكن أهل الإغرام بالفضفضة والمبالغات السابحة في بحار الخيال الطيار تزيدوا في كثير من أطراف القصة وأطوارها تزيدًا أخرجها عن الحقيقة التاريخية إلى حوادث التسلية والسمر، ولاسيما في طرف الإعجاز منها، وهو الطرف الذي ارتفعت به قدرة الله عن الخضوع لنواميس

العادة المتكررة وسنن الحياة المألوفة إلى أفق سنن الوجود النادرة التي لا تجيء وفق تلك النواميس العامة، فقد تحدث هؤلاء المتزيدون عن الطير المرسلة ووصفوها بأوصاف لم يبق لها من حقيقة الطير التي أخبر بها الله ـ تعالى ـ إلا رفرفة الأجنحة والسبح في فسيح الأرجاء.

وفيما عدا ذلك فهي جامعة لأشكال جميع ما خلق الله من حيوان معروف أو غير معروف، ولم تنج من هذا التزيد الحجارة التي رمت بها هذه الطير أبرهة وقومه، فلم يكفهم ما وصفها الله به، بل أضافوا إليها من الأوصاف الخيالية كل غريب وعجيب، ولم يرضهم إلا أن تكون مبعوثة من جهنم ومكتوب على كل حجر اسم صاحبه، وهكذا وهكذا مما جعل كثيرًا من الناظرين والكاتبين في تفسير القرآن والسيرة النبوية والتاريخ الإسلامي إذا عرضوا لهذه القصة أجحفوا بالحقيقة التاريخية، وردوا ما فيها من إعجاز قصد به التمهيد للنبوة والتشريف المكرم لمن أختير لها، وذهبوا في تأويل النصوص مذاهب معتسفة، خشية التسليم بهذه المبالغات الجوفاء التي لا تنقص شيئًا من حقيقة الإعجاز في القصة لو خلت عنها.

فهؤلاء المؤولون يأبون أن يقبلوا ظاهر القرآن في أن الله ـ تعالى ـ أرسل على أبرهة وجيشه جماعات من الطير تحمل معها حجارة شديدة الصلابة ترميهم بها حتى هلكوا، كما يفهمه العرب الذين نزل القرآن بلغتهم، فالطير في لغة العرب عامة معروف المعنى، والحجارة

كذلك معروفة المعنى، والقرآن إذا عبر بهما أراد إلى هذا المعنى المكشوف البين المتبادر إلى فهم السامع، ويبعد أشد البعد أن يكون القرآن الكريم قد أراد إلى هذا العسف الذي يحمل الألفاظ معاني لم تعرف إلا بعد عدة قرون من نزول القرآن، فالمكروب الذي يريدون أن يجعلوه من محامل لفظ الطير في سورة الفيل إذا كان في عصرنا قد صار من الحقائق العلمية المسلمة، فهو عند العرب وعامة المسلمين من الحقائق المجهولة التي يستحيل عليهم فهمها من كلمة (طير) فتفسير القرآن به إسراف في التجني على اللغة وتعالم على السلف من أصحاب رسول الله ﷺ ومن جاء من بعدهم من أعلام العلماء في مدى القرون الماضية من تاريخ الإسلام إلى أن كشف العلم عن المكروب وحقيقته.

فإذا كان وزر المتزيدين في الروايات أنهم تزيدوا وأغرقوا، وقبلوا كل تافه وغثاء، فوزر المتأولين أنهم أجحفوا وتنقصوا وظلموا الحقيقة، وردوا ظاهر القرآن وصحيح الرواية لغير ضرورة ملجئة.

وإذا جاز التأويل في شيء من موضوعات القرآن الكريم وصرف ألفاظه عن معانيها الظاهرة المتبادرة لاعتياصها على بعض الأفهام؛ فالقصص القرآني أبعد ما يكون عن ذلك؛ لأن ألفاظ هذا القصص من الوضوح والبيان بمكان رفيع؛ لأن المقصود الأول من القصص في

القرآن: هو العظة والعبرة والتأسي، وذلك لا يتحقق إلا بألفاظ بينة المعاني واضحة الدلالة على مقصودها.

ولم يكتف بعض الكاتبين بالتأويل وصرف الألفاظ عن ظواهرها إنكارًا للإعجاز، ولكنه في سبيل الوصول إلى غرض معين أقحم على القصة عنصر الأوبئة العامة والأمراض الجائحة، وتحدث عن الحصبة والجدري، وأن وباءهما تفشى في جيش أبرهة ففتك به، ولعل جراثيم الوباء جاءت مع الريح من ناحية البحر، وهذا ـ بلا شك ـ لون من ألوان المجازفة في الحكم على حقائق التاريخ، لأن هذا الزعم لا يستند على شيء من الروايات الثابتة؛ وإنما يعتمد على روايات واهنة وافقت هوى عند هؤلاء المأولين فتمسكوا بها، وهي مع ضعفها ذكرت الحصبة والجدري كأثر من آثار الإعجاز في الطريقة التي أنهت بها القدرة الإلهية الحادث على ما جاء في التعبير القرآني ..، وقد راج هذا الزعم على شيخ المفسرين أبي جعفر الطبري فقال: فأقبلت الطير من البحر أبابيل مع كل طير ثلاثة أحجار، حجران في رجليه، وحجر في منقاره فقذفت الحجارة عليهم، لا تصيب شيئًا إلا هشمته وإلا نفط ذلك الموضع فكان ذلك أول ما كان الجدري والحصبة والأشجار المرة فأهمدتهم الحجارة.

وروي الطبري ـ أيضًا ـ عن يعقوب بن عتيبة أنه حدث: أن أول ما

رؤيت الحصبة والجدري بأرض العرب ذلك العام؛ وأنه أول ما رؤي بها مرار الشجر الحرمل والحنظل والعشر ذلك العام.. قال ابن الأثير: وهذا مما لا ينبغي أن يعرج عليه، فإن هذه الأمراض والأشجار قبل الفيل منذ خلق الله العالم.

*   *   *

وفي حديث الفيل لا نحب أن نغفل هذه الرواية الغريبة التي يحكيها القرطبى في تفسيره، فيقول: فحكى عبد المطلب أنه بعث ابنه عبد الله على فرس له، ينظر ما لقوا من تلك الطير فإذا القوم مشدوخين جميعًا، فرجع يركض فرسه كاشفًا عن فخذه، فلما رأي ذلك أبوه قال: إن ابني هذا أفرس العرب، وما كشف عن فخذه إلا بشيرًا ونذيرًا؛ فلما دنا من ناديهم بحيث يسمعهم الصوت قالوا: ما وراءك؟ قال هلكوا جميعًا.

وهذه الحكاية إذا صحت ـ ولم يكن قد وقع فيها تصحيف في الاسم ـ دلت أن عبد الله أبا محمد ﷺ شهد حادث الفيل؛ وأنه كان في يومه شابًا جلدًا يعتمد عليه، وكانت له دراية بالفروسية وخبرة بركوب الخيل فبعثه أبوه؛ ليكشف حال جيش أبرهة، بعد أن تركت لهم قريش مكة، وتحرزت بشعف الجبال، فذهب وجاء يركض فرسه على هيئة يتعرف بها المجربون من رجالات قريش والعرب آية النجابة، وقد

عرف ذلك أبوه فقال: إن ابني أفرس العرب، غير أن شهود عبد الله حادث الفيل لا يتفق إلا على أساس وقوع الحادث قبل زواجه بآمنة بنت وهب أم محمد رسول الله ﷺ إذا أخذنا بالرواية المشهورة التي تزعم أن عبد الله لم يلبث بعد زواجه أن توفي، أما إذا كان شهوده الحادث بعد زواجه فلا يتم إلا على رواية من يذهب إلى أنه عاش حتى ولد رسول الله وبلغ من العمر ثمانية وعشرين شهرًا، أو حتى مضى من حمله سبعة أشهر على ما سنحققه عند الكلام على الميلاد النبوى إن شاء الله بعونه وتوفيقه.

ميلاد محمد ﷺ
وما احتفَّ به من الأحداث

ترسم كتب السيرة ومصادر التاريخ ميلاد محمد ﷺ والحمل به في صورتين مختلفتين: إحداهما فطرية طبيعية؛ لأن محمدًا ﷺ فيها إنسان حملت به أمه كما تحمل سائر الأمهات ولدانهن زمانًا وحالة.

روي القسطلاني في مواهبه عن أبي زكريا يحيى بن عائذ أنه قال: بقى ﷺ في بطن أمه تسعة أشهر كملاً، لا تشكو وجعًا ولا مغصًا ولا ما يعرض لذوات الحمل من النساء، وكانت تقول: والله، ما رأيت من حمل هو أخف منه، ولا أعظم بركة منه.

ويقول القسطلاني أيضًا: واختلف ـ أيضًا ـ في مدة الحمل به، فقيل تسعة أشهر، وقيل عشرة، وقيل ثمانية، وقيل سبعة، وقيل ستة، وكل هذه الأزمنة محتملة في الحمل بالولدان لكثير من النساء في جميع العصور والبلدان، وما من زمن منها إلا وقد حفظ التاريخ وشهد الواقع أنه كان زمنًا لحمل كثير من الولدان أو الولائد، فليس في شيء منها خصوصية لمحمد ﷺ، تخرج بحمله عن معهود الناس وطبائع الحياة فيهم، وأكثر الرواة يذهبون إلى اختيار أبي زكريا في أن الحمل به ﷺ كان تسعة أشهر كاملة، وهذا ميل منهم إلى الواقع الفطري في تصوير زمان حمله ﷺ، وكذلك جرت الرواية في تصوير حالة الحمل به، فأمه لم تشعر لحمله بمشقة ولا وجدت له ثقلة، وكثيرًا جدًّا من الولدان من

لا تشقى بهم أمهاتهم في حملهن بهم، فلا يجدن للحمل ألمًا ولا ثقلاً، بل كثيرات من الأمهات، ولاسيما أبكارهن، لا يشعرن بالحمل إلا بعد مضى زمنه لخفته عليهن وقوة بنيانهن، مع اعتدال مزاجهن، وكمال صحتهن.

فليس عجيبًا أن تكون أم محمد ﷺ ـ وهو بكرها فلم تعرف الحمل قبله، وهو وحيدها فلم تحمل بعده ـ قد حملت به فلم تشعر أنها حملت إلا حينما أنكرت رفع حيضتها، وليس غريبًا ألا تجد لحمله ثقلاً ولا وصبًا مما يعتري كثيرات من النسوة والحاملات.

قال ابن سعد في الطبقات: إن آمنة بنت وهب لما حملت برسول الله ﷺ كانت تقول: ما شعرت إني حملت به، ولا وجدت له ثقلة كما تجد النساء، إلا إني قد أنكرت رفع حيضتي وربما كانت ترفعني وتعود..، وروي أيضًا من طريق شيخه الواقدي عن الزهري أنها قالت: لقد علقت به فما وجدت له مشقة حتى وضعته.

فليست خفة الحمل وعدم المشقة فيه مما يدخل في باب العجائب الخارقة لعادات الناس الجارية في مألوفاتهم، ولا هو مما يدخل في شيء من خصائص التكريم والتشريف، فهو أمر معهود مشهود مكرور لعامة الناس وخاصتهم.

وليس ثقل الحمل وظهور عوارضه اللاغبة مما يخرج عن سنن

الحياة، ولا هو في شيء من دلائل عدم الرعاية الربانية للوليد وأمه، فإذا كان بعض الرواة قد روي خفة حمل آمنة برسول الله ﷺ، فإن بعضًا آخر قد روي ثقله وشدته عليها، حتى كانت تشكو منه لصواحباتها.

روي الطبري وغيره من حديث العامرى عن شداد بن أوس أن رسول الله ﷺ قال في جواب مساءلة العامري: أنا دعوة أبي إبراهيم، وبشري أخي عيسى ابن مريم، وإني كنت بكر أمي، وإنها حملت بي كأثقل ما تحمل النساء، وجعلت تشتكي إلى صواحباتها ثقل ما تجد.

ويحدثنا ابن سعد في طبقاته: أن آمنة بنت وهب ـ أم رسول الله ﷺ ـ قالت: قد حملت الأولاد فما حملت سخلة أثقل منه.. وهذه رواية شاذة منكرة، وليس شذوذها ونكارتها لما اشتملت عليه من حديث ثقل الحمل وشدته، لمناقضتها لما روي عن طرق كثيرة في خفة الحمل به ويسره على أمه، ولكن لما فيها من زعم أن آمنة بنت وهب حملت بغير وحيدها محمد بن عبد الله ﷺ، وهذا ما لا يشك في بطلانه جمهور الرواة والمؤرخين.

قال الواقدي ـ معقبًا على هذه الرواية الزائفة ـ: وهذا مما لا يعرف عندنا، ولا عند أهل العلم لم تلد آمنة بنت وهب ولا عبد الله بن عبدالمطلب غير رسول الله ﷺ، ولولا كلام الواقدي لأمكن تخريج هذه الرواية على إفادتها مجرد ثقل الحمل، وذلك بأن تقرأ بضبط لفظ:

(حُملت) بالبناء للمفعول، وتكون تعبيرًا عن معاناة الحمل عند كل والدة، وتضبط لفظة: (حُملت) في سخلة؛ كذلك بالبناء للمفعول.

وهذه الصورة الفطرية الطبيعية تصور محمدًا ﷺ في ميلاده إنسانًا ولدته أمه في يسر وبهجة وضيئًا نظيفًا، حلو الملامح، جميل المحيا؛ كما تلد كثيرًا من الولدان أمهاتهم، وتلقته على يديها قابلته الشفاء أم عبد الرحمن بن عوف الزهرية، كما يتلقى القابلات سائر الولدان، وقد بشر به جده عبد الطلب ففرح به فرحًا شديدًا؛ لأنه رأي فيه خلفًا من أبيه الحبيب، يرى في مطالعة محياه ذكريات الأبوة الحانية، فأخذه بين يديه ودخل به الكعبة، وقام عندها يدعو الله ويشكر ما أعطاه، وقد شارك عمومة محمد عليه السلام أباهم الشيخ فرحته بولادة ابن لأخيهم عبدالله الذبيح الذي ذهب فلم يعد، وقد عمهم الفرح وشملهم البشر فتصدقوا وأهدوا وأعتقوا حتى من كشف الغيب عن عداوته لمحمد عليه السلام، فهذا عمه أبو لهب ـ وقد سجل القرآن في ذمه ما سجل ـ تذكر الرواية الصحيحة أنه لما بشرته مولاته ثويبة بولادة النبي ﷺ أعتقها، وكانت بعد عتقها أول من أرضع رسول الله ﷺ مع عمه حمزة بن عبدالمطلب قبل أن يسترضعا في بني سعد بلبن ابن لها يقال له مسروح، وشاركهما في لبنها أبو سلمة، وكان النبي عليه السلام يبرها ويسأل عنها وعن أقاربها وفاء لها.

روي البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث الزهري عن

عروة بن الزبير عن الزبير عن زينب بنت أم سلمة أم المؤمنين، عن أم حبيبة بنت أبي سفيان أم المؤمنين قالت: يا رسول الله انكح أختي عزة بنت أبي سفيان، فقال رسول الله ﷺ: أو تحبين ذلك؟ قلت: نعم، لست لك بمخلية، وأحب من شاركني في خير أختي، فقال النبي ﷺ: فإن ذلك لا يحل لي، قالت: فأنا نحدث أنك تريد أن تنكح درّةّ بنت أبي سلمة، قال: بنت أم سلمة؟ قلت: نعم، قال: إنها لو لم تكن ربيبتي في حجري ما حلت لي، إنها لإبنة أخي من الرضاعة، أرضعتني وأبا سلمة ثويبة، فلا تعرضن عليَّ بناتكن ولا أخواتكن.

زاد البخاري قال عروة: وثويبة مولاة لأبي لهب أعتقها فأرضعت رسول الله ﷺ فلما مات أبو لهب أريه بعض أهله بِشّرٍّ حيبةَ[1] فقال له: ماذا لقيت؟ فقال أبو لهب: لم ألق بعدكم خيرًا غير إني سقيت في هذه بعتاقتي ثويبة، وأشار إلى النقرة التي بين الإبهام والتي تليها من الأصابع.

قال ابن كثير: قالوا: لأنه لما بشرته ثويبة بميلاد ابن أخيه محمد بن عبد الله ﷺ أعتقها من ساعته فجوزي بذلك لذلك.. وقال القسطلاني في المواهب: وأرضعته ﷺ ثويبة عتيقة أبي لهب أعتقها حين بشرته بولادته عليه السلام.

(١) الحيبة: الهم والحزن، قال في اللسان: وحديث عروة لما مات أبو لهب أريه بعض أهله بشر حيبة ـ أي بشر حال ـ.

وقد صح من طرق كثيرة أن محمدًا عليه السلام ولد يوم الاثنين لاثنتي عشرة مضت من شهر ربيع الأول عام الفيل من زمن كسرى أنوشروان، ويقول أصحاب التوفيقات التاريخية: إن ذلك يوافق اليوم المكمل للعشرين من شهر أغسطس سنة ٥٧٠ بعد ميلاد المسيح عليه السلام، ووراء ذلك خلاف عريض في زمن ميلاده يومًا وشهرًا وعامًا لا طائل تحت استقصائه، ولكنه يشعر بصادق العناية في تقصي واستيفاء ما يتعلق بحياته ﷺ مما لم يتوافر في سيرة شخصية من شخصيات الأنبياء والرسل والقديسين والقادة والمصلحين.

ومكان ولادته معروف بمكة مشهور، تقلبت عليه الأحداث فتغلب عليها حتى انتهي به الأمر إلى أن صار في عصرنا دارًا للحديث، وقد كنت بمكة في سنة ١٣٧٠ الداخلة في سنة ١٣٧١هـ، ورأيت أسس البناء عليه قائمة، وكانت التبرعات تجمع له من أجواد المسلمين، ولا شك أن هذا المكان كان جزءًا من دار جده عبد المطلب، انتقلت إليها آمنة وهي حامل به ﷺ، وقد عق عنه جده عبد المطلب في يوم سابعه فرحًا بمولده.

روي البيهقي عن أبي الحكم والتنوخي قال: فلما كان اليوم السابع ذبح عنه جده عبد المطلب ودعا له قريشًا، فلما أكلوا قالوا: يا عبد المطلب أرأيت ابنك هذا الذي أكرمتنا على وجهه ما سميته؟ قال:

سميته محمدًا: قالوا: فما رغبت به عن أسماء أهل بيته؟ قال أردت أن يحمده الله في السماء وخلقه في الأرض.

وفي رواية: أن أمه حدثت أنه قيل لها في النوم سميه محمدًا فسمته به، فلما وضعته أرسلت إلى جده عبد المطلب وكان على فراشه في ظل الكعبة حوله ولده والملأ من قريش؛ أنه قد ولد لك غلام فأته فانظر إليه، فأتاه هو ومن معه من ولده وقومه؛ فنظر إليه وحدثته آمنة برؤياها وما أمرت أن تسميه فسماه بما قالت. وهذا الاسم لم يكن من الأسماء الذائعة المنتشرة بين العرب، ومن ثم استغربه الملأ من قريش لما سألوا جده عن اسمه الذي سماه به فأخبرهم؛ ولكن التاريخ حفظ ذكر جماعة من العرب سموا بهذا الاسم تطلعًا إلى ما كان مستفيضًا على ألسنة أهل الكتاب والمتحنفين من ترقب ظهور نبي من بني إسماعيل يسمى بهذا الاسم، والله أعلم حيث يجعل رسالته.

تنفس محمد عليه السلام نسيم الحياة يتيمًا، فقد أباه قبل أن يشهد الوجود طلعته: فقد مات عبد الله بن عبد المطلب ورسول الله ﷺ جنين في بطن أمه، وقد ترك له خمسًا من الإبل وقطعة من الغنم وجارية هي حاضنته أم أيمن بركة الحبشية، وقد أعتقها ﷺ وزوجها مولاه زيد بن حارثة، فولدت له أسامة بن زيد، هذه هي الصورة الفطرية التي رسمتها كتب السيرة والتاريخ لميلاد محمد ﷺ في أشهر الروايات وأشبهها بالحق والواقع.

أما الصورة الأخرى التي رسمتها كتب السيرة ومصادر التاريخ لمحمد ﷺ في الحمل به وفي ميلاده في صورة مليئة بالأعاجيب والخوارق والمعجزات، وإن شئت قلت هي صورة كلها أعاجيب وخوارق ومعجزات، حتى ما كان من أمره ﷺ إنسانيًّا متمشيًا مع الفطرية تجده في هذه الصورة المصنوعة قد انخرط في سلك الأعاجيب والخوارق المعجزة في منزع من التكلف في التأويل وضرب من التعسف في التخريج، فخفة الحمل به على أمه إذا رويت في سيرته، وجب أن تكون خارقة للعادة، داخلة في باب الإرهاصات المعجزة، وثقلة الحمل به وشدته على أمه إذا رويت في سيرته، وجب أن تكون خارجة عن مألوف الناس ومكرور عاداتهم، فهي إرهاص معجز لا يكون إلا لمن كتب في رقيم الأنبياء، وإذا اختلفت الروايات فجاء في بعضها خفة حمله على أمه؛ وأنها لم تشعر بوجع ولا وحم وجاء في بعضها الآخر ثقل الحمل وشدته شدة تشكوها إلى صواحباتها وجب أن يوفق بين هذه الروايات المتخالفة على أساس إثبات كل حالة، وعلى أن تكون كل حالة في وضع غير طبيعي؛ لتكون إرهاصًا معجزًا.

قال القسطلاني في المواهب بعد أن ساق حديث شداد بن أوس في مساءلة العامرى لرسول الله ﷺ عن بدء شأنه: ففيه أن أمه عليها السلام وجدت الثقل في حمله، وفي سائر الأحاديث أنها لم تجد ثقلاً، وجمع الحافظ أبو نعيم بينهما بأن الثقل به كان في ابتداء علوقها به، والخفة

عند استمرار الحمل به فيكون على الحالين خارجًا عن المعتاد المعروف.

وللباحث ـ بداهة ـ أن يتساءل ولماذا كل هذا التكلف؟ وما الحامل عليه؟ هل يضير سيرة محمد عليه السلام أن يكون في حمله إنسانًا بشرًا يخف حمله كما يخف حمل الولدان من الأناسي، ويثقل ويشتد كما يثقل ويشتد حمل الأجنة من بني آدم؟ وهل يخدش النبوة أن يكون النبي في حمله جاريًا على مقتضى طبيعة الأحياء؟.

الأعاجيب الكونية والخوارق المعجزة

تحقيق تاريخي، وتحليل علمي

ليس من رأينا ولا في مذهبنا أن ننكر الإرهاصات المعجزة جمودًا مع الجامدين المتعالمين الذين يريدون أن يخضعوا جلال الألوهية وعظم سلطانها لسلطان عقولهم في حدود ما يعرفون من سنن الحياة، وهذا غرور بليد؛ لأن ما عرف من سنن الحياة تافه قليل إلى جانب ما لم يعرف، وحتى الذي عرف من سنن الحياة لا ينكر هذا الضرب من الخلق والتكوين الذي يراه من يقيسه إلى سنن الحياة العامة المألوفة المتكررة معجزًا خارقًا لقوانينها، وهو في نظامه وتكوينه وأسبابه خاضع لسنن خاصة تعرفها الحياة في أوقات ومناسبات خاصة، فهو في حقيقة أمره من سنن الله القائمة على أسباب ومناسبات مطردة في بابها.

وإنما مذهبنا في تقبل هذه الإرهاصات أن تثبت بها الرواية ثبوتًا لا يحتمل الطعن والتجريح على ما ذهبنا إليه في حادث الفيل، اعتمادًا على النص القرآني ، فهل جاءت الرواية التاريخية في حادث الحمل بمحمد ﷺ بهذا التفريق بين أول الحمل واستمراره بما يسوغ هذا التأويل؟ ولماذا لا يكون العكس صحيحًا فتكون خفة الحمل في أوله ويكون ثقله وشدته في استمراره؟ وهذا هو الموافق للفطرة التي فطر الناس عليها وبه، يتم الجمع والتوافق بين الروايات والجمع بين الأحاديث إذا صحت بها الرواية كلها.

وهـذه الأعاجيـب والإرهاصـات المعجـزة لا تقـف عنـد شخصـية محمـد عليه السلام، فتجعلـه متكلمًـا في المهـد؛ سـاجدًا رافعًـا أصـبعيه إلـى السماء كالمتضرع إلى غير ذلك، ولكنها تبدأ بأمه، فتجعلها مكلمة في يقظتهـا مـرة وفي منامهـا مـرة أخـرى بكـلام طويـل ترويـه كتـب السـيرة ومصادر التاريخ من النثر والشعر، وتنتبه مـن نومهـا فتجد عنـد رأسـها صحيفة من ذهب مكتوب فيها أبيات مـن الشـعر تعويـذة لوليـدها، ثـم تتلقـي أسـمه تلقيًـا، وتتنـزل عليهـا الملائكـة سـاعة ولادتهـا فتمسـح بأجنحتها على فؤادها، فيذهب ما بها مـن أوجـاع وآلام، وتسـقي شـربة بيضـاء ليسـت مـن شـراب الـدنيا، وتتنـزل عليهـا نِسـوة كالنخـل طـوالاً؛ فترعب منهن، فيعرفنها بأنفسهن، ليـذهب عنهـا الـروع، وإذا هـن: آسـية امرأة فرعـون، ومـريم ابنـة عمـران، وطائفـة مـن الحـور العـين حتـى إذا وضعته، تنزلت عليها الملائكة عيانـًا في صـور وألـوان وأحـوال غايـة في العجـب، وأخـذوه منهـا، وغيبـوه عنهـا، وطـافوا بـه مشـارق الأرض ومغاربها على الإنس والجـن والملائكـة والطيـور والوحـوش؛ ليعرفـوه إلى شيء كثير، وكثير جدًّا لا يحيط به الحصر.

والعجيب في هذه الأعاجيـب والإرهاصـات أنها لا تقـف عنـد حـد ولكنهـا تتصـل بكـل شـيء فهـي في الأرض وفي السـماء، وفي الـبر وفي البحر، ومع الإنـس ومـع الملائكـة ومـع الجـن، وفي أرض العـرب، وفي بلاد العجـم، فـإيوان كسـرى ارتجـف ليلـة مـيلاد محمـد ـ عليـه الصـلاة

والسلام ـ وسقطت منه أربع عشرة شرفة، وخمدت نار فارس ولم تخمد قبل ذلك بألف عام، وغاضت بحيرة ساوة، ورأي الموبذان رؤيا أفزعت كسرى، فأوفد عبد المسيح إلى سطيح، فسجع وهدر وحذر وأنذر، وبشرت وحوش المشرق وحوش المغرب، ونطقت الأصنام وهتفت الأنعام، وتكلمت الجمادات إلى ما لا يحصى كثرة.

ولو أن باحثًا حاول أن ينسب هذه الإرهاصات المروية في حمله وولادته ﷺ إلى ما روي من معجزاته الكونية بعد نبوته ـ وهو وقت الحاجة إليها إن كانت إليها حاجة ـ لوجد الفارق شاسعًا، والبون بعيدًا في العدد، والنوع والأسلوب، فهنا ـ في الحمل والولادة ـ يجد كثرة غامرة وأنواعًا مختلفة الألوان، وأسلوبًا عنيفًا، وهناك ـ بعد النبوة ـ يجد عددًا محصورًا من المعجزات في أنواع متقاربة تكاد تكون محصورة في أسلوب هادئ، يرمي إلى تثبيت الإيمان وإيقاظ الوجدان إلى رحمة الله وواسع قدرته، في تشريف رسوله، وتكريمه بألوان من سنن الحياة الخاصة بمن اصطفاهم الله لهداية الخلق.

على أن أكثر روايات الإرهاصات في الحمل والميلاد يقفيها رواتها بقولهم: لا أصل له، أو شديد الضعف، أو مطعون فيه، أو متكلم فيه، ونحو ذلك مما يدل على أنه ما كان ينبغي أن تسود بمثله صحائف النور في السيرة العطرة لأكرم النبيين وسيد المرسلين.

وعلى ضوء ما أصلناه للبحث عند الحديث على حادث الفيل، وما عرضنا له هنا في الأعاجيب والخوارق المعجزة نرى:

أولاً: أن وقوع حوادث كونية تخفي على العقول أسبابها وعواملها المنشئة ـ وهو ما نسميه بالأعاجيب ويسمى في مشهور العلماء بالإرهاصات إن وقع قبل النبوة وبالمعجزات والآيات إن وقع في زمان النبوة ـ أمر قامت على جوازه ووقوعه الدلائل من النصوص القطعية في الكتب السماوية والنقول التاريخية، التي بلغت في جملتها مبلغ التواتر القاطع، ومن البراهين العقلية التي تقرر قيومية الخالق عز شأنه، وإطلاق قدرته من قيود القوانين، والعادات المعلومة في حدود مدارك العقول الإنسانية إلى سنن كونية وقوانين للوجود فوق آفاق تلك العقول تحدث على وفقها تلك الأحداث الكونية والأعاجيب الإعجازية إذا تطلبتها أسبابها وحانت مناسباتها والله فعال لما يريد لا يسأل عما يفعل.

ثانيًا: أن القرآن الكريم ـ وهو أثبت وأصدق نص تاريخي ـ لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه قص علينا في قصص الأنبياء بعض آياتهم المعجزة من الأحداث الكونية التي وقعت على أيديهم مما جرى مجرى التشريف والتكريم، ومما تحدوا به أقوامهم مما لا يمكن أن يدخل تحت سنة من سنن الحياة المعروفة للعقول والمعهودة في عادات الناس ومألوفهم، وقد سمى القرآن بعض تلك الآيات الكونية

المتحدية براهين، فانقلاب عصى موسى حية تسعى، وإخراج يده بيضاء من غير سوء، وانفلاق البحر له ولقومه، ونتق الجبل فوقهم كالظلة، وإحياء عيسى للموتى، وإبراؤه للأكمه والأبرص، وإنباؤه قومه بما يأكلون وما يدخرون في بيوتهم، وخلقه من غير أب، وإيتاء أمه مريم ـ عليها السلام ـ رزقًا دون حركة آلية أو تسبب مما بعث كافلها زكريا عليه السلام على التعجب، ونقل عرش بلقيس من المسافة البعيدة في أسرع من لمح البصر، وما وقع لأصحاب الكهف، وعدم إحراق النار إبراهيم عليه السلام، وسائر آيات الأنبياء في قصصهم التي لا تحتمل تمحلاً ولا تأويلاً، كل ذلك من الأعاجيب المعجزة والخوارق التي وقعت فعلاً، وشهدها الوجود واستفاضت بها روايات التاريخ بنقل الأجيال عن الأجيال، منذ كانت النبوة لبني الإنسان إلى يوم الناس، استفاضة تدفع بمنكريها إلى محابس الممرورين وذوى العته العقلي ونقص التكوين الإدراكي.

ثالثًا: إذا ثبت وقوع الأعاجيب المعجزة والحوادث الكونية الخارقة لمعروف العقول في سنن الحياة العامة، فالنظر فيما يروي منها جملة في سيرة نبينا محمد ﷺ قبل نبوته أو في زمنها يجري على سنن تلك الآيات وقوانينها، ويبقى على الباحث النظر في إثبات أفراد تلك الحوادث والجزئيات التي سجلتها السيرة النبوية؛ فما ثبت منها بطريق صحيح السند صادق الرواية وجب قبوله والإذعان بوقوعه، لأن رده أو

التشكك فيه بعد ثبوته بهذه الطريقة التي لا طريق للإثبات التاريخي فوقها رد لبرهان العقل القاطع، ورد لنص القرآن في إثبات الآيات المعجزة، ولا فرق بين آية وآية، ورد البرهان العقلي والنص القرآني إلحاد في دين الله، أو جهل بسنن الحياة أو تشكيك في قدرة الله.

وما لم يثبت منها هذا الثبوت فنحن في حل من إنكار وقوعه، أو التوقف في الحكم عليه إثباتًا أو نفيًا، والتوقف أسلم وأحكم ـ كما يقول علماؤنا؛ لأنه محتمل الثبوت، وقد قامت الدلائل في العلم التجريبي وفي وسائل البحث التاريخي على أن كثيرًا مما كان ينكر من الحقائق العلمية والحوادث التاريخية أصبح ثابتًا مقررًا في بداهةِ العقول، وكثيرا مما كان يزعم حقائق علمية ومقررات تاريخية صار في مهب الأساطير والخرافات، فالتسرع في الإنكار خطل في الرأي، والتسرع في التصديق قبل الإثبات غميزة في العقل.

وعلى هذا الهدى جرينا ونجري في البحث بتوفيق الله ـ تعالى ـ فنعرض لما يروي في السيرة العطرة من هذه الأعاجيب الكونية المعجزة نحاكمه إلى صحة السند وصدق الرواية، فإذا ثبت لهذه المحاكمة وفاز فيها بعنوان الوجود الواقعي سجلناه مؤمنين مذعنين، وإذا لم يثبت وطاحت به الرواية أو خانه السند الصحيح، طرحناه حيث ينتهي غير آسفين.

وأعلى ذلك عندنا وأرفعه في منازل القبول والصدق القاطع ما يذكره القرآن في صراحة ظاهرة، أو يشير إليه إشارة لماحة، وبين المرتبتين من الفرق ما بين الأسلوبين في التعبير، فلا يجوز التلبث في قبول المرتبة الأولي والإيمان بها، ولا يقبل أن يمشي التأويل في ساحتها، تشبثًا من المتأولين بمعروف العقول وقضايا العلم وقوانين المنطق، ومألوف سنن الحياة؛ لأن معروف العقول وقضايا العلم وقوانين المنطق، ومألوف سنن الحياة مخلوقة لله -تعالى- فهي محكومة بواسع قدرته، ومطلق سلطانه في تصريف خلقه فلا يسوغ في معروف العقول السليمة، وقضايا العلم الصحيح، وقوانين المنطق المستقيم أن تجعل حاكمة على خالقها، وإلا كانت الألوهية ضربًا من الوثنية التي يصطنعها الناس بعقولهم وعواطفهم وأخيلتهم.

والمسألة هنا ليست مسألة عقل يحكم أو منطق يقيس ويبرم ثم ينتهي كل شيء، وإنما هي مسألة عقل يبحث في أصل الإيجاد والإبداع، فإذا استقام له أن يقيم هذا الأصل على دعائم ثابتة، جاءت الحوادث الجزئية بطبيعتها خاضعة لناموس الإيجاد والإبداع العام فقط دون أي ناموس آخر يحكمها في وجودها الجزئي.

وإذا صح للعقل أن الإيجاد والإبداع صفة دائمة تقتضيها الألوهية وتجعلها سارية في ذرات الكون وجزئيات الوجود، ثم طلبنا إلى هذا العقل أن يحدد لنا أسلوب الألوهية في الإيجاد وطريقتها في التكوين

والإبداع لم يحر جوابًا؛ لأنه أعجز من أن يصل إلى هذه الحقيقة، وهي أبدًا أمامه في كل لحظة من لحظات الحياة، وإلى ذلك يشير القرآن الحكيم في طرف من قصة إبراهيم عليه السلام؛ حيث يقول: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾

[البقرة: ٢٦٠]

فإبراهيم عليه السلام مؤمن أرسخ الإيمان، موقن أشد الإيقان بأن إيجاد الحياة في الموتى إعادة أو بَدْءًا صفة الإلهية الخالقة القادرة، ولكنه أراد إلى يقين آخر في معلوم جديد، وهو أن يريه الله حالة الإيجاد والإبداع وأسلوبه وطريقته، ولذلك قيل له تطمينًا لقلبه على طريق الاستفهام التقريري: أنت مؤمن بما هو كمال خلتك، ومنتهي مجال إنسانيتك في الاعتراف بقدرة الخالق على الإيجاد والإبداع، وهذا هو غاية مجال العقل الذي يجب أن يقف عنده، ثم أجيب إلى ما طلب بطريق الرمز التمثيلي إشارة إلى أن هذه مرتبة روحانية محضة فوق متعارف العقول.

ولنا في هذه الآية فهم قائم على أساس ما قاله بعض الأئمة في تفسير: ﴿فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ﴾ بمعنى ميلهن إليك، بعقد أواصر المحبة الجاذبة من غير اختيار، فإذا تم هذا ففرقهن عنك في أماكن متباعدة،

وكن منهن بحيث يرينك ويسمعن نداءك، ثم ادعهن، وافهم كيف يأتينك ساعيات إليك، ولله المثل الأعلى، وهو عزيز لا يغلب، حكيم تصدر شئونه على مقتضى حكمته في تدبير خلقه.

أما قول جمهور المفسرين أن معنى: ﴿فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ﴾ فقطعهن فإنه إلى كونه يجعل المتعلق، وهو محط الإفادة بمضيعة في البين، هو بمعزل عن المقصود من سوق السؤال والإجابة.

أما المرتبة الثانية، وهي الأعاجيب التي يشير إليها القرآن ولا يذكرها صراحة فإن تأيدت بروايات صحيحة السند من السنة النبوية كان حظها في الإيمان بها وقبولها مثل حظ سابقتها، ولكن لا على أنها هي التفسير للنص القرآني قطعًا كما في المرتبة السابقة، بل على أنها وجه لتخريج النص وفهمه مع قيام صحة غيره من الوجوه المحتملة إذا استقام لها الدليل، وإن لم تجد لها عضدًا قويًّا من الرواية الصحيحة قبلنا ما يذكر فيها من تأويل قويم على أنه معنى راجح على استنباط ما تشير إليه من حادث كوني معجز دون أن ينفي صحة أن يكون هذا الحادث الكوني المشار إليه معنى من معاني النص المحتملة.

ودون ذلك مراتب أعلاها ما يروي في المصادر المعتبرة عند ذوي العلم بسند صحيح وطرق متعددة، وأدناها ما ينفرد بروايته مصدر ضعيف أو راوٍ لا يتحرز.

أما الآثار والأحاديث الموضوعات، والأباطيل التي ينص الأئمة على وضعها واختلاقها، فلا تصلح أن تكون في مراتب الاعتداد والحسبان.

والأمثلة على ما ذكرناه من المراتب كثيرة في السيرة النبوية، ولا تعوز الباحث، فهو يجدها أنّى طلبها، وحادث الفيل أوضح مثال على ما ذكره القرآن الحكيم من الأعاجيب المعجزة في صراحة ظاهرة، ومن هنا بسطنا القول فيه بسطًا يجلي ما فيه من إعجاز يرد ما زعم فيه من تأويلٍ يخرجُهُ عن حقيقةِ المعجزةِ التي سِيقَتْ في القرآن للامتنان بها على محمد رسول الله ﷺ تشريفًا له وتكريمًا، وتنويهًا بذكر قومه وبلده.

ويشارك حادث الفيل في هذه المرتبة قصة انشقاق القمر، فقد ذكرها القرآن في صراحة ظاهرة، وتضافرت على روايتها المصادر العالية في رواياتٍ ارتفعت على الصحة، حتى كادت تكون متواترة، وسنعرض لها عند فرصتها من البحث.

وقصة شق صدره ﷺ وهو فطيم عند ظئره في بني سعد، كما في بعض الروايات وهو المُعُوّلُ عليه عند جمهور الأئمة، أو ليلة الإسراء به كما في بعض الروايات الأخرى، مثال للمرتبة الثانية من الأعاجيب

الكونية التي أشار إليها القرآن إشارة لماحة، وتأيدت بروايات صحيحة الأسانيد.

فقد ذكر كثير من المفسرين أن قول الله - تعالى -: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾[الشرح:١]، إشارة إلى هذه القصة المعجزة، وقد تأيد ذلك برواية لمسلم في صحيحه ذكر فيها قصة شق الصدر زمن الطفولية، وبرواية له وللبخاري في صحيحيهما ذكرا فيها قصة شق الصدر ليلة الإسراء، وأورد الترمذي قصة شق الصدر في تفسير ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ﴾ وسنعرض بشيء من البسط لهذه القصة - أيضًا - عند مناسبتها، ويدخل في هذا تظليل الغمامة وقصتها مروية في جامع الترمذي وغيره من كتب الحديث ودواوين السنة.

ومن قبل المرتبة الثانية أنباء أهل الكتاب والآخذين عنهم من متحنفة العرب ومتدينيهم بزمن مولده وبعثه والتنويه بذكره، لأن القرآن ذكر أنهم يجدون محمدًا ﷺ بنعته واسمه مكتوبًا عندهم في التوراة والإنجيل، وقد جاءت الروايات الصحيحة عن أخبارهم بما علموا قبل أن يظهر شأنه ويدخلهم الحسد فيدفعهم إلى كتمان أمره ﷺ.

وقصص تكثير القليل من الطعام أو الماء حتى يكفي الجم الغفير من الناس طعامًا مشبعًا؛ وشرابًا رويًا؛ وطهورًا نقيًا، وقصة تكلم البقرة التي حمل عليها صاحبها مَتاعَهُ، وركبها فقالت: إني لم أخلق لهذا..

أمثلة لأعلى مراتب ما لم يذكر في القرآن تصريحًا أو إشارة؛ ولكنه روي في المصادر المعتبرة بأسانيد صحيحة.

فقد روي البخاري ومسلم في صحيحيهما هذه القصص بروايات متعددة وطرق كثيرة، ورواها غيرهما من أصحاب السنن والصحاح.

وقصة رد الشمس يوم قريظة حتى تصلى العصر في وقتها تذكر في مصادر لا يتفق عليها مهرة النقاد والمحدثين، فهي مثال لأدنى ما يذكره القرآن أو يشير إليه، فقد خرجها الطحاوي في مشكل الحديث عن أسماء بنت عميس ووثق رواتها، وضعف ابن الجوزي حديثها، بل كذبه وحكم بوضعه فقال: وغلو الرافضة في حب عليّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حملهم على أن وضعوا أحاديث كثيرة في فضله، منها: أن غابت الشمس ففاتت عليّا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ صلاة العصر فردت له الشمس، وهذا من حيث النقل محال، ومن حيث المعنى فإن الوقت قد فات وعودها طلوع متجدد ولا يرد الوقت.. اهـ.

ونضيف إلى ذلك أن الشمس لم ترد للنبي ﷺ ومعه جمهور أصحابه في إحدى سفراته، وقد نزلوا واديًا، فقال النبي ﷺ لبلال: «اكلأ لنا الفجر» فناموا ونام بلال فلم يوقظهم إلا حر الشمس، فرحلوا عن الوادي، ثم صلوا الصبح، أما الموضوعات والأباطيل فأمثلتها أكثر من أن يعد منها، وفي قصص الميلاد نبع فياض لها.

وقد تمحك بعض الباحثين ــ في سبيل إنكار الأعاجيب والمعجزات الحسية ـ بالسنن الكونية وإخبار القرآن أن سنة الله لن تجد لها تبديلاً، وهذا إيهام مضلل؛ لأن سنة الله التي لن تجد لها تبديلاً هي السنة الكونية بمعناها الأعم الأشمل التي تشمل السنن العامة مما يدخل في معروف العقل ومألوف العادة، والسنن الخاصة التي ترتفع فوق مستوى معروف العقول، وتختص الألوهية بالإحاطة بأسبابها وأسلوب إيجادها، فالأعاجيب الكونية والمعجزات الخارقة لمألوف العادة عند مناسباتها من سنة الله التي لن تجد لها تبديلاً.

وأدخل من هذا في الإيهام المضلل قول منكري المعجزات الكونية: إن حياة محمد ﷺ كانت كلها حياة إنسانية سامية، وإنه لم يلجأ في إثبات رسالته إلى ما لجأ إليه من سبقه من أصحاب الخوارق.

وهذا غلط أو مغالطة، أو هو من قول الحق الذي أريد به الباطل؛ لأن إنسانية حياة محمد ﷺ وسموها كلام لا يتحدث به عن محمد رسول الله ﷺ، وإنما يتحدث به عن محمد الإنسان العبقري العظيم المصلح، وما شاكل كل ذلك من كلمات وعنوانات براقة يقصد بها إلى صرف الأنظار عن خصيصة النبوة والرسالة التي ارتفع بها محمد ﷺ فوق سمو الإنسانية وكمالها، وهذه الخصيصة هي مناط عظمة النبي والرسول، وليس مناط عظمة إنسانيته السامية، لأن هذا قدر يمكن

دعوى الاشتراك فيه، لأنه مكسوب محصل وقد أبان الله ـ تعالى ـ في القرآن الحكيم عن فيصل التفرقة بين الكمال البشري والكمال النبوي بما أفاد أن الكمال النبوي مرتبط بالوحي والرسالة؛ كما قال ـ تعالى ـ ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾[فصلت:٦].

أما النبوة والرسالة فهي هبة الخالق عز شأنه وإن كانت لا توهب إلا لمن كمل له السمو الإنساني، فهي معنى زائد فوق السمو الإنساني به يفضل الأنبياء والمرسلون سائر الإنسانيين الكملة، ولأمر ما وصف ابن الدغنة سيد القارة أبا بكر الصديق رضي الله عنه ـ كما رواه البخاري ـ بما هو عين ما وصفت به خديجة أم المؤمنين ـ رضى الله عنها ـ محمدًا ﷺ، وهي نعوت وخلال كانت له ﷺ قبل نبوته ورسالته، أي أنها أوصاف إنسانية سامية تدل على الكمال في الإنسانية؛ وأن صاحبها بمعزل عن الارتكاس فيما يخدش الكمال الإنساني.

فالإنسانية السامية لا تجعل صاحبها نبيًّا ولا رسولاً، ولا تدل وحدها على أن صاحبها نبي أو رسول، ولكنها قد تجعله عبقريًا أو مصلحًا أو عظيمًا أو بطلاً، أو ما شئت من هذه النعوت التي هي أعلى ما تصل إليه الإنسانية من خصائص السمو المكسوب والكمال المفطور، ألا ترى أن محمدًا ﷺ في سمو إنسانيته قد اختاره الله لمرتبة من الكمال الروحي فوق هذا السمو الإنساني هي مرتبة النبوة والرسالة، وبقى الصديق في سموه الإنساني إنسانًا كاملاً، لك أن تقول أنه عبقري

أو مصلح أو عظيم وأنت مطمئن إلى أنك لم تنقص كماله الإنساني، ولم تخدش إنسانيته السامية، ولكنك إذا قلت عن محمد نبي الله ورسوله أنه عبقري أو مصلح أو عظيم أو بطل وأنت تضعه موضعه من الكمال الوجودي كنت مجحفًا بالحقيقة العليا في هذا الكمال، وهي حقيقة النبوة والرسالة التي يمتاز بها النبي والرسول عن سائر الكملة من بني الإنسان.

ومعاذ الله أن نقول إن إنسانية أبي بكر الصديق، أو إنسانية إنسان ما في الوجود يمكن أن تكون في ميزان واحد مع إنسانية النبي والرسول، بله إنسانية خاتم النبيين محمد ﷺ ..، ولكنا أردنا إلى أن نقول إن الصفات التي تواضع عليها الناس وجعلوها صفات الإنسانية السامية قد تكون هي صفات العبقريين والقادة والمصلحين والأبطال والعظماء من البشر، وليست هي خصيصة إنسانية الأنبياء والرسل التي هي سر الاختيار ومناط الاصطفاء في قول الله ـ تعالى ـ: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾[الأنعام:١٢٤].

فمحمد ﷺ قبل نبوته إنسان كامل كانت حياته كلها إنسانية سامية، فهو عبقري ومصلح عظيم إلى ما شاكل ذلك من نعوت الكمال الإنساني الذي يفطر عليه أو يكسبه الإنسان بوصف إنسانيته.

ولا ريب أن هذه النعوت ليست وفقًا على إنسان دون إنسان ممن أعدتهم الفطرة لها، وإن كانت الأفراد تتفاوت في مقادير التكمل فيها؛ فالذين أعدهم الله من كملة الإنسانية لتلقي فيض النبوة أكمل وأسمى إنسانية من سواه، مع التفاوت فيما بينهم: ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾[البقرة:٢٥٣].

ومحمد ﷺ بعد نبوته نبي اصطفاه الله لرسالته؛ ليخرج الناس من الظلمات إلى النور، وهذا معنى فوق السمو الإنساني، له مقومات خاصة يعجز عن اللحاق بها جميع العباقرة والقادة والمصلحين من غير الأنبياء والمرسلين، فلا مدخل لسمو إنسانية محمد ﷺ في نبوته ورسالته إلا بقدر أن هذا الكمال الوهبى لا يجيء إلا فوق كمال فطرى يزداد بالكسب والتحصيل واستقامة السلوك قبل مجيء النبوة والرسالة.

أما بعد مجيئها، فالأمر أمرها، ولا مدخل للإنسانية السامية إلا على أنها قالب يصب فيه التدبير الإلهي الأعلى.

وأما قول منكري المعجزات الحسية: أن محمدًا ﷺ لم يلجأ في إثبات رسالته إلى ما لجأ إليه من سبقه من أصحاب الخوارق، فهو إمعان في الإيهام المضلل؛ لأن الأعاجيب الكونية والخوارق المعجزة ليست مسألة كسبية يلجأ إليها الأنبياء ويحصلونها متى أرادوا وكيفما

أرادوا، وإنما هي آيات الله يجريها على يد من يشاء من عباده الذين اصطفاهم لرسالته متى شاء وكيفما شاء.

وقد جعلها الله برهانًا على صدق من أجراها على يده وأذن في التحدي بها كما يبينه قول الله ـ تعالى ـ بعد أن ذكر آيتى موسى عليه السلام: ﴿فَذَٰنِكَ بُرْهَـٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦٓ﴾ [القصص: ٣٢].

وبعضها للتشريف والتكريم وتقرير الإيمان في نفوس بعض من تمر بهم لحظات من القلق النفسي؛ لتطمئن قلوبهم وتسكن وجداناتهم كما في كثير من الآيات الكونية التي أوتيها نبينا محمد ﷺ، ولم يجعلها براهين على صدقه، ولم يتحد بها اكتفاء بالآية العظمى «القرآن» العظيم، فمن ذلك ما رواه الترمذي عن سمرة بن جندب قال: كنا مع رسول الله ﷺ نتداول في قصعة عن غدوة حتى الليل يقوم عشرة ويقعد عشرة، قلنا: فما كانت تمد؟ قال: من أي شيء تعجب؟ ما كانت تمد إلا من ها هنا، وأشار بيده إلى السماء.

وما رواه عن على بن أبي طالب قال: كنت مع النبي ﷺ بمكة فخرجنا في بعض نواحيها، فما استقبله جبل ولا شجر إلا وهو يقول: السلام عليك يا رسول الله.. وكحديث حنين الجذع الذي كان يخطب إليه النبي ﷺ، روي البخاري والترمذي واللفظ له عن أنس بن مالك

أن رسول الله ﷺ خطب إلى لزق جذع واتخذوا له منبرًا فخطب عليه فحن الجذع حنين الناقة، فنزل النبي ﷺ فمسه فسكن.

ومنه ما رواه الإمام البخاري من طريق مالك بن أنس عن إسحق ابن عبد الله بن طلحة عن أنس بن مالك قال: رأيت رسول الله ﷺ وحانت صلاة العصر والتمس الناس الوضوء فلم يجدوه، فأتى رسول الله ﷺ بوضوء، فوضع رسول الله ﷺ يده في ذلك الإناء وأمر الناس أن يتوضئوا منه، قال أنس: فرأيت الماء ينبع من تحت أصابعه، فتوضأ الناس حتى توضئوا من عند آخرهم.

وقريب من هذا ـ وهو واضح في حكمة التأليف والترغيب ـ ما رواه البخاري في صحيحه عن عمران بن حصين قال: كنا في سفر مع النبي ﷺ وذكر أنهم ناموا عن صلاة الصبح حتى علت الشمس، فارتحلوا ثم نزلوا، فصلوا مع النبي ﷺ إلا أحدهم اعتزل فلم يصل، فسأله النبي ﷺ: ما منعك يا فلان أن تصلى مع القوم؟ قال: أصابتني جنابة، ولا ماء، فقال عليك بالصعيد، فإنه يكفيك.

ثم سار النبي ﷺ فشكى إليه الناس من العطش، فنزل فدعا عليًّا وآخر معه وقال لهما: اذهبا فابتغيا الماء فانطلقا، فتلقيا امرأة بين مزادتين أو سطيحتين من ماء على بعير لها فقال لها: أين الماء؟ قالت: عهدي بالماء أمس هذه الساعة ونفرنا خلوفًا. قالا لها: انطلقي إذن.

قالت: إلى أين؟ قالا: إلى رسول الله ﷺ، قالت: الذي يقال له الصابئ. قالا: هو الذي تعنين فانطلقي، فجاءا بها إلى النبي ﷺ وحدثاه الحديث، فاستنزلها عن بعيرها ودعا النبي ﷺ بإناء ففرغ فيه من أفواه المزادتين أو السطيحتين وأوكأ أفواههما وأطلق العزالى، ونودي في الناس اسقوا واستقوا، فسقى من شاء، واستقى من شاء، وكان آخر ذاك أن أعطى الذي أصابته الجنابة إناء من ماء، وقال: اذهب فأفرغه عليك، وهي قائمة تنظر إلى ما يفعل بمائها وأيم الله لقد أقلع عنها وإنه ليخيل إلينا أنها أشد ملأة منها حين ابتدأ فيها.

فقال النبي ﷺ اجمعوا لها فجمعوا لها من بين عجوة ودقيقة وسويقة، حتى جمعوا لها طعامًا، فجعلوها في ثوب، وحملوها على بعيرها، ووضعوا الثوب بين يديها، ثم قال لها: تعلمين ما رزأنا من مائك شيئًا؛ ولكن الله هو الذي أسقانا، فأتت أهلها وقد احتبست عنهم، قالوا: ما حبسك يا فلانة؟ قالت: العجب، لقيني رجلان فذهبا بي إلى هذا الذي يقال له الصابئ ففعل كذا وكذا؛ فوالله إنه لأسحر الناس من بين هذه وهذه، تعني السماء والأرض، أو أنه لرسول الله حقًا، فكان المسلمون بعد ذلك يغيرون على من حولها من المشركين ولا يصيبون الصرم الذي هي منه. فقالت يومًا لقومها: ما أرى أن هؤلاء القوم يدعونكم عمدًا فهل لكم في الإسلام؟ فأطاعوها فدخلوا في الإسلام.

ففي هذه الآية العظيمة والأعجوبة المعجزة ما أدى إلى إدخال قوم بجملتهم إلى الإسلام، دون أن يحتاجوا إلى شيء مما يصنع مع غيرهم في قبول الدعوة والتصديق بها.

والحق أن نبينا محمدًا ﷺ كان في غنية بالقرآن الكريم - وهو معجزته الخالدة الغامرة القاهرة - عن التحدي بهذه الآيات الباهرات والأعاجيب المعجزات مع ثبوتها في جملتها ثبوتًا لا يشك فيه أهل الإيمان؛ لأنه لم يثبت بطريق قاطع أنه تحدي بحادث من هذه الحوادث العظيمة، فهي آيات تشريف له ﷺ وتنويه بذكره، وآيات تكريم لذوي الصدق من أمته، وآيات تثبيت لبعض المؤمنين، وآيات ترغيب وتأليف لبعض من في قلوبهم استعداد لقبول الهداية، ولكن عقولهم قد تقصر عن التعمق في فهم دلائل العقل ومرامي القرآن، فتجذبهم بعض هذه الآيات والأعاجيب إلى حظيرة الإيمان حتى تفيء عقولهم وأفئدتهم إلى ظل من الهداية ظليل.

روي الترمذي عن ابن عباس قال: جاء أعرابي إلى رسول الله ﷺ فقال بما أعرف أنك نبي؟ قال: إن دعوت هذا العذق من هذه النخلة أتشهد إني رسول الله؟ فدعاه رسول الله ﷺ فجعل ينزل من النخلة حتى سقط إلى النبي ﷺ، ثم قال: ارجع، فعاد، فأسلم الأعرابي، فهذا الأعرابي جاء إلى رسول الله ﷺ يطلب الإيمان والهداية، وهو إلى أعرابِيّتِهِ لابد وأن يكون النبي ﷺ قد أدرك - بما منحه الله من معرفة

صادقة لخصائص النفوس البشرية ـ أن هذا الرجل ليست لديه خصيصة التوجه إلى السمو المعنوي الذي امتاز به القرآن فكان مناط إعجازه، وإنما هو من ذوى الإحساس المادي والعقل المقيد بأغلال الحواس، فاقتضت الحكمة أن يجري معه على مقدار استعداده فأجابه إلى ما طلب، وأراه هذه الآية التي تجذبه برسن حواسه إلى التصديق؛ فصدق وأسلم، وليس ذلك من التحدي بالمعجزة؛ ولكنه ترغيب وتأليف ورفع للأشواك من طريق السالكين المتوكئين على عصا الحس والمشاهدة، وهذا الأعرابي مثل لكثير من طوائف الناس وجماعاتهم في كل عصر وجيل.

إخبار أهل الكتاب ومتحنفة العرب
بمولد محمد ﷺ وبعثته

من الأعاجيب الكونية والخوارق المعجزة التي تستند إلى روايات تاريخية صحيحة ترويها المصادر العالية من كتب الحديث والسنة ودواوين التاريخ، ويؤيدها القرآن الكريم بالإشارة إلى منابعها التي تستقى منها بشائر أهل الكتاب من اليهود والنصارى وإنباءاتهم بزمن مولده ﷺ ومبعثه، وبحثهم عن بلده وأسرته وتعرف أخباره وأحواله، والكشف عن أوصافه ونعوته اعتمادًا على ما ذكرته كتبهم المقدسة وتناقله أخلافهم عن أسلافهم من التنويه بذكره والتصريح باسمه، ودلائل وجوده وتعيين بعض خصائصه مما لا يقدم على إنكاره إلا مُمَارٍ مكابر جاحد.

وقد كان لذلك من المد والجزر في تيار الرسالة المحمدية ما سجله القرآن الحكيم في كثير من آياته البينات، ففيهم نزل قوله -تعالى-: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡرِفُونَهُۥ كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمۡۖ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنۡهُمۡ لَيَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾[البقرة:١٤٦].

فهم قبل أن يستبين لهم حظهم من رسالته كانوا يظهرون ما عندهم من دلائل وأمارات يعرفون بها أمر محمد ﷺ معرفة لا يدخلها شك، ولما طغت عليهم نزعات البغي والحسد دفعتهم إلى كل خبيثة من خبائث الفجور والغدر وكتمان ما علموا من الحق، وتحريف ما

وجدوا من الآيات إلا من عصم الله من خيرتهم الذين استجابوا لله وللرسول.

وكان جهل العرب وشظف عيشهم مما مكن لليهود في حياتهم فهم منذ نزلوا في جزيرة العرب رحلوا بين أهلها مهاجرين استطاعوا أن يقبضوا على زمام الحياة الاقتصادية والاجتماعية والدينية في يثرب، البلد الذي توطنوه مع أهله من الأوس والخزرج والذي صار فيما بعد مهاجر رسول الله ﷺ، ومركز الدعوة الإسلامية، وعاصمة الخلافة الراشدة.

كانت مكة محطًا تجاريًا للقوافل الغادية والرائحة من الجنوب إلى الشمال، ومن الشمال إلى الجنوب، ومن الشرق إلى الغرب، ومن الغرب إلى الشرق، وبهذا كانت أعظم أسواق العرب ومتاجرهم، يؤمها أكابر التجار الذين كانت لهم صلات تجارية ببلاد الشام في شمال الجزيرة وبلاد اليمن في جنوبها، وقد كان هذان القطران معترك الاستعمار الأجنبي من الفرس والرومان، يتغالبون عليه، فغلب الرومان على الشام وأدخلوا إليه المسيحية التي كانت نيران الحروب مستعرة فيما بينها وبين أشتات اليهودية القابعة في خرائب أورشليم.

فانتهز أمراء الرومان الحاقدين على اليهود لفسادهم في الأرض فرصة المسيحية الدين الجديد الذي اعتنقوه ليتخذوا منه سيفًا يقضون به على أعدائهم الأقدمين من هؤلاء اليهود المتعصبين المفسدين،

وأغروا بهم الشعب باسم الدين الجديد وهم من ورائه يمدونه بوسائل الاضطهاد والتعذيب والتقتيل، حتى شعر اليهود أنهم في طريقهم إلى الفناء المحقق، فلم يجدوا بدًّا من الهجرة إلى مأوى بعيد يأوون إليه، إبقاءً على ما بقى لهم من أثر، فهاجروا إلى أبناء عمومتهم العرب وكانت يثرب أقرب بلد وأنسبه في الجزيرة لهجرتهم لما فيها من حياة الاستقرار ووسائلها الزراعية والصناعية، واستقر بهم المقام بعيدًا عن مبعث الحماسة الدينية في مكة التي قد تحرك عليهم شرًّا أشد مما فروا منه، فحطوا بيثرب رحالهم وسرعان ما أصبحوا سادة الحياة الاقتصادية في هذا البلد العربي، وأصبح أهله أجراء عندهم وعمالاً لهم يعملون بأجور تسد منهم رمق الحياة.

وكان من الطبيعي أن تهاجر عصبية اليهود الدينية معهم إلى يثرب لأنها جزء من حياتهم، وكان من الطبيعي أن يرحلوا بتجارتهم إلى مكة أعظم أسواق العرب، ويتخذوا منها متسوقًا لتجارتهم ويقيم بها بعضهم للمضاربة والمرابحة، وكان من الطبيعي ألا يتخلوا عن شعائر دينهم، وأن يقيموها بين هؤلاء الوثنيين من العرب، وأن يتحدثوا إليهم حديثًا يهمز وثنيتهم في يسر لا يهيجهم ولا يثيرهم، ولكنه يتعالى عليهم في بعض الأمر بالتوحيد والنبوة المتوارثة في بني إسرائيل، وكان من الطبيعي أن ينقل عنهم هذا الحديث، وأن يتسمع إليه كثير من الناس بين منكر ومتعجب، ومفكر ومتأمل، وكان من الطبيعي أن تكون

قريش في مكة هي أشد المتصلين باليهود الوافدين عليها للتجارة لمكانها التجاري والديني، وهما الأمران اللذان يعنيان لليهود حيثما حلوا، وإن كانوا أعنى بالناحية التجارية لجانبها المادي الذي يأخذ على اليهود مسالك الحياة، فينظرون إليها أبدًا من زاويته ولا يتحرزون أن يجعلوا الدين وسيلة من وسائله إذا رأوا ميزان الحياة المادية يطلب إليهم ذلك.

ومن المعروف أن رؤوس تجار قريش كانوا من بني عبد مناف، ثم من بني هاشم، وكان عبد المطلب جد رسول الله ﷺ سيد بني هاشم، فكان تجار اليهود في مكة يجاورونه ويحتمون بجاهه.

قال ابن الأثير: وكان لعبد المطلب جار يهودي يقال له أذينة يتجر وله مال كثير، فغاظ ذلك حرب بن أمية، وكان نديم عبد المطلب فأغرى به فتيانًا من قريش ليقتلوه ويأخذوا ماله فقتله عامر بن عبد مناف ابن عبد الدار، وصخر بن عمرو بن كعب التيمى، فلم يعرف عبدالمطلب قاتله، فلم يزل يبحث حتى عرفهما، وإذا هما قد استجارا بحرب بن أمية، فأتى حربًا ولامه وطلبهما منه، فأخفاهما، فتغالظا في القول حتى تنافرا إلى النجاشي ، ثم إلى نفيل بن عبد العزى فنفر عبدالمطلب على حرب فترك عبد المطلب منادمة حرب وأخذ منه مائة

ناقة، فدفعها إلى ابن عم اليهودي وارتجع ماله، إلا شيئًا هلك، فغرمه من ماله.

وقد أخذت قريش عن عملائها من تجار اليهود بعض ذرائعهم في التكسب والتجارة، فشاعت فيهم المعاملات الربوية والمضاربات الفاحشة، ولكنهم تحاموا أن يسمعوا لهم في أمر الدين؛ لأنهم في وثنيتهم البليدة لا تتحرك عواطفهم إلى أمر الدين إلا من طريق عقائدهم التي تضمن لهم السيادة والشرف في حرمهم.

روي ابن كثير: أن أمية بن أبي الصلت قال في بعض أسفاره لأبي سفيان بن حرب: هل لك يا أبا سفيان في عالم من علماء النصارى إليه يتناهي علم الكتاب نسأله قال أبو سفيان قلت: لا أرب لي فيه، والله لئن حدثني بما أحب لا أثق به، ولئن حدثني بما أكره لأجدن منه، فذهب أمية وخالفه شيخ من النصارى فدخل عليَّ، فقال: ما يمنعك أن تذهب إلى هذا الشيخ؟ قلت: لست على دينه. قال: وإن، فإنك تسمع منه عجبًا وتراه. ثم قال لي: أثقفي أنت؟ قلت: لا، ولكن قرشي . قال: فما يمنعك من الشيخ، فوالله إنه ليحبكم ويوصى بكم.

لكن نفرًا قليلاً من متحنفة العرب أضراب ورقة بن نوفل، وزيد بن عمرو، وأمية بن أبي الصلت، وقس بن ساعدة، وعثمان بن الحويرث، وعبد الله بن جحش، والجارود بن المعلي، كانوا بفطرتهم وبما تلقفوه

من أفواه أهل الكتاب يتطلعون إلى السماء وينكرون بعقولهم، وبما معهم من العلم ما عليه قومهم من سخافات وثنية.

فكان قس يقف بالأسواق والمجامع، فيقول: أيها الناس إن لله دينًا هو أحب إليه من دينكم هذا الذي أنتم عليه.

وكان زيد يقول لقريش: الشاة خلقها الله وأنزل لها من السماء ماء، وأنبت لها من الأرض لم تذبحونها على غير اسم الله.

وكانوا إذا سمعوا حديث النبوة والوحي والتوحيد اشرأبت أنفسهم لتروي ظمأها الروحي في أرض قاحلة من الري العقلي، مجدبة من الغذاء السماوي، ولكن اليهود قوم متزمتون أشد التزمت في ديانتهم متعصبون أشد التعصب ليهوديتهم، لا يعنيهم إلا أن تبقى لهم، فيبقى لهم سلطانها وتراثها، فهم المنفردون في حياة أهل الديانات الذين لم يسعوا لنشر ديانتهم والدعوة إليها ولو واتتهم ألف فرصة وفرصة، فلم يعبأوا لهذا النفر المتعطش إلى التوحيد ليدخلوه في حظيرة ديانتهم.

فبقى على فطرته منهم فريق يتطلع ويترقب ويسمع، وساح في الأرض منهم فريق، فلقيته النصرانية الداعية لنفسها، فعرف منها وأنكر وهجم فريق، فادرعها وتوقف فريق حتى وافاه الأجل.

وكما غلبت المسيحية على يد الرومان اليهود بالشام، فدفعتهم إلى الهجرة والاستقرار ببلاد العرب، غلبتهم على يد الحبشة باليمن،

ولكنها هنا أفنتهم واستقرت مكانهم، حتى سلط الله عليها الفرس فشتتوا شملها، وطاردوا أهلها فانزوى جمعهم بنجران حتى أدركهم الإسلام.

لم يكن للنصارى من الأثر في الجزيرة العربية مثل ما كان لليهود؛ لأن هؤلاء كانوا على اتصال بالحياة العملية المادية في التجارة والزراعة والصناعة بقدر ما تسمح به تصاريف الحياة، وهذا الاتصال كان أداة فعالة في تأثيرهم والأخذ عنهم والاستماع إليهم، فانتشر عنهم ـ دون قصد منهم ـ شيء عن ديانتهم ولاسيما فيما كانوا يترقبونة من أحداث كونية أخبرت عنها كتبهم، وبشارات بنبي يبعث، تحدث بها أسلافهم، وأمارات ونعوت لهذا النبي روتها أسفارهم، فلما أظلهم زمانه أفصحوا عن مكنون أنفسهم، وأخبروا به علانية، وتناقلت أخباره الألسنة حتى وصل الأمر إلى المتحنفين والمعتافين والكهان، وذاعت القصص والأحاديث؛ فكان منها الصحيح الثابت، ومنها الضعيف الواهن، ومنها المكذوب الباطل.

أما النصارى فكانوا على عكس إخوانهم اليهود، فإذا كان في اليهود تزمت يرقي إلى الجمود في الدعوة الدينية ففي النصارى بحبحة واتساع، يدعون إلى دينهم ويبشرون به ويرغبون في إدخاله على من استطاعوا من جماعات الناس، وإدخال من استطاعوا إدخاله في حظيرته، بيد أنهم معتزلة منزوون في حياتهم العملية المادية، ولا شك

أن أثر الحياة العملية أقوى في تجاوب الأفكار والنحل، ومن هنا كان صوت النصرانية في بلاد العرب أخفت من صوت اليهودية، وكان النصارى فيها أضعف شأنًا من اليهود؛ ولكن ذلك لم يمنع أن تمشي المسيحية إلى بعض القلوب والأفكار، فدان بها بعض المتحنفين: كقس بن ساعدة، وورقة بن نوفل، وتحدثوا بمثل ما كان يتحدث به اليهود من البشارات والأمارات والنعوت التي ذكرتها كتبهم المقدسة، ورواها رهبانهم وقسيسوهم، وكثرت القصص والأخبار، فكان منها الثابت القوي، ومنها الزائف الضعيف.

على هذا الأساس قام هذا اللون من الروايات والقصص التي تحتل جانبًا من السيرة النبوية متصلة بأسرة محمد ﷺ، ومتصلة بحمله وميلاده، ومتصلة بحياته طفلاً وشابًا، ومتصلة به نبيًّا ورسولاً، وهنا يتحول هذا اللون إلى ذلك العنف في الجدل والحجاج، ويتحول إلى ذلك العنف في الحياة، وهنا عنى به القرآن الكريم، فقصّ في شأن اليهود كثيرًا وحكى من شأن النصارى كثيرًا، وذكر ـ في صراحة قاطعة ـ أن محمدًا ﷺ مكتوب في كتبهم بأخص أوصافه، وأنهم يجدونه فيها باسمه «أحمد»، ويجدون أصول رسالته ودعائم شريعته؛ وفي ذلك يقول القرآن الكريم واصفًا للمتقين الذين كتب لهم الله رحمته:

﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ﴾[الأعراف:١٥٧].

فالنبي الأمي الذي يجدونه مكتوبًا عندهم في التوراة والإنجيل هو محمد بن عبد الله الهاشمي القرشي سليل إسماعيل بن إبراهيم الخليل ـ عليهما السلام ـ، واليهود والنصارى يعلمون هذا علم اليقين، والقرآن جبههم بقوله ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۘ..﴾[البقرة:١٤٦].

ولا تزال أسفارهم بعد ما أحلوا بها من التحريف والتبديل تحمل بعض هذه البشارات التي يسلطون عليها فاسد التأويل، وأنت تستطيع أن تأخذ إليك سفر التثنية من أسفار التوراة فتجد فيه هذا النص (أقيم لهم نبيًّا من وسط إخوتهم مثلك واجعل كلامي في فمه فيكلمهم بكل ما أوصيه به).

فإخوة بني إسرائيل هم العرب لأن جدهما إبراهيم عليه السلام، هذا إجماع تاريخي منا ومنهم ومن جميع أهل التاريخ في أرض الله فلا سبيل للشك فيه، ووسط العرب هم قريش، ووسط قريش هاشم كما

ورد في صحيح مسلم عن واثلة بن الأسقع عن النبي ﷺ أنه قال: «إن الله اصطفي كنانة من ولد إسماعيل، واصطفي قريشًا من كنانة، واصطفي هاشمًا من قريش، واصطفاني من بني هاشم».

ولم يجيء نبي بعد موسى عليه السلام بشريعة كاملة مستقلة غير محمد - عليه الصلاة والسلام - فهو النبي المماثل لموسى الذي خوطب بهذا النص، ولا معنى للأخوة لو كان هذا النبي الموعود من بني إسرائيل كما يزعم المحرفون؛ لأنه حينئذ يكون من أنفسهم لا من إخوتهم، وجعل كلام الله في فمه كناية عن عدم تعاطى الكتابة والاعتماد على الحفظ والتلاوة، وهو معنى الأمية التي هي أخص أوصاف محمد رسول الله ﷺ، ويقول الله - تعالى - من سورة الصف:

﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ﴾ [الصف:٦].

وهذا نص صريح قاطع في أن عيسى عليه السلام بشر قومه برسالة رسول يجيء من بعده اسمه أحمد، ولم يزعم أحد قط أن اسم أحمد سمى به رسول جاء بعد عيسى عليه السلام غير خاتم النبيين محمد بن عبد الله ﷺ.

ولما كانت هذه البشارات قائمة على نصوص قاطعة صريحة في التوراة والإنجيل يعلمها أتباعهما يقينا، جعل الله هذا العلم آية على

صدق محمد ﷺ في رسالته فقال ـ تعالى ـ: ﴿أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُاْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾[الشعراء:١٩٧].

فكان علم أهل الكتاب بصدق رسالة محمد؛ لوجود نعته واسمه في كتبهم آية للمشركين على إثبات رسالته.

ومن هنا كانت الإنباءات التي ترويها المصادر المعتبرة بروايات صحيحة عن بعض الأحبار والرهبان، وما نقله عنهم المتحنفة والمتباعدون عن زمن ميلاد النبي ﷺ وعن نعته وبعض خصائصه واسمه وبلده وبعثه ومهجره، وما يلقي من قومه وما يتم به أمره من قبيل الآيات والأعاجيب التي أشار إليها القرآن وتأيدت بروايات صحيحة، فهي من الآيات التي لا ترد ولا يتسلط عليها التأويل، ويجري مجراها ما ماثلها من الأخبار التي صاحبت حياة النبي ﷺ في أطواره المتعددة، ولاسيما بعد البعثة، ذلك الوقت الذي تنبهت فيه عند اليهود حاسة المحافظة على البقاء نتيجة لتنبه الوعى القومي عند أصحاب الوطن الأصلاء من عرب الأوس والخزرج الذين استغلهم اليهود واستغلوا وطنهم استغلالاً اقتصاديًّا أنزلهم فيه منزلة التابع الأجير، فلما لم يجدهم إيقاد نيران الفتن بينهم والسعي بالإفساد أرادوا أن يستغلوا هذه الظاهرة الدينية التي ينفردون بها ظاهرة الإخبار عن نبي يبعث، وأن زمانه قد اقترب، وأنه يدعو إلى التوحيد، ويحارب الوثنية

والـوثنيين، وأنهـم ينتظرونـه ليؤمنـوا بـه، ويكونـوا في صـفه ويكـون في صفهم إلبًا على هؤلاء العرب الـوثنيين يقتلـونهم معـه، وبـدأوا ينشـرون هذه البشارات ويذيعون أخبار النبي ﷺ.

روي البيهقي وأبو نعيم عـن حسـان بـن ثابـت قـال: إني لغـلام ابـن سبع سنين أو ثمـان أعقـل مـا رأيـت وسـمعت إذا بيهـودي يصـرخ ذات غداة يا معشر يهود، فاجتمعوا إليه ـ وأنا أسمع ـ فقـالوا: ويلـك مـا لـك؟ قال قد طلع نجم أحمد الذي يولد به في هذه الليلة.

وروي الحافظ أبو نعيم في دلائـل النبـوة عـن مالـك بـن سـنان قـال: جئت عبد الأشهل يومًا؛ لأتحـدث فـيهم ونحـن في هدنـة مـن الحـرب، فسمعت يوشع اليهودي يقول: أظل خروج نبي يقـال لـه أحمـد يخـرج من الحرم. فقال له خليفة بن ثعلبة الأَشهلي كالمستهزئ به: مـا صـفته؟ فقال رجـل لـيس بالقصير ولا بالطويـل في عينيـه حمـرة يلـبس الشـملة، ويركـب البعيـر، سـيفه علـى عاتقـه، وهـذا البلـد مهـاجره. قـال مالـك: فرجعت إلى قـومي بنـي خـدرة وأنـا يومئـذ أتعجـب ممـا يقـول يوشـع، فأسـمع رجـلاً منـا يقـول: ويوشـع يقـول هـذا وحـده؟ كـل يهـود يثـرب يقولـون هـذا.. قـال مالـك بـن سـنان: فخرجـت حتـى جئـت بنـي قريظـة فأجد جمعًا فتذاكروا النبي ﷺ فقال الزبير بن باطـا: قـد طلـع الكوكـب

الأحمر، الذي لم يطلع إلا لخروج نبي أو ظهوره، ولم يبق أحد إلا أحمد، وهذا مهاجره.

وروي ابن سعد عن عائشة ـ أم المؤمنين ـ بسند حسنه الحافظ ابن حجر في شرح البخاري أنها قالت: كان يهودي قد سكن مكة فلما كانت الليلة التي ولد فيها رسول الله ﷺ قال: يا معشر قريش هل ولد فيكم الليلة مولود؟ قالوا: لا نعلم. قال: انظروا فإنه ولد في هذه الليلة نبي هذه الأمة أحمد الآخر، بين كتفيه علامة، فانصرفوا فسألوا، فقيل لهم: ولد لعبد الله بن عبد المطلب غلام فسماه جده محمدًا، فالتقوا بعد من يومهم فأتوا اليهودي في منزله، فقالوا علمت أنه ولد فينا مولود؟ قال: أبعد خبرى أم قبله؟ قالوا: بل قبله، قال: فاذهبوا بنا إليه. فخرجوا معه حتى دخلوا على أمه، فأخرجته إليهم فرأي الشامة في ظهره، فغشى على اليهودي ثم أفاق فقالوا: ويلك، مالك؟ قال: ذهبت النبوة من بني إسرائيل وخرج الكتاب من أيديهم، وهذا مكتوب، يقتلهم وبين أحبارهم فازت العرب بالنبوة، أفرحتم يا معشر قريش، أما والله ليسطون بكم سطوة يخرج نبؤها من المشرق إلى المغرب.

وروي ـ أيضًا ـ عن عامر بن ربيعة قال: سمعت زيد بن عمرو بن نفيل «يقول: أنا أنتظر نبيًّا من ولد إسماعيل، ثم من بني عبد المطلب ولا أرإني أدركه وأنا أومن به وأصدقه، وأشهد أنه نبي فإن طالت بك مدة فرأيته فأقرئه مني السلام، وسأخبرك ما نعته، حتى لا يخفي عليك.

قلت: هلم. قال: هو رجل ليس بالطويل ولا بالقصير ولا بكثير الشعر ولا بقليله، وليست تفارق عينه حمرة، وخاتم النبوة بين كتفيه، واسمه أحمد، وهذا البلد مولده ومبعثه، ثم يخرجه قومه منها ويكرهون ما جاء به حتى يهاجر إلى يثرب فيظهر أمره، فإياك أن تخدع عنه، فإني طفت البلاد كلها أطلب دين إبراهيم فكل من أسأل من اليهود والنصارى والمجوس يقولون هذا الدين وراءك وينعتونه ما نعته لك، ويقولون: لم يبق نبي غيره.. قال عامر: فلما أسلمت أخبرت رسول الله ﷺ قول زيد بن عمرو وأقرأته منه السلام فرد عليه السلام ورحم عليه، وقال قد رأيته في الجنة يسحب ذيولاً.

وروي الطبراني والبيهقي في محادثة طويلة بين أمية بن أبي الصلت وأبي سفيان بن حرب، قال أمية: جئت هذا العالم (راهبًا نصرانيًا) فسألته عن أشياء، ثم قلت: أخبرنى عن هذا النبي الذي ينتظر؟ قال: هو رجل من العرب، قلت: قد علمت أنه من العرب، فمن أي العرب هو؟ قال: من أهل بيت تحجه العرب، قلت: وفينا بيت تحجه العرب قال: هو من إخوتكم من قريش، فأصابني والله شيء ما أصابني مثله قط، وخرج من يدي فوز الدنيا والآخرة، وكنت أرجو أن أكون إياه.

قال أبو سفيان: فإذا كان ما كان فصفه لي، قال: رجل شاب حين دخل في الكهولة، بدو أمره يجتنب المظالم والمحارم، ويصل الرحم،

ويأمر بصلتها، وهو محوج كريم الطرفين، متوسط في العشيرة، أكثر جنده من الملائكة.

قال أبو سفيان: فقدمنا مكة فقضيت ما كان معي، ثم انطلقت حتى جئت اليمن تاجرًا، فكنت بها خمسة أشهر ثم قدمت مكة، فبينا أنا في منزلى جاءنى الناس يسلمون عليَّ، ويسألون عن بضائعهم حتى جاءنى محمد بن عبد الله وهند عندي تلاعب صبيانها، فسلم على ورحب بي، وسألني عن سفرى ومقامى ولم يسألني عن بضاعته، ثم قام، فقلت لهند والله إن هذا ليعجبني ما من أحد من قريش له بضاعة إلا وقد سألني عنها وما سألني هذا عن بضاعته، فقالت لي هند: أو ما علمت شأنه؟ فقلت وأنا فزع: ما شأنه؟ قالت: يزعم أنه رسول الله فقذفتنى وتذكرت قول النصراني؛ فرجفت حتى قالت لي هند: مالك؟ فانتبهت، فقلت: إن هذا لهو الباطل، لهو أعقل من أن يقول هذا. قالت: بلى والله إنه ليقولن ذلك ويدعو إليه، وإن له لصحابة على دينه. فقلت: هذا هو الباطل قال: وخرجت فبينا أنا أطوف البيت إذ بي قد لقيته فقلت له: إن بضاعتك قد بلغت كذا وكذا وكان فيها خير، فأرسل من يأخذها ولست بآخذ منك فيها ما آخذ من قومي فأبي عليَّ. وقال: إذن لا آخذها، قلت: فأرسل فخذها وأنا آخذ منك مثل ما آخذ من قومي. فأرسل إلى بضاعته، فأخذها، وأخذت منه ما كنت آخذ من غيره.

قال أبو سفيان: فلم أنشب أن خرجت إلى اليمن، ثم قدمت الطائف فنزلت على أمية بن أبي الصلت، فقال لي: يا أبا سفيان قلت: ما تشاء؟ قال: هل تذكر قول النصراني؟ قلت: أذكره، وقد كان، فقال: ومن؟ قلت: محمد بن عبد الله، قال: ابن عبد المطلب؟ قلت: ابن عبدالمطلب، ثم قصصت عليه خبر هند، قال: الله يعلم، وأخذ يتصبب عرقًا، ثم قال: يا أبا سفيان لعله، إن صفته لهي ولئن ظهر وأنا حي لأطلبن من الله ـ عز وجل ـ في نصره عذرًا.

قال أبو سفيان: ومضيت إلى اليمن فلم أنشب أن جاءني هنالك استهلاله، وأقبلت حتى نزلت على أمية بن أبي الصلت بالطائف، فقلت: يا أبا عثمان قد كان من أمر الرجل ما قد بلغك وسمعته فقال: قد كان لعمري، فقلت: فأين أنت منه يا أبا عثمان؟ فقال: والله ما كنت لأومن برسول من غير ثقيف أبدًا.. قال أبو سفيان: وأقبلت إلى مكة، فوالله ما أنا ببعيد حتى جئت مكة، فوجدت أصحابه يضربون ويحقرون، فجعلت أقول: فأين جنده من الملائكة؟ فدخلني ما يدخل الناس من النفاسة.

وكان النبي ﷺ يذكر أمية بن أبي الصلت ويستنشد شعره لما فيه من دلائل التوحيد والثناء على الله ـ تعالى ـ روي مسلم والإمام أحمد عن عمرو بن الشريد عن أبيه قال: كنت ردفًا لرسول الله ﷺ فقال لي: أمعك من شعر أمية بن أبي الصلت شيء؟ قلت: نعم. قال: فأنشدني،

فأنشدته بيتًا، فلم يزل يقول لي كلما أنشدته بيتًا إيه حتى أنشدته مائة بيت، ثم قال رسول الله ﷺ: «إن كاد يسلم».

ويحدثنا ابن سعد في طبقاته عن بعض الأنصار أن يهود بني قريظة كانوا يدرسون ذكر رسول الله ﷺ في كتبهم، ويعلمونه الولدان بصفته واسمه ومهاجره إلينا، فلما ظهر رسول الله ﷺ حسدوا وبغوا، وقالوا: ليس به.

وكان المشركون يرون أن أهل الكتاب أعلم بهذا الشأن فكانوا يسألونهم، وكان هؤلاء يخبرون بما عندهم.. روي ابن سعد عن أبي عباس قال: بعثت قريش النضر بن الحارث بن علقة، وعقبة بن أبي معيط وغيرهما إلى يهود يثرب، وقالوا لهم: سلوهم عن محمد، فقدموا المدينة فقالوا: أتيناكم لأمر حدث فينا، منا غلام يتيم فقير يقول قولاً عظيمًا، يزعم أنه رسول الرحمن، ولا نعرف الرحمن إلا رحمن اليمامة. قالوا: صفوا لنا صفته، فوصفوا لهم، قالوا: فمن تبعه منكم؟ قالوا: سفلتنا، فضحك حبر منهم، وقال: هذا النبي الذي نجد نعته، ونجد قومه أشد الناس له عداوة.

وقال ابن إسحاق: وكانت الأحبار من يهود، والرهبان من النصارى، والكهان من العرب قد تحدثوا بأمر سول الله ﷺ قبل مبعثه لما تقارب من زمانه، أما الأحبار من يهود والرهبان من ا لنصارى فعمّا

وجدوا في كتبهم من صفته وصفة زمانه، وما كان من عهد أنبيائهم إليهم فيه.

ثم بين ابن إسحاق عن جماعة من الأنصار ما كان يتحدث به يهود يثرب عن رسول الله ﷺ وسبب بغيهم وحسدهم وإنكارهم ما كانوا يعلنونه ويتدارسونه من ذكره، فقال: وحدثني عصام بن عمرو بن قتادة عن رجال من قومه، قالوا: إن مما دعانا إلى الإسلام مع رحمة الله وهداه لما كنا نسمع من رجال يهود، كنا أهل شرك أصحاب أوثان، وكانوا أهل كتاب عندهم علم ليس لنا، وكانت لا تزال بيننا وبينهم شرور، فإذا نلنا منهم بعض ما يكرهون قالوا لنا: إنه قد تقارب زمان نبي يبعث الآن نقتلكم معه قتل عاد وإرم، فكنا كثيرًا ما نسمع منهم ذلك، فلما بعث الله رسوله ﷺ أجبنا حين دعانا إلى الله ـ تعالى ـ وعرفنا ما كانوا يتوعدوننا به فبادرناهم إليه، فآمنا به وكفروا به ففينا وفيهم نزل هؤلاء الآيات من البقرة: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُواْ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾[البقرة:٨٩].

هذا قليل من كثير من الروايات التي روتها كتب الدلائل النبوية، ورواها بعض كتب الحديث والسنة، وقد اخترنا منها وتحرينا ما وسعنا التحري أن نتحامى الروايات التي يدخلها التزيد ويحوكها الخيال،

فليس من الإنصاف التاريخي أن تهدر هذه الكثرة الغامرة من الروايات في هذا الجانب من السيرة النبوية تحت تأثير الإيهام بمعروف العقول وقضايا العلم وحكم المنطق ومتعارف سنن الحياة، وفرغنا من مناقشة هذا الإيهام في صدر بحث الأعاجيب الكونية والخوارق المعجزة، وأقمنا بذلك أصلاً نرد إليه ما يعرض في طريق البحث منها.

محمد في المهد

رضاعـــــه ﷺ

كان لموت عبد الله بن عبد المطلب أبي محمد ﷺ في رحلته التي خرج إليها تاجرًا وهو في مقتبل شبابه بُعيد حادث الذبح وبنائه بزوجه آمنة بنت وهب أم محمد ﷺ أثر من الحزن الفادح والألم الممض على نفس أبيه الشيخ الذي أفنت السنون جلده وناء بأثقالها، فلما بشر بميلاد حفيده محمد ﷺ صب به صبابته بأبيه من قبله، وكان أبو محمد ﷺ عبد الله أحب أبناء عبد المطلب إليه، وحظي محمد ﷺ عند جده حظوة لم تكن لأحد من ولده.

فأخذه من مهده بين يديه وطاف به حول الكعبة يباركه ويدعو له، ويستعذب النظر إليه في حنان الأبوة الثاكلة، ثم رده إلى أمه وعاد إلى مكانه في ظل البنية المقدسة يفكر ويقدر ويطلب له المراضع في نساء البوادي على عادة سكان المدن والقرى من العرب في استرضاع أولادهم في البادية اتقاءً لِوَخامةِ المدن ووضر الحواضر، وتخريجًا في التعرب والتفاصح؛ وانتجاعًا لجو البادية صحة، وانطلاقًا مع مظاهر الطبيعة في الأرض والسماء.

وكانت المرضعات يردن مكة في المواسم تطلبًا للرضع الذين يؤملن فيهم جدة وسعة من العطاء، وكان في قبائل العرب وبيوتاتهم

بيوت وقبائل عرفت بخصب الدر ونقاء الجو، وصفاء الطبيعة، وفصاحة اللهجة، ونصاعة البيان، ونقاء المربى، منهم بنو سعد بن بكر من قبيلة هوازن المعروفة بتعربها وفصاحتها، فلما ورد نساؤها مكة، عرض عليهن فيمن عرض من الرضع محمد بن عبد الله ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ فأقبلن على غيره، وأعرضن عنه، لأنهن عرفن أنه يتيم، وكن يرتجين وسيع العطايا وغامر المنح من آباء الأطفال.

وكان في نساء بني سعد السيدة حليمة بنت عبد الله بن الحارث، ويظهر أنها كانت أرقهن حالاً، فلم يرغب فيها آباء الأطفال وذووهم، وأصاب صواحباتها طلبتهن من الرضع وبقي محمد ﷺ بغير مرضع، وبقيت حليمة بغير رضيع، وعرض عليها فجعلت تقول: يتيم ولا مال له، وما عست أمه أن تفعل.

وهنا نترك الرواية التاريخية تحدثنا على لسان حليمة بما اتفق عليه الرواة أو قريب منه.. روي ابن إسحاق بسنده عن جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه قال: حدثت عن حليمة بنت الحارث أنها قالت: قدمت مكة في نسوة من بني سعد نلتمس بها الرضعاء في سنة شهباء[1] فقدمت على أتان لي قمراء[2] كانت أذمت

(١) سنة شهباء: لا خضرة، أو لا مطر بها.
(٢) أتان قمراء: هو من القمرة: لون إلى الخضرة، أو بياض تشوبه كدرة.

بالركب[١] ومعي صبي لنا وشارف[٢] لنا والله ما تبض[٣] بقطرة وما ننام ليلتنا أجمع من صبينا ذاك، ما نجد في ثديي ما يغنيه ولا في شارفنا ما يغذيه، ولكنا كنا نرجو الغيث والفرج.

فخرجت على أتاني تلك، فلقد أذمت بالركب حتى شق ذلك عليهم ضعفًا وعجفًا، فقدمنا مكة، فوالله ما علمت منا امرأة وإلا وقد عرض عليها رسول الله ﷺ فتأباه إذا قيل أنه يتيم تركناه، قلنا: ماذا عسى أن تصنع إلينا أمه؟ إنما نرجو المعروف من أبي الولد، فأما أمه فماذا عسى أن تصنع إلينا، فوالله ما بقى من صواحبي امرأة إلا أخذت رضيعًا غيري، فلما لم نجد غيره وأجمعنا الانطلاق قلت لزوجي الحارث بن عبد العزي: والله إني لأكره أن أرجع من بين صواحبي ليس معي رضيع، لأنطلقن إلى ذلك اليتيم فلآخذنه، فقال: لا عليك أن تفعلي فعسى أن يجعل الله لنا فيه بركة.

فذهبت فأخذته فوالله ما أخذته إلا إني لم أجد غيره، فما هو إلا أن أخذته فجئت به رحلي فأقبل عليه ثدياى بما يشاء من لبن، فشرب حتى روي وشرب أخوه (ولدها) حتى روي، وقام صاحبى إلى شارفنا تلك

---

(١) أذمت بالركب: حبستهم لإعيائها وانقطاع سيرها، قال في اللسان: وفي حديث حليمة السعدية: فخرجت على أتانى تلك، فلقد أذمت بالركب أي: حبستهم؛ لانقطاع سيرها.

(٢) الشارف: الناقة المسنة الهرمة.

(٣) هو من قولهم بض الماء، يبض إذا سال قليلاً.

فإذا إنها لحافل تحلب ما شرب وشربت حتى روينا، فبتنا بخير ليلة، فقال صاحبى حين أصبحنا: يا حليمة والله إني لأراك قد أخذت نسمة مباركة، ألم ترى ما بتنا به الليلة من الخير والبركة حين أخذناه.

فلم يزل الله ـ تعالى ـ يزيدنا خيرًا ثم خرجنا راجعين إلى بلادنا، فوالله لقطعت أتانى بالركب حتى ما يتعلق بها حمار، حتى إن صواحبى ليقلن ويلك يا بنت أبي ذؤيب؟ هذه أتانك التي خرجت عليها معنا؟ فأقول: نعم والله إنها لهي، فقلن والله إن لها شأنًا حتى قدمنا أرض بني سعد، وما أعلم أرضًا من أرض الله أجدب منها، فإن كانت غنمي لتسرح ثم تروح شباعًا لبنًا فنحلب ما شئنا وما حوالينا أحد تبض له شاة بقطرة لبن، وإن أغنامهم لتروح جياعًا، حتى إنهم يقولون لرعاتهم: ويحكم انظروا حيث تسرح غنم بنت أبي ذؤيب فاسرحوا معهم، فيسرحون مع غنمي حيث تسرح فتروح أغنامهم جياعًا ما فيها قطرة لبن وتروح أغنامي شباعًا لبنًا نحلب ما شئنا.

فلم يزل الله يرينا البركة نتعرفها حتى بلغ سنتين فكان يشب شبابًا لا يشبه الغلمان، فوالله ما بلغ السنتين حتى كان غلامًا جفرًا[1]، فقدمنا

---

(١) الجفر: الذي استغنى عن الرضاع وقوى على الأكل: وقد ساق ابن منظور في اللسان هذا الحديث فقال: وفي حديث حليمة ظئر النبى ﷺ قالت: كان يشب في اليوم شباب الصبى في الشهر فبلغ ستًا وهو جفر، ثم قال: والجفر: الصبى إذا انتفخ لحمه وأكل وصارت له كرش، ويلاحظ أن في رواية ابن منظور مخالفة لرواية ابن إسحاق في تقدير الزمن.

به على أمه، ونحن أضن شيء به مما رأينا فيه من البركة، فلما رأته أمه قلت لها: دعينا نرجع بابننا هذه السنة الأخرى، فإنا نخشى عليه وباء مكة، فوالله ما زلنا بها حتى قالت: نعم فأقمنا به شهرين أو ثلاثة.

وفي رواية ابن سعد أن أمه آمنة هي التي طلبت رده معهم خشية عليه من وباء مكة، ويظهر أنه ليس بين الروايتين اختلاف حقيقي؛ لاحتمال أن تكون حليمة قدمت به على أمه زائرة فرأت صبابة أمه به فخافت أن تحبسه عنها، وقد استوفى أقصي أمد الرضاع، فعجلت بطلب رده معها؛ لتطمئن فوجدت من أمه رغبة في رده معهم.

قال ابن سعد: قال محمد بن عمر (الواقدي) عن أصحابه: مكث عندهم سنتين حتى فطم وكأنه ابن أربع سنين، فقدموا به على أمه زائرين لها، وأخبرتها حليمة خبره وما رأوا من بركته فقالت آمنة: ارجعى بابني فإني أخاف عليه وباء مكة، فوالله ليكونن له شأن، فرجعت به.

وحكى ابن كثير رواية فيها غرابة قال: ذكر أن عبد المطلب أمر ابنه عبد الله أن يأخذه فيطوف به في أحياء العرب ليتخذ له مرضعة فطاف حتى استأجر حليمة على رضاعه، وأقام عندها ست سنين تزيره جده في كل عام.

وغرابة هذه الرواية لما فيها من أن أبا رسول الله ﷺ كان موجودًا حين ميلاده، وأنه هو الذي استرضعه في بني سعد واستأجر له حليمة،

وهي رواية لا تتفق إلا مع رواية أن أباه عاش حتى بلغ رسول الله ﷺ من عمره سبعة أشهر أو ثمانية وعشرين شهرًا على ما ذكرناه سابقًا، وهما روايتان ضعيفتان، والرواية الثانية: أن أباه توفي وهو جنين في بطن أمه، وهو قول جمهور المؤرخين ومؤلفي السيرة.

وذكر ابن سعد وغيره أن ظئره حليمة رأت بعد أن رجعت به إلى باديتها، وكانت لا تدعه يذهب بعيدًا عنها، غمامة تظله إذا وقف وقفت، وإذا سار سارت فأفزعها ذلك من أمره؛ فقدمت به على أمه لترده إليها، وهو ابن خمس سنين فأضلها في الناس فالتمسته فلم تجده، فأتت عبد المطلب فأخبرته فالتمسه عبد المطلب فلم يجده، وجعل ينشده بأبيات من الشعر فوجده ورقة بن نوفل ورجل آخر من قريش، فأتيا به جده فأخذه على عاتقه، وذهب فطاف به يعوذه ويدعو له، ثم رده إلى أمه آمنة.

وذكر ابن سعد ـ أيضًا ـ أن جماعة من اليهود مروا على ظئره حليمة ـ وكانت أمه آمنة قد أخبرتها ببعض شأنه وأوصتها بحفظه والحرص عليه ـ فقالت لهم: ألا تحدثونى عن ابني هذا، فإني حملته كذا ووضعته كذا، ورأيت كذا كما وصفت أمه، فقال بعضهم لبعض اقتلوه، فقالوا: أيتيم هو؟ فقالت حليمة: لا، هذا أبوه وأنا أمه، فقالوا: لو كان يتيمًا لقتلناه، فذهبت به حليمة، وقالت: كدت أخرب أمانتي.

وكان عمه حمزة مسترضعًا معه في بني سعد عند امرأة أخرى غير

ظئر رسول الله ﷺ.. قال ابن سعد: كان حمزة بن عبد المطلب رضيع رسول الله ﷺ، أرضعتهما امرأة من العرب كان حمزة مسترضعًا له عند قوم من بني سعد بن بكر، وكانت أم حمزة قد أرضعت رسول الله ﷺ يومًا وهو عند أمه حليمة، وقد سبق أن ثويبة جارية أبي لهب أرضعتهما وأبا سلمة فهما أخوا رسول الله ﷺ من الرضاع بلبن ثويبة، ويزيد حمزة لبن السعدية.

هذه هي قصة رضاعه ﷺ في جملة رواياتها التي ترويها كتب السيرة، ولا يكاد كتاب منها يخلو عن طرف من أطرافها حتى قال ابن كثير في تاريخه بعد أن روي حديث ابن إسحاق الذي صدرنا به وهو أجمعها وأوفاها وعليه معول جمهرة المؤرخين: وهذا الحديث قد روي من طرق أخر، وهو من الأحاديث المشهورة المتداولة بين أهل السير والمغازي.

وليس في القصة على النهج الذي سقناها فيه ما يباعد بينها وبين الواقع التاريخي، فاسترضاع السادة من أهل الحواضر والمدن أبناءهم في البوادي، ووفود نساء البادية لأخذ الرضع، يرتجين الخير وسعة العطاء من آبائهم، وإحجامهن عن يتيم لم يعرف ثراؤه، واندفاع حليمة إلى أخذه بعد أن لم تجد رضيعًا غيره ترجع به مع صواحبها، وظهور البركة في دار حليمة وغنمها وشارفها، وشبابه شبابًا ممتازًا في صحته

ونموه عن لداته، وأقرانه من الأطفال والغلمان، ورده إلى أمه لزيارتها، وحرص ظئره على بقائه عندها لما رأت فيه من البركة والخير، وحرص أمه على رده مع ظئره إلى البادية خشية عليه من وباء مكة التي تغص في المواسم بالوافدين عليها من الأصحاء والمرضي، وعناية أهل الكتاب من اليهود بشأنه وتطلبهم له، وحرص ظئره حليمة على تعرف أحواله، بعد حديث أمه معها عنه وعن مشاهداتها في أيام حمله وحين ولادته، وفراستها في أنه سيكون لابنها شأن، ومساءلة حليمة اليهود عنه، وكتمها يتمه، لتنجو به من غدرتهم التي انتووها، كل أولئك من الأمور التي لا ينكرها الواقع، ولا تأباها سنن الحياة العامة.

ومن هنا نقول: إن هذه الصورة لمهد محمد ﷺ ورضاعه صورة فطرية إنسانية مكملة لتلك الصورة الفطرية التي صورت حمله وميلاده تصويرًا تاريخيًا، وكما كان وراء تلك الصورة صورة أخرى مصنوعة لا تعرفها الفطرة الإنسانية، ولا توائم السنن العامة للحياة؛ فكذلك وراء صورة مهده ورضاعه صورة لهما مليئة بالأعاجيب الكونية والخوارق المعجزة، والفيصل في قبول هذه الخوارق هو ما أصلناه من النظر الممحص في سندها وصحة رواياتها، فإذا استقام لها ذلك قبلناها على أنها أثر من آثار القدرة الإلهية القاهرة، يكرم الله بها عبده ورسوله ﷺ كرامة تشريف.

تحقيق قصة شق صدره ﷺ

شق الصدر من الإنسان، وإخراج قلبه الحسى المعروف في التكوين الجسمى للإنسان بأنه لحمة صنوبرية الشكل في داخل القفص الصدري، وسط مائلاً إلى الجهة اليسرى قليلاً في الأعم الأغلب، وتتصل به مفاتيح الحركة الدموية ومغاليقها، وقنواتها، ثم فتح هذا القلب فتحًا ماديًا حسيًّا، وإخراج علقة دموية منه، وغسله بالماء، ثم إعادته إلى مكانه بعد خياطته، وخياطة الصدر، والتئامه مع بقاء الحياة الإنسانية بعد ذلك كله، كانت أمورًا تأباها قوانين الحياة العامة، وتنكرها معارف العقول، وتردها أبسط قضايا العلم وبدائة المنطق في تاريخ الحياة.

فإذا وقعت وشهدتها الحياة الوجودية كانت ـ من غير شك ـ جارية على غير ما عرفته العقول من سنن الحياة، وعلى غير ما عرفه العلم التجريبي في قوانين الحياة، بل تكون جارية على سنن خاصة خارقة لمتعارف العقول، متخطية قضايا العلم في تجاربه الحسية.

وهذه السنن الخاصة لا ينكرها العقل، لأنه دائب البحث في أسرار الكون وسنن الله فيه، ولا يزال يكشف عن كثير من هذه الأسرار والسنن مما كان يجهله، ولم يقف هذا العقل عند هذه القضايا العلمية المعروفة له باعتبارها نهايات لمدركاته، ولم يؤمن بأنها هي الغاية

لجولاته في الكون المحجب بسحائب الغيب؛ بل هو مؤمن أشد الإيمان أن وراء ما وصل إليه من حقائق أمورًا كثيرة لم تكشف له وهو دائب العمل في سبيل إدراك المجهول من حقائق الكون وسنن الله المنظمة لوجوده.

والراسخون من العلماء يرون أن ما وصلوا إليه إنما هو قطرة من محيط العجائب الكونية والسنن الإلهية، ولم يدع أحد منهم أن العقل يستطيع أن يصل إلى مجهول الأسرار جميعها في هذا الكون العظيم.

وجيلنا اليوم، وهو في آخر القرن الرابع عشر الهجري، وآخر القرن العشرين الميلادي، يشهد أعمالاً في طب الجراحة وزرع الأعضاء الداخلية والخارجية في جسم الإنسان وسائر الحيوان، كانت في الماضي من المحالات في نظر العقل والعلم، ولا نذكر هذا لنفسر به المعجزات الإلهية التي يجريها الله ـ تعالى ـ على مقتضى سننه الخاصة تكريمًا لأنبيائه ورسله؛ لأن شأن هذه المعجزات أن تجري على مقتضى سنن إلهية خاصة تختلف في أسلوبها وحقائقها مع أسلوب وحقائق السنن الإلهية العامة وكلها من عند الله.

ومن ثم كان وقوع هذا الحدث الخطير لمحمد ﷺ من أعجب الأعاجيب الكونية، وأعظم خوارق السنن العامة، وأضخم الآيات الحسية التي تحيلها عادات الناس ومألوفاتهم وتستبعدها العقول بالنظر

لمعارفها من سنن الحياة العامة المتكررة، وبالنظر إلى قضايا العلم التجريبي.

ومجرد إحالة العادة المألوفة للناس في مجرى حياتهم العامة، ومجرد استبعاد العقول المقيدة بأغلال الحس والحواس، وسنن الحياة العامة المكررة لا يكفي للحكم بعدم الوقوع، وتبقى المسألة في دائرة الإمكان، مستندة إلى سلطان القدرة الإلهية والإرادة الربانية التي لا تتقيد بسنن الحياة العامة، ومعروف العقول، وقضايا العلم؛ لأن الله ـ تعالى ـ الذي خلق هذه السنن العامة لنظام الحياة، وأوصل العقول إلى معارفها، وهداها إلى قضايا العلم، هو الذي يخلق سننًا خاصة لأحداث خاصة يجريها في أوقاتها ومناسباتها.

فليس من العدل العلمي، ولا من الإنصاف العقلي تحكيم متعارف العقول، وقضايا العلم، ومألوف الناس في عاداتهم وتجاربهم في سنن الله، وتقييدها بما عرف من قضايا تجريبية أو معارف عقلية.

ولو حكم متعارف العقول ومألوف العادات في فهم سنن الله تحكيمًا مطلقًا لبطلت أصول الديانات السماوية؛ لأن العادات، ومتعارف العقول، وقوانين المنطق الإنساني لا تدرك حقيقة النبوة فتحيلها بصورتها الدينية؛ لأن النبوة قائمة على الوحي، وهو معنى لم تحدد حقيقته بغير الاتصال البشري بالملأ الأعلى الذي هو غيب مطلق

في حقيقته، وطريق الاتصال به من قبل البشر، واتصاله بالبشر، وكل ما يعرفه العلم (الديني) عن الوحي أن يتم باتصال فرد من البشر يصطفيه الله لنبوته، بروح علوي تسميه الشرائع السماوية (ملكًا) وهو أمر يجهل العقل الإنساني حقيقته، وفي هذا الاتصال تتلقي الشخصية البشرية عن هذا الروح العلوي أمورًا من قبل الله ـ تعالى ـ هي شرائعه التي يتعبد بها خلقه.

وهنا يتساءل العقل الإنساني، كيف يتصل فرد من البشر بما فيه من خصائص البشرية (بملك) بما له من خصائص الملكوتية؟ وكيف يتلقى عنه ما يبلغه عن الله ـ تعالى ـ؟ ثم يتساءل العقل مرة أخرى، كيف يتلقى الملك عن الله ـ عز وجل ـ ما يؤديه إلى آحاد البشر؟.

ولا ريب أن العقل سيقف أمام هذا التساؤل في جانبيه حائرًا، لا يحير جوابًا يطمئن إليه في حدود معارفه وقضايا علمه وأقيسة منطقه، ولا يخرجه من هذه الحيرة إلا التسليم والإقرار بأنه ليس من حقه أن يرفض جميع ما لم يعلم، ولا جميع ما لم يفهم؛ لأنه أمام نفسه يعلم أنه لم يحط خبرًا بكل ما يمكن أن يعلم، وأن ما يجهله من سنن الكون أكثر بكثير مما علمه.

وإذا انتهي العقل إلى هذا الموقف وجب عليه أن يسلم بقوة القدرة الإلهية على الخلق والإبداع، واتساع سنن الله ـ تعالى ـ في الكون بما

يستطيع أن يصل إليه من البراهين القاطعة على قهر القدرة لقوانين الطبيعة، وما وصل إليه العلم والعقل من سنن الحياة في الكون، وأن يسلم مطلق تصرفاتها؛ ليسهل عليه الإيمان بما صح الإخبار به من أحداث لم تجر على مقتضى معروف من العلم، وإنما جرت على مقتضى نمطٍ خاصٍ في سنن الله ـ تعالى ـ.

فالتقيد بحكم العادة المتكررة ومتعارف العقول، وقضايا العلم هادم لجميع أصول الديانات السماوية، فالذين يتشبثون بهذا التقيد في فهم حقائق الأحداث الكونية يجعلون من معارف العقل وقضايا العلم حواجز أمام فهم سنن الله ـ تعالى ـ في الكون، وهم عندئذ بين أمرين: إما إيمان ينتهي بهم إلى التسليم بالعجز عن إدراك بعض الحقائق الكونية التي جاءت بها الأديان السماوية بأخبار ثابتة الصحة عن طريق الرواية، وإما إلحاد ينكر جاحدًا أصل الديانات الإلهية، فلا يبقى في نظرهم بين الحقائق الوجودية نبوة ولا رسالة من الله إلى الخلق، وهذا ما انتهي إليه ملاحدة الماديين.

وجميع المؤمنين بالديانات السماوية، عامتهم وخاصتهم يطمئنون إلى أن هذا اللون من العجز هو محض الإيمان الذي يأخذ بصاحبه إلى ساحة رضا الله ـ تعالى ـ وهو ـ في حقيقته ـ تكريم للعلم والعقل.

ورد ما يعتاص فهمه على العقول من الأحداث لعدم جريه على مقتضى معارف العقل، وقضايا العلم إلى سلطان القدرة الإلهية في الخلق والإبداع، وإلى الإيمان بأن الله -تعالى -يفعل في ملكه ما يشاء كما يشاء هو نهج القرآن الكريم، ففي قصة زكريا عليه السلام حينما بشر بأن الله -تعالى -سيرزقه غلامًا، وكان قد بلغ من الكبر سن اليبس والجفاف، الذي لا يكون معه ولادة وإنجاب، وكانت امرأته عقيمًا لا تلد، فتعجب من أمر نفسه أن يخرج منه ومن زوجه ولد؛ وهما على حالهما التي لا يظهر فيها سبب قريب أو بعيد لإخراج الولد منهما، وعبر عن تعجبه بما حكاه الله عنه في قوله: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا﴾[مريم:٨] فجذبه الله من دائرة الأسباب والتقيد بالسنن العامة إلى حظيرة الإطلاق والسنن الخاصة، فقال له: ﴿كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ﴾[آل عمران:٤٠] أي شأن الله في الإيجاد والإبداع فوق الأسباب ومتعارف العقول والعادات، وكيف تقيده الأسباب والسنن؛ وهو خالقها ومبدعها؟.

فقدرته -تعالى -على إبراز الأحداث من الغيب إلى الوجود العيني لا تتقيد بأسباب جرت بها السنن العامة في نظام الكون؛ لأن وراء هذه

الأسباب والسنن العامة أسبابًا وسننًا خاصة يفعل بها ما يشاء كما يشاء متى شاء، ولذلك زاد نبيه زكريا تلطفًا في جذبه إلى حظيرة الإطلاق، فنبهه إلى ما هو أعظم من إيجاد الولد منه ومن زوجه؛ وهما على حالهما من البعد عن الإنجاب فقال له ﴿هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا﴾[مريم:٩].

وفي قصة مريم ـ عليها السلام ـ حينما بشرت بالولد من غير أب عجبت من أمر نفسها أن تأتي بولد، وليس لها زوج يكون منه الولد في مجرى العادة ومتعارف العقول، وعبرت عن عجبها بما حكى الله عنها: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ﴾[آل عمران:٤٧].

فنبهها الله ـ تعالى ـ إلى مطالع جلاله وعظيم قدرته، حتى لا تقف مع الأسباب والسنن العامة ومتعارف العقول ومجريات العادة، فقال لها: ﴿كَذَٰلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾[آل عمران:٤٧] أي: أن شأن الله ـ تعالى ـ ألا تتقيد قدرته في إيجاد ما يشاء بما تعرفه العقول وتعهده العادات من أسباب، وإنما مرد أمره في الخلق والإبداع إلى قضائه، فإذا قضى الأمر كان ما قضاه بكلمته وحكمته:

﴿إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾[آل عمران:٤٧].

وفي قصة إبراهيم عليه السلام وزوجه أم إسحاق عليه السلام لما بشر بالولد من زوجه العجوز العقيم، وهو شيخ كبير عتا عن الإنجاب، عجبت امرأته من أمرها وأمر زوجها فرحة ضاحكة من شدة سرورها بالبشري، وقالت معبرة عن عجبها لوقوفها آنئذ مع الأسباب والسنن العامة: ﴿ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ﴾[هود:٧٢].

فنبهها الملائكة المبشرون إلى أن هذا الإنعام من أمر الله الذي لا يتقيد بظواهر الأسباب، ولا ينبغي التعجب من أمر الله؛ لأن أمره - جل شأنه - فوق الأسباب والسنن العامة، ومتعارف العقول، ومجارى العادات في الكون؛ لأن الله - تعالى - يفعل ما يريد.

فعلى الذين يؤلهون العقل، ويتعبدون لمعارفه، ويجمدون مع متكرر العادات أن يكفكفوا من غلوائه في تفسير الأحداث الكونية في الإنسان وفي غيره من سائر الموجودات فما اتضح لهم تفسيره واطمأنوا إليه قبلوه - بحمد الله - وإن لم يتضح لهم تفسير بعض الأحداث لاذوا بالتواضع العلمي، ووضعوا نصب أعينهم هذا القانون الإلهي المعبر عن أصدق ما وصل إليه العقل والعلم، وما يمكن أن يصلا إليه: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾[الإسراء:٨٥].

وهم يعلمون أن العقل والعلم عجزا عن تفسير كثير من الحقائق الكونية، وهما دائبان على البحث وراءها، عساهما يصلان إلى شيء مما عجزا عنه.

وحسب الباحثين أن يقفوا مع العقل والعلم في أوج توثباتهما الفكرية والتجريبي؛ ليعلموا ـ إن كان هناك وسيلة للعلم ـ ما شأن الحياة بأعم معانيها في الكون؟ وماذا بلغ العقل والعلم من الكشف عن حقيقتها ما هي؟ وما كنهها؟ والحياة بها كل شيء في الوجود، أو هي كل شيء، فإذا كان العقل والعلم لم يصلا إلى معرفة حقيقتها في عمومها، ولم يصلا إلى حقيقتها في الإنسان خاصة، فكيف يعطي العقل والعلم حق التحكم في تفسير الأحداث الدينية التي تستند إلى أمور غيبية لا تزال محجبة عنهما.

إن العلم والعقل لهما مكانتهما التي لا تجحد، وبهما تتقدم الحياة نحو الكشف عن المجهول، وعلى المتعصبين بالعلم والعقل أن يسيروا معهما في حدود مبلغ أمرهما، دون أن يتجاوزوا بهما طبيعتهما في تفسير الأحداث.

ونكرر ما قدمنا أن الفيصل في قبول ما يروي من أحداث كونية، وأعاجيب دينية خارقة لنواميس السنن العامة في الكون مما جرى على أيدي أنبياء الله ورسله، هو صحة الرواية، صحة لا تتعرض لطعن في

النقل أو تجريح في السند، ثم بعد ذلك وجوب التسليم بما صح الإخبار به، ورد إبداعه إلى الله ـ تعالى ـ وعظيم قدرته وبالغ حكمته.

وقصة شق صدر محمد ﷺ سبيلها سبيل هذه الأحداث الكونية الدينية فما شأن الروايات التي تحدثت بها؟وما مكانها من الاعتبار عند أهل النقد والتمحيص؟.

تروي هذه القصة في كتب السير والمغازي، ودواوين الحديث والسنة، وكتب التاريخ والطبقات بروايات مختلفة في زمنها ومكانها، وطريقة وقوعها، والحالة التي وقعت بها.

ويشبه أن تكون كتب السير متفقة على رواية محمد بن إسحاق عن ظئر رسول الله ﷺ حليمة السعدية التي سقنا طرفًا منها عند الحديث عن رضاعه ﷺ وفيها تتابع حليمة الحديث فتقول ـ كما في رواية الطبري وابن هشام، وابن الأثير، وابن كثير ـ: فرجعنا به فوالله إنه بعد مقدمنا به بأشهر مع أخيه في بُهْمٍ لنا خلف بيوتنا، إذْ أتانا أخوه يشتد فقال لي ولأبيه: ذاك أخي القرشي قد جاءه رجلان عليهما ثياب بياض، فأضجعاه وشقا بطنه وهما يسوطانه، فخرجت أنا وأبوه، نشتد فوجدناه قائمًا منتقعًا وجهه، فالتزمته والتزمه أبوه، وقلنا له: مالك يا بني؟ قال: جاءنى رجلان عليهما ثياب بياض فأضجعاني فشقا بطني، فالتمسا فيه شيئًا لا أدرى ما هو.

قالت حليمة: فرجعنا إلى خبائنا، وقال لي أبوه: والله يا حليمة لقد خشيت أن يكون هذا الغلام قد أصيب فألحقيه بأهله قبل أن يظهر به ذلك، فاحتملناه فقدمنا به على أمه، فقالت: ما أقدمك به يا ظئر وقد كنت حريصة عليه وعلى مكثه عندك؟ فقلت: قد بلغ الله بابني وقضيت الذي عليَّ وتخوفت الأحداث عليه، فأديته إليك كما تحبين. قالت: ما هذا بشأنك فاصدقيني خبرك. قالت حليمة: فلم تدعني حتى أخبرتها الخبر. قالت: قد تخوفت عليه الشيطان؟ فقلت: نعم. قالت: كلا والله ما للشيطان عليه سبيل، وإن لبني لشأنًا.

هذه الرواية ساقها بنصها الإمام ابن كثير في تاريخه، وهو مؤرخ ناقد ممحص وقد عقب عليها كما قدمنا بقوله: وهذا الحديث قد روي من طرق أخر، وهو من الأحاديث المشهورة المتداولة بين أهل السير والمغازي وليس هذا التعقيب تصحيحًا فنيًا، فالشهرة والتداول بين أهل السير والمغازي ليست عنوانًا على صحة الحديث فنيًا، وكتب السيرة والمغازي لم توصف عند أهل الشأن بالصحة وربما كان أمرها عندهم أخف في درجات القبول لما فيها من الجمع بين الغث والسمين، والصحيح والسقيم، والقوى والضعيف، وطريق تمييز هذا من ذاك هو الرجوع إلى كتب الحديث المعتبرة، وأقاويل رجال النقد في رواة الحديث وسنده، وقبل ذلك لا يصح الحكم على ما فيها والأخذ به أو رفضه ورده.

وذا هو محمد بن إسحاق صاحب هذه الرواية المشهورة المتداولة يروي من طريق آخر كما تنقله عنه المصادر المتقدمة نفسها، فيقول: حدثني ثور بن يزيد عن خالد بن معدان عن أصحاب رسول الله ﷺ أنهم قالوا له: أخبرنا عن نفسك؟ قال: نعم أنا دعوة أبي إبراهيم، وبشري عيسى ـ عليهما السلام ـ ورأت أمي حين حملت بي، أنه خرج منها نور أضاءت له قصور الشام، واسترضعتُ في بني سعد بن بكر، فبينا أنا في بُهْمٍ لنا أتاني رجلان عليهما ثياب بيض معهما طست من ذهب مملوء ثلجًا فأضجعاني فشقا بطني، ثم استخرجا قلبي فشقاه، فأخرجا منه علقة سوداء فألقياها، ثم غسلا قلبى وبطني بذلك الثلج، حتى إذا أنقياه رداه كما كان، ثم قال أحدهما لصاحبه زنه بعشرة من أمته فوزنني بعشرة فوزنتهم، ثم قال: زنه بمائة من أمته فوزننى بمائة فوزنتهم، ثم قال: زنه بألف من أمته فوزنني بألف فوزنتهم، فقال دعه عنك فلو وزنته بأمته لوزنهم.. قال ابن كثير معقبًا على هذه الرواية: وهذا إسناد جيد قوي.

وإذا كان هذا إسنادًا جيدًا قويًا، فالرواية به رواية جيدة قوية، وهي لا تختلف عن الرواية المشهورة المتداولة في أصل وقوع قصة شق الصدر بصورة معجزة خارقة لجميع ما عرف الناس من سنن الحياة العامة، فهي عاضدة للرواية المشهورة، وتزيد هذه الرواية أنها حديث مرفوع، يحدث به النبي ﷺ عن نفسه.

ومن مجموعهما نرى أن شق الصدر الشريف كان حادثًا واقعيًّا شهده الوجود بصورته المعجزة في بادية بني سعد؛ وأنه كان في أول أدوار طفولية محمد ﷺ، وهو عند ظئره.. والرواية المشهورة أوضح في ذلك؛ لأنها صرحت أنه ﷺ ذهبت به ظئره لزيارة أمه بعد اكتمال رضاعه في سنتين، وأنها استردته معها فرد، وبعد رده بأشهر وقع حادث شق الصدر، فهو على اليقين بالنظر لهذه الرواية كان في أوائل العام الثالث من عمره ﷺ، وقد ذكر القسطلاني في المواهب أن القصة وقعت بعد مقدم ظئره به راجعة من عند أمه بشهر أو ثلاثة.

وما في الروايتين من اختلاف وراء ذلك فهو اختلاف الإجمال والتفصيل، وليس بضار شيئًا في جوهر الموضوع.

وقد جاءت قصة الشق في رواية مطولة جدًّا من حديث شداد بن أوس رواها أبو نعيم في الدلائل، ورواها الطبري في التاريخ، والقسطلاني في المواهب وجمع غيرهم، وقد نقد هذه الرواية ابن كثير من جهة سندها فقال: وقد روي أبو نعيم الحافظ في الدلائل من طريق عمر بن الصبح هذه القصة مطولة جدًّا، ولكن عمر بن صبح هذا متروك كذاب متهم بالوضع؛ فلهذا لم نذكر لفظ الحديث إذ لا يفرح به.

وقد جاءت القصة ـ أيضًا ـ في حديث رواه أبو نعيم والإمام أحمد وصححه الحاكم: عن عتبة بن عبد الله أن رجلاً سأل النبي ﷺ فقال: كيف كان أول شأنك يا رسول الله؟ قال: كانت حاضنتي من بني سعد ابن بكر فانطلقت أنا وابن لها في بُهْمٍ لنا ولم نأخذ معنا زادًا، فقلت: يا أخي اذهب فأتنا بزاد من عند أمنا فانطلق أخي، ومكثت عند البُهْم فأقبل طائران أبيضان كأنهما نسران، فقال أحدهما لصاحبه: أهو هو؟ قال: نعم، فأقبلا يبتدراني فأخذاني فبطحاني للقفا، فشقا بطني، ثم استخرجا قلبي فشقاه، فأخرجا منه عالقتين سوداوين فقال أحدهما لصاحبه: ائتني بماء ثلج، فغسلا به جوفي، ثم قال: أئتني بالسكينة، فذراها في قلبي، ثم قال أحدهما لصاحبه: خطه فخاطه، وختم على قلبي بخاتم النبوة، فقال أحدهما لصاحبه: اجعله في كفة واجعل ألفا من أمته في كفة، فإذا أنا أنظر إلى الألف فوقى أشفق أن يخر عليَّ بعضهم فقال: لو أن أمته وزنت به لمال بهم، ثم انطلقا فتركاني وفرقت فرقًا شديدًا، ثم انطلقت إلى أمي فأخبرتها بالذي لقيت، فأشفقت أن يكون قد لبس بي فقالت: أعيذك بالله، فرحلت بعيرًا لها وحملتنى على الرحل، وركبت خلفي حتى بلغنا إلى أمي، فقالت: أديت أمانتي وذمتي وحدثتها بالذي لقيت فلم يرعها، وقالت: إني رأيت خرج مني نور أضاءت منه قصور الشام.

وهذه الرواية تتفق مع الروايتين السابقتين في جوهر الواقعة، وهو أنه ﷺ شق بطنه وأخرج منه قلبه فشق وغسل ثم أعيد وخيط عليه وختم بخاتم النبوة، وذلك في أول طفوليته وهو عند ظئره في بادية بني سعد بن بكر.

وتختلف معهما فيما حكته من أنه ﷺ هو الذي ذهب إلى ظئره وقد فرق مما وقع له فرقًا شديدًا حتى خشي أن يكون قد لبس عليه فسكنت ظئره روعه وأعاذته بالله مما أشفق على نفسه منه.

وأما الروايتان السابقتان فلم تعرض إحداهما لهذا؛ ولعله من باب الاختصار، وعرضت له الرواية المشهورة فذكرت أن الذي ذهب فأخبر أمه هو أخوه من الرضاع، وأن ظئره هي التي خافت عليه وردته إلى أمه بمكة.

قال ابن كثير: وثبت في صحيح مسلم من طريق حماد بن سلمة عن ثابت عن أنس بن مالك: أن رسول الله ﷺ أتاه جبريل عليه السلام وهو يلعب مع الغلمان، فأخذه فصرعه، فشق عن قلبه، فاستخرج القلب، واستخرج منه علقة سوداء، فقال: هذا حظ الشيطان، ثم غسله في طست من ذهب بماء زمزم، ثم لَأَمَهُ، ثم أعاده في مكانه، وجاء الغلمان يسعون إلى أمه ـ يعني ظئره ـ فقالوا: إن محمدًا قد قتل، فاستقبلوه وهو منتقع اللون. قال أنس: وقد كنت أرى أثر ذلك المخيط في صدره.

هذه رواية ارتفعت عن جميع ما سبقها من جهة علو السند وصحته وقوته، فحسبك بمصدرها أحد الصحيحين، وحسبك برواتها أنهم ممن اتفق على توثيقهم والرواية عنهم الشيخان البخاري ومسلم، فلا سبيل إلى التشكيك في وقوع القصة بعدها. وهي واضحة في أن القصة وقعت والنبي ﷺ في طفوليته يلعب مع الغلمان عند ظئره في بادية بني سعد.

وروي عبد الله بن أحمد بن حنبل في زوائده على مسند أبيه عن أبي هريرة قال: يا رسول الله ما أول ما ابتدئت به من أمر النبوة؟ قال: إني لفي صحراء أمشى ابن عشر حجج إذ أنا برجلين فوق رأسي يقول أحدهما لصاحبه أهو هو؟ قال: نعم فأخذاني فألصقاني لحلاوة القفا، ثم شقا بطني وكان أحدهما يختلف بالماء في طست من ذهب، والآخر يغسل جوفي، فقال أحدهما لصاحبه: افلق صدره، فإذا صدري فيما أرى مفلوق، لا أجد له وجعًا، ثم قال: اشقق قلبه، فشق قلبي، فقال: أخرج الغلّ والحسد منه، فأخرج شبه العلقة فنهذ به، ثم قال: أدخل الرأفة والرحمة قلبه، فأدخل شيئًا كهيئة الفضة، ثم أخرج ذرورًا كان معه فذر عليه، ثم نقر إبهامي، ثم قال: أغد، فرجعت بما لم أغد به من رحمتي للصغير ورقتي على الكبير.

وفي هذه الرواية مخالفة جوهرية في الزمن والسن التي كان عليها محمد ﷺ وقت وقوع القصة، فهي صريحة في أنها وقعت وسنه عشر

سنوات، ولم يقل أحد أنه كان وهو في هذه السن لا يزال في بادية بني سعد؛ فالصحراء المذكورة هنا هي غير صحراء السعديين الذين كان مسترضعًا فيهم، فالمخالفة بين هذه الرواية والروايات السابقة في الزمان والمكان، ومن ثم جزم بعض العلماء بتعدد القصة.

ومن الروايات المحددة لسنه ﷺ وقت وقوع القصة رواية الواقدي عن أصحابه، كما يرويها تلميذه محمد بن سعد في الطبقات قال: مكث عندهم ـ بني سعد ـ سنتين فقدموا به على أمه زائرين لها وأخبرتها حليمة خبره وما رأوا من بركته فقالت آمنة ارجعي بابني فإني أخاف عليه وباء مكة، فوالله ليكونن له شأن، فرجعت به، ولما بلغ أربع سنين كان يغدو مع أخيه وأخته في البُهْم قريبًا من الحى، فأتاه الملكان هناك فشقا بطنه، واستخرجا علقة سوداء، فطرحاها وغسلا بطنه بماء الثلج في طست من ذهب، ثم وزن بألف من أمته فوزنهم، فقال أحدهما للآخر دعه فلو وزن بأمته كلها لوزنهم، وجاء أخوه يصيح بأمه: أدركي أخي القرشي، فخرجت أمه تعدو ومعها أبوه فيجدان رسول الله ﷺ منتقع اللون، فنزلت به إلى آمنة بنت وهب وأخبرتها خبره، وقالت: إنا لا نرده إلا على جدع أنفنا، ثم رجعت به ـ أيضًا ـ فكان عندها سنة أو نحوها لا تدعه يذهب مكانًا بعيدًا.

فهـذه الروايـة تخـالف سـابقتها في تعيـين سـن محمـد ﷺ وقـت حدوث شق الصدر بأربع سنوات، وتجعله متصلاً بقصة رضاعه في بني سعد، وتجعل باديتهم مكانًا للقصة، فهي موافقة للرواية المشهورة المتداولة فيما عدا تعيين السن.. فالرواية المشهورة حددته بسنتين وأشـهر، وروايـة زوائـد المسـند حددتـه بعشـر سـنين، وهـذه بـأربع سنوات.

وقد وقف العلماء عند هذا الاختلاف بعد اطمئنانهم إلى سلامة السند في الروايات التي سقناها أن يدخله طعن ينزل بواحدة منها إلى الوضع والكذب، ولكنها تنتهي إلى درجة من الصحة والحسن متفاوتة القوة، فرجح فريق منهم بعض الروايات على بعض، وجزم بأن القصة وقعت مرة واحدة في طفولية محمد ﷺ، وإلى ذلك جنح القاضي عياض، وهو إمام ضليع الإمامة في الحديث والسيرة، ومعرفة الأسانيد، وعارضه الإمام السهيلى مرتضيًا أن القصة وقعت مرتين.

قال ابن حجر في الفتح: وهو الصواب، ولعل مرد ذلك ما في الروايات من اختلاف جوهرى في زمن القصة ومكانها، مع عدم ضعف السند ضعفًا يقتضى إهداره وطرحه.. وإلى تعدد القصة أكثر من مرة مال القسطلاني في المواهب، فقال: وهذا الشق روي أنه وقع له ـ عليه الصلاة والسلام ـ مرات في حال طفوليته إرهاصًا، وتقدم المعجزة على زمان البعثة جائز للإرهاص.

هذه الروايات والنقول والأقاويل كلها تدور على أساس أن شق الصدر وقع له ﷺ قبل بعثته بالرسالة، وأن ذلك كان في طفوليته فيما بين السنة الثالثة إلى السنة العاشرة من عمره المبارك، وأصح ما في ذلك وأحراه بالقبول رواية صحيح مسلم، وهي على إجمالها واضحة في إثبات القصة ثبوتًا لا يعتريه ريب ولا لبس، وواضحة في أن ذلك كان إرهاصًا معجزًا، ولا يكون كذلك إلا إذا كان في حال اليقظة على الطريقة التي لا تبقى معها حياة في العادة ومتعارف الناس.

غير أن بعض الروايات جاءت فيها ألفاظ ربما كانت مشعرة بأن الأمر في القصة لم يخرج عن كونه رؤيا منام رآها رسول الله ﷺ، فقد جاء في رواية ابن عساكر من حديث عروة بن الزبير عن أبي ذر الغفاري قال: قلت: يا رسول الله كيف علمت أنك نبي حين علمت ذلك واستيقنت أنك نبي؟ قال: «يا أبا ذر أتاني ملكان وأنا ببعض بطحاء مكة» وساق الحديث حتى ذكر شق الصدر وخياطته، وجعل الخاتم بين كتفيه، إلى أن قال النبي ﷺ: «فما هو إلا أن ولّيَا عنيِّ فكأنما أعاين الأمر معاينة».

فهذا ظاهر في أن الأمر لم يكن معاينة محققة، ولكنه كان شبيهًا بالمعاينة من جهة وعيه جميع ما جرى له وعدم ذهاب شيء عن وعيه منه، وفي هذه الرواية تعيين لمكان القصة، وأنها كانت ببعض بطحاء

مكة؛ ولذلك ذهب بعض العلماء إلى أن هذه قصة أخرى غير قصة بادية بني سعد التي اتفق عليها الرواة، ولعل هذه كانت في مبدأ النبوة، وكان أول ما بدئ به ﷺ الرؤيا الصادقة، فتكون من هذا القبيل.

وليس لهذه الكلمة الواردة في هذه الرواية قوة رد جميع الروايات المتقدمة بما فيها رواية مسلم، وكلها صريحة في أن القصة وقعت وقوعًا ماديًّا في اليقظة من قبيل الإرهاص والإعجاز.

على أن مكان العناية في الأمر أن شق الصدر معجزة من معجزات محمد ﷺ التي لم يقصد بها إلى التحدي ولم تجعل برهانًا على إثبات الرسالة، وأن النبي ﷺ لم يخبر بها إلا جوابًا لسائل، وهذا القدر ثابت في روايات توشك لكثرتها أن تجعل الحادث متواتر الحديث تواترًا معنويًا.

ومما يجزم الشك ويرفع الاشتباه ويزيل الالتباس ما رواه البخاري في حديث الإسراء عن أنس بن مالك قال: كان أبو ذر يحدث أن رسول الله ﷺ قال: فرج عن سقف بيتي وأنا بمكة فنزل جبريل ففرج صدري ثم غسله بماء زمزم، ثم جاء بطست من ذهب ممتلئ حكمة وإيمانًا فأفرغه في صدري ثم أطبقه، وهذا يطابق في المعنى حديث أبي ذر المتقدم.

وقد تكلم العلماء فأوسعوا في شرح ألفاظ القصة، وذكروا حكمتها وحكمة كل فعل جرى فيها من الغسل بماء زمزم أو غيره، ونزع العلقة، وذر السكينة، وإدخال الإيمان والحكمة والرأفة والرحمة، بما لا يدع مجالاً لمؤمن في التوقف عن قبول القصة والإيمان بها.

ولا عبرة بعدم اطمئنان المستشرقين وجماعة من الباحثين المعاصرين إلى القصة ووقوعها، فلو لم يكن في رواياتها إلا رواية الشيخين: البخاري ومسلم؛ لكانت في أعلى مراتب الصحة من ناحية السند، وأما غمز القصة بطفولية النبي ﷺ واستعظام ما حدث به على سنه في الرواية، فهذا من قبيل الإيهام المضلل؛ لأن تحديد السن لم تتفق عليه الروايات، على أننا نسأل عبيد الاستشراق والمستشرقين: ما قولكم في رواية البخاري وهي صريحة في أن القصة وقعت بعد النبوة ليلة الإسراء؟ والحديث معكم في وقوع القصة لا في زمانها ومكانها؛ لأن ذلك تحقيق تاريخي لا يضير البحث ألا تؤمنوا به، وكيف يستعظم تحدثه ﷺ على سنه، والأمر كله من قبيل الإعجاز؟ على أن تحدثه كان وهو نبي رسول، إذ سئل من بعض أصحابه، فأجاب بما جاء في الرواية.

والذي يعنى البحث أن قصة شق الصدر حادث كوني ومعجزة عجيبة وقعت لنبينا محمد ﷺ وجاءتنا بها الروايات الصحيحة الثابتة، ولا يردها تشكيك مستشرق ولا مستغرب، ولم يتخذ منها النبي ﷺ

آية للتحدي والبرهنة على صدق رسالته كغيرها من المعجزات الكونية والخوارق العجيبة قبل البعثة أو بعدها، ونحن نعلم أن هذا اللون من الآيات المعجزة لو لم يذكر في سيرة نبينا محمد ﷺ لم ينقص من جلالها شيئًا، وأن معجزته العظمى الخالدة التي حملت بين طواياها التحدي بها هي القرآن العظيم، ولكن حقائق التاريخ يجب أن يرتفع بها البحث إلى قدس الحق بعيدًا عن التعصب الحقود والتقليد الأبله، والتأثر بالنزعات المجافية لطبيعة الدين والإيمان به.

وعلى الذين يؤرخون لمحمد ﷺ ويكتبون في سيرته أن يجعلوا نصب أعينه أن محمدًا ﷺ نبي من أنبياء الله ورسول من رسل الله، وأن عظمته في نبوته ورسالته، لا في عبقريته وبطولته، فهو بالنبوة والرسالة قد سما على العبقرية والبطولة؛ وإنما فضله على إخوانه الأنبياء والمرسلين بما منحه الله ـ تعالى ـ من فضل في شريعته التي ختم الله الشرائع بها، وجعلها جامعة لجميع ما جاءت به الشرائع المتقدمة من خير وإصلاح وتهذيب مع زيادة ما يقتضيه تقدم الإنسانية في تفكيرها وعقلها وروحها وضميرها.

ولعل هذا هو ما أشار إليه القرآن الكريم بعد أن ذكر أولي العزم من الرسل في آية ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ [الأنعام: ٨٣] فقال تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ۗ﴾ [الأنعام:

٩٠] فهدى الجميع هدى لمحمد ﷺ، فهو الجامع لما تفرق في جميع الأنبياء والمرسلين من الفضائل والمحامد، وإليه ينتهي خبرهم وفي شريعته تنطوى شرائعهم، فهي خاتمة الشرائع، وهو خاتم النبيين، وإمام المرسلين.

محمد ﷺ في طفوليته

لعل التصور المقارب للواقع التاريخي يستطيع أن يسعف القلم؛ ليرسم صورة موجزة مقاربة لمطلع حياة طفولية نهدت في لفائف اليتم لأكرم من ضمه مهد في حياة البشرية، حتى يستشف البحث من وراء ذلك حقائق الوجود الواقعي في مشهد الحياة لهذه الشخصية الكريمة.

تولي الله أمر محمد ﷺ منذ أول لحظة حظي فيها الوجود بإشراق طلعته، فنشأه تنشئة جمع له فيها خصائص الفطرة الإنسانية في أعلى مراتبها وأرفع درجاتها فلم يكله إلى أب يكفله ويربيه وللأبوة أثرها على الطفولة وتوجيهها في الحياة؛ ومن ثم كان فقد محمد ﷺ أباه قبل أن ينسم نسيم الوجود في هذه الدنيا العريضة نعمة من أجل نعم الله، فهو لم يشهد أباه، ولم يعرف عنه وعن شمائله وأخلاقه وعاداته ووسائله في عيشه إلا ما حدثته به أمه عنه في طفولته، وهي كسيرة القلب حزينة الفؤاد لفراق ذلك الزوج الحبيب والأب الكريم.

ومحمد ﷺ يوم أن عقل هذا الحديث وتصور منه صورة أبيه كان قد أخذ سمتًا في الحياة لا تغيره الأحاديث، ولا تؤثر فيه الصور الذهنية المركبة من مجموعة قصص عمن كان، إلا كما يؤثر بريق التاريخ اللامع في توجيه أمة تكنفها عناصر الحياة بدوافعها الحية المتدفقة، وأي أثر لهذا البريق غير الإعجاب بالماضى الذي ذهب ولن يعود؟.

ولد محمد ﷺ يتيمًا، لم يستشعر عطف الأبوة يفيض به قلب والد فطره الله ـ كغيره من الوالدين ـ على لون من الحنان لم يعطه الله غير قلوب الوالدين، وللطفولة إلهام تقرأ آياته في نظراتها الحالمة، وبسماتها الساهمة، وفي هذا الإلهام ضرب من الإدراك الخافت الذي يلمس به الطفل حنان الأبوة وعطفها، فترسم على فمه بسمة صادقة وعلى عينيه نظرة صافية صفاء الفطرة الخالية من الرسوم والأصداء، ولقد ارتسمت على فم محمد ﷺ تلك البسمة الصادقة وطافت بعينيه تلك النظرة الصافية، ونظرت إليه أمه آمنة بنت وهب، وكانت قريبة عهد بفراق زوجها الحبيب، فجدد نظرها في نفسها حزنًا مبرحًا وألمًا كظيمًا، فرأت على ثغره ابتسامة متوهجة وفي عينيه تطلع إلى السماء.

ولعل خيالها المصور أسعفها فأراها في وجه ولدها المحبوب وجه والده الحبيب، وتنازعتها عاطفتان: عاطفة الوالدة وقد أشرق عليها وجه وليدها وقرة عينها، وعاطفة الزوجة فقدت زوجها الحبيب، ولكنها تتمثله وترى وجهه في وجه هذا الوليد الحبيب، وتغلبت عاطفة الأمومة الحانية على عاطفة الزوجة الودود، وضمت آمنة وليدها إلى صدرها، واختلطت عليها الأحاسيس واستنار وجهها وحن ثديها فأرضعت ابنها، فكان لبنها أول غذاء غذي به ونمت عليه خلاياه، ثم تناولته بين يديها ثويبة أم مسروح جارية عمه أبي لهب فألقمته ثديها، فرضع منه ما شاء من ري وشبع، وظل بين أمه وظئره الأولي مدة لم

يذكر التاريخ تحديدها حتى أهلَّ على مكة موسم المراضع فقدم السعديات إليها يطلبن الرضع وفيهن حليمة بنت الحارث فكان محمد ﷺ نصيبها، وكانت هي من حظه وحملته، وارتحلت به إلى باديتها، وكان الصدر الذي يضمه ليس صدر آمنة أمه، ولكنه صدر حليمة ظئره وفرق كبير بين العاطفتين: عاطفة الأمومة الوالدة، وعاطفة الأمومة المرضعة، فحرم حنان أمه بعد أن مضى القدر فحرمه عطف أبيه.

ذلك لون من اليتم الجديد، قضت به العادات المتوارثة فيما بين العرب، فهو ﷺ قد حرم عاطفة الأبوة المشفقة، وبوعد من عاطفة الأمومة الحانية، ونشأ بعيدًا عن بلده وقومه، وبلده حاضرة البلاد العربية، لها من طبيعة الحواضر ما يسمها «بميسم اللين والدعة»، وقومه أهل شرف وسيادة في بلده، وللشرف والسيادة آثارهما على الأخلاق والتطبع وتوجيه الغرائز والسلوك.

نشأ في بادية بين قوم من العرب عرفوا بصفاء البيان، وفصاحة اللسن، ضاق عيشهم وعصفتهم السنون، يعيشون في بادية ضاحية الأديم تصهرها الشمس إذا أسفرت، وتتلألأ في سماء لياليها النجوم الزواهر، ويضيئها القمر المنير، ويزمجر في أرجائها الرعد، ويلمع في آفاقها البرق، وتهدر في ودیانها العواصف، وتطبعها الحياة بطابع قاس متقلب، تنتشر على صفحتها هنا وهناك خيام يأوي إليها فئام من الناس إذا هجع الليل، أو هجر النهار، يسرحون بالبهم يرتادون لها المراعي،

وظلال الشجر وعيون المياه ومجاري الوديان ومجتمع الأنهار والغدر، ومساقط الغيث ومنابت الكلأ، وذلك هو كل ما يشغل أهل البيئة، وفيما سواه فراغ لا يملأه من العمل كثير ولا قليل.

فهي بيئة تدعو إلى التأمل والتفكر، وتقليب النظر في ملكوت الله ـ تعالى ـ ومظاهر الوجود، ما وراء هذا الفضاء الأفيح؟ وما هذه القبة الزرقاء؟ وما هذه السابحات المتلألئات في أديمها؟ وما هذا الجرم الفضي الذي يبعث على هذه الأرض بأنواره المظلة بنسائم الأسحار؟ وما هذا اللهب المنبعث مع خيوط الضياء الوهاج من هذا الجرم النهاري السابح في آفاق السماء؟.

وما الذي يمسك ذلك ويدبره على هذا النظام المحكم البديع؟ وما هذا الصوت الهائل المزعج الذي يصحب دائمًا الغيث مبشرًا أو نذيرًا؟ وما هذا الضوء الخاطف بلمعانه في أطراف السماء؟ وما هذه العواصف المزمجرة؟ وما الذي يهيجها ويحركها؟ وما هذه النباتات والأشجار في أشكالها وألوانها وروائحها وطعومها؟ من أين جاءت وكيف نبتت ثم ما أنا؟ ومن أنا؟ ومن أين جئت؟ وإلى أين أذهب؟ ثم ما هذه الحياة؟ وما هذا الوجود؟ ما مبدؤه؟ وما غايته؟ وهل فوقه قوة تدبره؟ وإرادة قاهرة تحركه؟ وما حقيقة تلك القوة المدبرة الحكيمة.

كل هذه أسئلة لابد أن تمر على خاطر من يقيم في بيئة مثل البيئة التي كانت مهدًا لمحمد ﷺ في بادية بني سعد بن بكر، ولابد أن تنفعل

لها الخواطر التي تمر بها، وتتأثر بها الفطر المصقولة التي جعل الله لها قابلية الانطباع لما يمر عليها، أما النفوس الصدئة والفطر الكثيفة فليس لها من ذلك الانفعال شيء، فكم من نفوس شهدت جلال الصحراء وجمالها كما شهدها محمد ﷺ في طفوليته، ولكن قليل جدًّا هم الذين تأثروا بذلك الجلال الوجودي والجمال الكوني، وانفعلت له فطرهم كما تأثر محمد ﷺ وهو طفل لم يجاوز الخامسة من عمره، وحتى هذا القليل لم يكتب له طرف مما كتب التاريخ من تسبيحات الفكر في محاريب الوجود، بل ضلوا وضل ذكرهم في متاهات الصحراء، وبقي محمد ﷺ وحده على ربوة الوجود يجاذب هذا الجلال ترانيم التقديس في صور من التأملات والتفكير.

رجع محمد ﷺ من بادية بني سعد إلى مكة بعد أن بلغ من عمره سنوات هي سن تبلغ فيها الطفولية أول مراحل الشباب، والشباب حماسة ونشاط وقوة وتطلع إلى معرفة كل مجهول، وأي شيء في حياة الصحراء مجهول؟ أليست الحياة فيها مكشوفة عريانة؟ الأرض وما عليها من جبال ووديان وحيوان ونبات، والسماء وما فيها من شموس وأقمار ونجوم وكواكب، والجو بعواصفه وأمطاره ورعوده وبروقه، كلها أمور مرئية مشهودة، ولكن ما مبلغ علم الناس بها، لا شيء سوى هذه الظواهر المكرورة في كل وقت وحين، أما ما وراء ذلك فهو محجب مغلق، فأي شيء إذًا في حياة الصحراء معلوم؟.

هذه الحيرة الفكرية هي الآية الأولى التي قرأها محمد في كتاب الوجود على صفحة الصحراء، وهي التي رجع بها إلى مكة السادرة في غي وثنيتها، السكرى بخمر أصنامها، المحجوبة عن التفكير في جمال الكون بتجارتها وأسواقها ومواسمها، وأعيادها وعاداتها، فنظرت إليه ونظر إليها، نظرت إليه بمنظار وثنيتها فلم تره يمشي إلى أصنامها لاهيًا كما يمشي أطفالها لاهية عابثة؛ بل رأت فيه طفلاً ينطوي على نفسه، وكأنه يحمل من هموم الدنيا وأحزانها ما صرفه عن اللهو واللعب، وارحمتا لهذا الصبي! إنه يتيم، يرى لداته من الأطفال يرتمون في أحضان آبائهم؛ فيضمونهم إلى صدورهم فيملأه الحزن، ألا يرى له أبًا بين هؤلاء الآباء.

كذلك فكرت مكة في نظرتها إلى محمد في صمته وعزلته عن معابثها وملاهيها، ونظر إليها محمد من خلال حيرته الفكرية، فرأي صورًا هزلية، ورأي مسخًا للكرامة الإنسانية، ما هذه الأحجار المنحوتة؟ وما هذا الدوار بها؟ وما هذه القرابين؟ ولمن يتقرب بها؟ وفيم هذه الدماء المسفوكة والمساكين غرثى، والفقراء جوعى لا يصلون إلى شيء ولا يصل إليهم شيء، ولكن ما حيلة محمد وهو طفل في هذه الهامات الضخمة، واللحى المسترسلة، والرقاب الغليظة، والأصوات المفزعة، والمجد الزائف الموروث، والشرف المؤثل؛ فهي التي تطوف

بهذه الأحجار؛ وهي التي تهذل وتمسخ؛ لو كان يسمع له لقال وتكلم؛ ولعله أن يكون.

وفي حياة محمد ﷺ الخاصة وما يشغله عن صخب مكة ولهوها العابث حول أحجارها؛ فليذهب إلى أمه؛ ليسكن إلى ضمة صدرها وحنان قلبها؛ وقد كان يزورها مع ظئره فتخطف له الحديث خطفًا عن أبيه وأسرته، وقومه وبلده؛ فأنت محمد بن عبد الله الكريم بن الكريم، أبوك أنضر فتيان مكة وأشبها شبابًا؛ وأعلاها ذكرًا؛ الذي لم تنس مكة حادث فخره في قصة ذبحه؛ فأين هو؟ إنه...

وتخنق آمنة العبرة فلا تستطيع أن تمضي في الحديث: فينظر إليها وليدها الحبيب؛ ماذا؟ أنت تبكين يا أماه؛ وتضم آمنة ابنها إلى صدرها ضمة توشك أن تطوي عليه جوانحها؛ ثم تعود إلى الحديث في طرف آخر منه؛ وهذا السيد العظيم الذي يلتف حوله الملأ من صناديد قريش يسمعون لقوله ويبتدرون نظراته هو جدك شيبة الحمد عبد المطلب بن هاشم سيد الحرم وشريف مكة، وكبير قريش.

وهؤلاء الفتيان البهاليل المساميح حول هذا الشيخ في وقفة الإجلال له إنهم أعمامك وإخوة أبيك، وهؤلاء الصيد الأماجد الذين يملؤون السمع والبصر يغدون في طرقات مكة ويروحون في عنجهية واستعلاء إنهم قريش قومك وعشيرتك؛ وهذا البلد الأمين بلدك؛ فأنت

ابـن الأكـرمين؛ أهـل الله وجيـران بيتـه وسـكان حرمـه، تـدين العـرب بالطاعة لهم، وتسمع لقولهم، وتعنو الجباه لحرمة بلدهم.

وعرف محمد ﷺ أنه يتيم، وأن أباه لـيس في غيبـة لهـا أوبـة، ولكنـه مضى إلى حيث لا يعود، ويخرج إلى حيث فراش جده في ظـل الكعبـة؛ فيلقي أعمامه حافين حوله؛ ولما يخرج إلـيهم الشـيخ العظـيم؛ فيـذهب ليجلس على مجلس جده ويأبي أن يجلس حيث أعمامه؛ فـيهم أولئـك الأعمام بتنحيته ويلقاهم أبوهم في همهم هذا فيأخذ بيد محمد ويجلسه معه، ويمسح ظهره بيده، ويظهر له رقة وحبًا، لم يكونا لأحد من ولـده، ويقول: دعوا ابني فوالله إن له لشأنًا.

سفر محمد ﷺ إلى يثرب ووفاة أمه وهي عائدة به إلى مكة

ويرجع محمد ﷺ بعد مجلسه عند جده إلى أمه فتحدثه وتداعبه، وفيم يطيب الحديث بين آمنة وابنها الحبيب إلا عن ذلك الراحل الأريب، ويتصل الحديث عن عبد الله وتختلس آمنة النظر إلى ابنها وفي عينيها عبرات، ويلمح محمد وجه أمه تكسوه مسحة من الحزن الصامت، وتلتقى عيناه بعينيها، فتضمه إلى صدرها الحنون، وتنسى أحزانها، وتقبل عليه في ابتسامة تعبر عن آمالها وأحلامها، وتخبره عن رحلة أبيه ووفاته والبلد الذي دفن فيه، وصلته بأهل ذلك البلد في شيء من التفصيل.

فكأنما حنت نفسه إلى زيارة أقاربه في ذلك البلد الذي يحوى جدث أبيه، وكأنما صادف ذلك من نفس أمه رغبة موافقة ورأت في شبابه ـ وكان قد بلغ سنه ست سنوات ـ قسوة على احتمال السفر، فتحملت به ومعه حاضنته أم أيمن التي أورثها له أبوه، فأزارته أخوال جده عبد المطلب، وهناك لعب مع لداته، ورآه يهود يثرب، فتحدثوا عنه، وسمعتهم حاضنته، فتوجست عليه منهم، وأبلغت سيدتها فرحلوا عائدين إلى مكة.

ولما كانوا على نحو ثلاثة وعشرين ميلاً من يثرب، وقد بلغوا قرية «الأبواء»، مرضت آمنة أم محمد ﷺ مرضًا بلغها الأجل، ودفنها هناك ابنها الحبيب وحاضنته أم أيمن، وعادا على بعيريهما إلى مكة.

قال ابن سعد في الطبقات: كان رسول الله ﷺ مع أمه آمنة بنت وهب فلما بلغ ست سنين خرجت به إلى أخواله بني عدي بن النجار بالمدينة تزورهم به ومعه أم أيمن تحضنه، وهم على بعيرين فنزلت به في دار النابغة فأقامت به عندهم شهرًا، فكان رسول الله ﷺ يذكر أمورًا كانت في مقامه ذلك، لما نظر إلى أطم «قصر» بني عدي بني النجار بعد هجرته عرفه، وقال: «كنت ألاعب أنيسة جارية من الأنصار على هذا الأطم، وكنت مع غلمان من أخوالى نطير طائرًا كان يقع عليه»، ونظر إلى الدار فقال: «ههنا نزلت بي أمي، وفي هذه الدار قبر أبي عبد الله بن عبد المطلب، وأحسنت العوم في بئر بني عدي بن النجار».

وكان قوم من اليهود يختلفون ينظرون إليه فقالت أم أيمن: فسمعت أحدهم يقول: هو نبي هذه الأمة، وهذه دار هجرته فوعيت ذلك كله من كلامه، ثم رجعت به أمه إلى مكة، فلما كانوا بالأبواء توفيت آمنة بنت وهب فقبرها هناك، فرجعت به أم أيمن على البعيرين اللذين قدموا عليهما، وكانت تحضنه مع أمه، ثم بعد أن ماتت.. وقال القسطلاني في المواهب: وقد كانت أم أيمن بركة دايته وحاضنته بعد موت أمه، وكان عليه السلام يقول لها: «أنت أمي بعد أمي».

لك الله يا سيدي يا رسول الله، خرجت في رفقة أمك الحبيبة شوقًا إلى زيارة بلد ضم جسد أبيك الذي لم يشهد إشراق طلعتك ولم تشهد شخصه في حياته، وكان قدر الله ـ تعالى ـ الحكيم رصدًا لوالدتك في طريق عودتها بك إلى بلدك الحرام، وجدك الشيخ العظيم، فجمع لك ربك يتم الأبوين، ليستخلصك بالتربية، ويصطنعك بالتأديب حتى تكون نشأتك ربانية، وتأديبك إلهيًّا فتتم لك النعم، وتعظم من الله عليك المنة، فتستأهل للخلود في آيات متعبدة متلوة آناء الليل وأطراف النهار: ﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣ وَلَلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لَّكَ مِنَ ٱلۡأُولَىٰ ۝٤ وَلَسَوۡفَ يُعۡطِيكَ رَبُّكَ فَتَرۡضَىٰٓ ۝٥ أَلَمۡ يَجِدۡكَ يَتِيمٗا فَـَٔاوَىٰ﴾[الضحى: ١-٦].

فإذا اشتاقت نفسك الكريمة إلى توالي إتحاف الله لك بنعمه فلا يجولن بخاطرك، تلهفًا على ألطاف الملكوت أن ربك ودعك، ولا تأس لما يردده الجاحدون، فأنت الحبيب المحبوب، وأنت ربيب إحسان الربوبية منذ أن شرف الوجود بوجود نورك، فكيف يتركك ربك بعد مظهر الاصطفاء الأعظم، وأنت فيه واسطة عقد الملكوت، وروح الوجود، وما تركك وأنت بعد غلام في مكة لم تطالع من سفر الوجود إلا فاتحة الكتاب.

لك الله يا سيدي رسول الله، ألم يجدك ربك يتيما فآواك إلى كنف عزته، وأي يتم أبلغ في النفس أثرًا وأعمق في القلب ألمًا من يتم يتلاحق

فيه الأبوان قبل أن تشتد لصروف الحياة قناة الوليد؟ وأنت ذلك اليتيم الذي فقد أباه قبل وجوده، وفقد أمه في طلائع طفوليته ونماء عوده، لم تبك لفقد أبيك، لأنك لم تكن لفقده شهيدًا، ولكن أمك تموت على مشهد من عينيك في بلد أنت فيه غريب، فوارحمتا لطفوليتك الغضة يهيضها فادح الأرزاء غربة؛ ويتم يلاحق يتمًا.

روي أبو نعيم من طريق الزهري عن أسماء بنت رهم عن أمها قالت: شهدت آمنة أم النبي ﷺ في علتها التي ماتت فيها ومحمد ﷺ غلام يَفعٌ عند رأسها فنظرت إلى وجهه ثم قالت: كل حي ميت، وكل جديد بال؛ وكل كثير يفني، وأنا ميتة وذكري باق، وقد تركت خيرًا، وولدت طهرًا.

أي أم محمد ﷺ؛ أي سطر في كتاب الوجود أمليته على الكرام الكاتبين فنعموا لك، واستجابوا لقولك مؤمنين؟ وأية آية من سفر الخلود رتلتها ساعة وداعك الدنيا الفانية وفيها ابنك الحبيب محمد ﷺ نور الوجود، ورمز الخلود؟ وأي إلهام ألقي عليك هذه الكلمات في ساعة يعصر فيها الوجد قلب الحبيب، إنك قلت: أنا ميتة وذكري باق. فقال الوجود: أجل يا أم محمد. وقلت: وقد تركت خيرًا وولدت طهرًا. فقالت السماء: نعم يا أم محمد، وكفاك ذكرًا أنك أم محمد

رسـول رب العـالمين، وكفـاك فخـرًا أنـك أم محمـد أطهـر المطهـرين، وسيد المرسلين.

محمد ﷺ في كفالة جده

دفن محمد أمه وعاد إلى مكة ومعه حاضنته وأمه بعد أمه السيدة البرة أم أيمن وقلبه ينفطر أسى وحزنًا لفقد أمه التي كان يجد في أحضانها وأحاديثها ومناغاتها غذاء لطفوليته، ونشوة لشبابه، وتلقاه جده الشيخ الملقي عبد المطلب فقرأ على صفحات وجهه أبلغ آيات الحزن وأمض الأسى، فرق له رقة لم يرقها على ولده، وصب به صبابة شديدة، وكان يقربه ويدنيه ويدخل عليه إذا خلا وإذا نام. وكان لا يأكل طعامًا إلا قال: عليَّ بابني، وكان يحرص عليه أشد الحرص لما كان يسمع من أهل الكتاب والمعتافين في شأنه.

روي ابن سعد أن عبد المطلب قال لحاضنته أم أيمن: يا بركة لا تغفلى عن ابني، فإني وجدته مع غلمان قريبًا من السدرة، وإن أهل الكتب يزعمون أن ابني هذا نبي هذه الأمة، وقال قوم من بني مدلج لعبد المطلب - وكانوا أهل عيافة وفطنة في معرفة الأثر والشيات الموروثة -: احتفظ به - يعنون محمدًا - فإنا لم نر قدمًا أشبه بالقدم التي في المقام منه، فقال عبد المطلب لأبي طالب: اسمع ما يقول هؤلاء.

وروي ابن سعد عن كندير بن سعيد عن أبيه قال: كنت أطوف بالبيت فإذا رجل يقول:

رب رد إلي راكبي محمدًا		رده إلي واصطنع عندي يدًا

فقلت: من هذا؟ قالوا: عبد المطلب بن هاشم، بعث بابن ابن له في طلب إبل له، ولم يبعث به في حاجة إلا نجح، فما لبثنا أن جاء فضمه إليه، وقال: لا أبعث بك في حاجة.

وروي ابن سعد من طريق خالد بن خداش عن أبي مجلز قال: إن عبد المطلب أو أبا طالب - شك خالد لما مات عبد الله - عطف على محمد فكان لا يسافر سفرًا إلا كان معه فيه، وإنه توجه نحو الشام فنزل منزله، فأتاه فيه راهب، فقال: إن فيكم رجلاً صالحًا، ثم قال: أين أبو هذا الغلام، فقال عبد المطلب هأنذا وليه، أو قيل: هذا وليه، قال: احتفظ بهذا الغلام ولا تذهب به إلى الشام، إن اليهود حسد، وإني أخشاهم عليه. قال عبد المطلب: ما أنت تقول ذاك؛ ولكن الله يقوله، فرده، قال: اللهم إني أستودعك محمدًا ثم إنه مات.

وذكرنا لهذه الرواية هنا ترجيح لجعلها خاصة بعبد المطلب؛ لأنه كان أول كافل لحفيده بعد وفاة أبويه الكريمين، وقد مات عبد المطلب ورسول الله ﷺ غلام لم يجاوز الثامنة من عمره، وعبد المطلب هو الذي شهر بهذه الفواضل التي ذكرت ردًا على الراهب في قوله: إن فيكم رجلاً صالحًا، وكان أبو طالب - مع شرفه في قومه - عائلاً لا تقوم أسباب عيشه بمثل ما كان يقوم به عبد المطلب من المكارم، وأما عمه

أبو طالب فقد عاش حتى شرف الله محمدًا ﷺ برسالته ورأي مطالع الدعوة، وكانت له في حمايتها قدم راسخة.

وفاة عبد المطلب
وأثرها في نفس محمد ﷺ

بقى محمد في كفالة جده عبد المطلب بعد وفاة أمه يرعاه الله ويكلأه بكلاءته، ويحفظه بعنايته نحوًا من سنتين؛ لأن وفاة أمه كانت وهو في السادسة من عمره على أرجح الروايات، فلما بلغ الثامنة كان جده قد نيف على المائة في أشهر الروايات، وحضره أجله فأوصى بالنبي ﷺ إلى عمه أبي طالب يحفظه ويحوطه؛ لأنه كان شقيق عبد الله أبي رسول الله ﷺ، وقد سئل رسول الله ﷺ: أتذكر موت عبدالمطلب؟ قال: «نعم، أنا يومئذ ابن ثماني سنين»، وقالت حاضنته أم أيمن: رأيت رسول الله ﷺ يومئذ يبكى خلف سرير عبد المطلب.

وكيف لا يبكى محمد عليه السلام وقد فقد بفقده جده عبد المطلب سيد قريش وشريفها، وهو في طفوليته التي هي في مسيس الحاجة إلى اليد الحانية، والنفس العاطفة، والقلب المشفق، وكان قد لقي في جده كل ذلك وأكثر منه، لقي الشخص الذي ملأ فراغ الأبوة والأمومة من حياة محمد في هذه المرحلة التي تتغذي فيها الطفولية بالعواطف الصادقة والوجدانات المفعمة بالحنان والرحمة، إن حياة عبد المطلب كانت في هذا الدور من حياة محمد ﷺ المهد الدافئ المظلل بظلال الأبوة الرحيمة، والأمومة الوالهة، وقد أنزله من نفسه منزلاً لم ينزله أحدًا من ولده، يحوطه بحبه، ويرمقه بعطفه، ويقدمه على بنيه، ويلازمه صبابة به

فلا يفارقه في سفر أو إقامة، ويكون معه في نومه ويقظته لينسيه ألم اليتم، ويمسح عنه الأحزان.

إن هذه الدموع المنحدرة من عيني محمد ﷺ وهو يودع جده العظيم في سفره الأبدي آيات من كتاب الوفاء ترتلها نفسه القدسية في صمتها الحزين.

محمد ﷺ في كفالة أبي طالب

أوصى عبد المطلب عند موته إلى ولده أبي طالب أن يكفل محمدًا ابن أخيه الذبيح، فكان أبو طالب عند ظن أبيه به في حدبه عليه، بل كان صورة منه في جميع ما كان يوليه من حب وعطف ورعاية.

قال ابن سعد عن طريق شيخه الواقدي عن ابن عباس وكان أبو طالب لا مال له، وكان يحب محمدًا حبًا شديدًا لا يحبه ولده، وكان لا ينام إلا إلى جنبه، وإذا خرج خرج معه، وصب به أبو طالب صبابة لم يصب مثلها بشيء قط، وكان يخصه بالطعام دون بنيه، وإذا أكل عيال أبي طالب جميعًا أو فرادى لم يشبعوا، وإذا أكل معهم رسول الله ﷺ شبعوا، فكان أبو طالب إذا أراد أن يغذي عياله قال لهم: كما أنتم حتى يأتي ولدي فيأتي رسول الله ﷺ فيأكل معهم فكانوا يفضلون من طعامهم، وإن لم يكن معهم لم يشبعوا، فيقول أبو طالب: إنك لمبارك.

وقال عن ابن القبطية: كان أبو طالب توضع له وسادة بالبطحاء مثنية يتكيء عليها، فجاء النبي ﷺ فبسطها، ثم استلقي عليها، فجاء أبو طالب فأراد أن يتكيء عليها، فسأل عنها، فقالوا أخذها ابن أخيك، فقال: وحل البطحاء إن ابن أخي هذا ليحس بنعيم.

وهذا كله شبيه بما كان يصنعه عبد المطلب مع رسول الله ﷺ بل هو صورة منه، وكان أبو طالب يرى ذلك كله من أبيه، ويراه يرضى عن

كل ما يصنع محمد ﷺ ويحب ذلك منه، فجرى أبو طالب في طريق والده الشيخ وهو القدوة العليا بين أشراف قريش، وقصة وسادة أبي طالب شبيهة بقصة فراش عبد المطلب في ظل الكعبة وجلوس رسول الله ﷺ عليه تطلبًا لمعالي الأمور وسمو المكانة في الحياة، وكثيرًا ما يقرأ تاريخ حياة بعض الأطفال من أفعالهم الفطرية التي تبدو في غرائزهم الأولي، وقد رأي عبد المطلب في تسامى حفيده إلى مجلسه المحفوف بالجلال صورة من السمو الذي يكون عليه في مستقبله، ورأي أبو طالب نحو هذا فصوره كل منهما بما ألهمه إحساسه وشعوره.

وكان أبو طالب على غرار أسلافه من بني عبد مناف يشتغل بالتجارة، ويرحل عيرات قريش وقوافلها في رحلتها إلى الشام واليمن، ويظهر أنه كان قليل الحظ في الربح الكثير، وكان - مع ذلك - كثير العيال، فشغله ذلك عن القيام بميراث أبيه في الرفادة واكتفي أبناء عبدالمطلب بالسقاية التي وَلِيَها العباس وهو من أحدث إخوته سنًّا.

محمد ﷺ في رحيله إلى الشام

ولما بلغ محمد اثنتي عشرة سنة كان عمه أبو طالب يتهيأ للرحيل في تجارته إلى الشام فتعلق به ليأخذه معه فرق له أبو طالب واصطحبه وقال: والله لأخرجن به معي ولا أفارقه ولا يفارقني أبدًا.

روي الترمذي في جامعه عن أبي موسى الأشعرى قال: خرج أبو طالب إلى الشام وخرج معه النبي ﷺ في أشياخ من قريش، فلما أشرفوا على الراهب هبطوا فحلوا رحالهم فخرج إليهم الراهب وكانوا قبل ذلك يمرون به فلا يخرج إليهم ولا يلتفت لهم، فهم يحلون رحالهم فجعل يتخللهم الراهب حتى جاء فأخذ بيد رسول الله ﷺ قال: هذا سيد العالمين.

فقال له أشياخ من قريش: ما علمك؟ فقال: إنكم حين أشرفتم من العقبة لم يبق شجر ولا حجر إلا خر ساجدًا، ولا يسجد إلا لنبي، وإني أعرفه بخاتم النبوة أسفل من غضروف كتفه مثل التفاحة، ثم رجع فصنع لهم طعامًا، فلما أتاهم به وكان هو (رسول الله) في رعية الإبل، قال: أرسلوا إليه؛ فأقبل وعليه غمامة تظله، فلما دنا من القوم وجدهم قد سبقوه إلى فيء الشجرة، فلما جلس مال فيء الشجرة عليه، فقال: انظروا إلى فيء الشجرة مال عليه.

فبينما هو قائم عليهم وهو يناشدهم أن لا يذهبوا به إلى الروم، فإن

الروم إذا رأوه عرفوه بالصفة فيقتلونه، فالتفت فإذا سبعة قد أقبلوا من الروم فاستقبلهم فقال: ما جاء بكم؟ قالوا: جئنا لأن هذا النبي خارج في هذا الشهر، فلم يبق طريق إلا بعث إليه بأناس، وإنا قد اخترنا خيرة بعثنا إلى طريقك هذا، فقال: هل خلفكم أحد هو خير منكم، قالوا؛ إنما اخترنا خيرة لطريقك هذا، قال: أفرأيتم أمرًا أراد الله أن يقضيه هل يستطيع أحد من الناس رده؟ قالوا: لا، فبايعوه وأقاموا معه، قال: أنشدكم الله أيكم وليه؟ قالوا: أبو طالب، فلم يزل يناشده حتى رده أبوطالب، وبعث معه أبو بكر بلالاً وزوده الراهب من الكعك والزيت.

قال الترمذي: هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه وقد صحح الحاكم هذا الحديث، ورواه البيهقي وأبو بكر الخرائطي وابن عساكر.. قال ابن كثير في البداية: وهكذا رواه غير واحد من الحفاظ من حديث أبي نوح عبد الرحمن بن غزوان الخزاعي مولاهم، ويقال له الضبي ويعرف بقراد، سكن بغداد وهو من الثقات الذين أخرج لهم البخاري ووثقه جماعة من الأئمة والحفاظ، ولم أر أحدًا جرحه، ومع هذا في حديثه هذا غرابة، قال عباس الدوري: ليس في الدنيا أحد يحدث به غير قراد أبي نوح، وقد سمعه منه أحمد بن حنبل - رحمه الله - ويحيى بن معين لغرابته وانفراده.

قال ابن كثير: قلت: فيه من الغرائب أنه من مرسلات الصحابة؛ فإن أبا موسى الأشعري إنما قدم سنة خيبر سنة سبع من الهجرة، وهذه

القصة كانت ولرسول الله ﷺ من العمر اثنتا عشرة سنة، ولعل أبا موسى تلقاه من النبي ﷺ فيكون أبلغ أو من بعض كبار الصحابة ـ رضى الله عنهم ـ، أو كان هذا مشهورًا مذكورًا أخذه من طريق الاستفاضة.

الثاني: أن الغمامة لم تذكر في حديث أصح من هذا.

الثالث: أن قوله: وبعث معه أبو بكر بلالاً، إن كان عمره ـ عليه الصلاة والسلام ـ إذ ذاك اثنتي عشرة سنة، فقد كان عمر أبي بكر إذ ذاك تسع سنين أو عشرة، وعمر بلال أقل من ذلك فأين كان أبو بكر إذ ذاك؟ ثم أين كان بلال؟ كلاهما غريب، اللهم إلا أن يقال: أن هذا كان ورسول الله ﷺ كبيرًا إما بأن يكون سفره بعد هذا، أو أن كان القول بأن عمره كان إذ ذاك اثنتي عشرة سنة غير محفوظ.

وضعف الحافظ الذهبي الحديث لقوله في آخره: وبعث معه أبوبكر بلالاً، فإن أبا بكر إذ ذاك لم يكن متأهلاً ولا اشترى بلالاً، قال الحافظ ابن حجر في الإصابة: الحديث رجاله ثقات، وليس فيه منكر سوى هذه اللفظة فتحمل على أنها مدرجة فيه مقتطعة من حديث آخر وهما من أحد رواته.

جهابذة المحدثين وحذاق الناقدين قبلوا هذا الحديث ولم يردوه، وأعمقهم تعمقًا وأشدهم تشددًا وهو الحافظ الذهبي كان قصاراه أنه

ضعفه من جهة ما فيه من كلمة ظنها لا تتفق مع تاريخ الواقعة، وقد خرج الحافظ ابن حجر هذه الكلمة باحتمال أنها ليست من هذا الحديث، وأنها مدرجة فيه مقتطعة من حديث آخر.

وذهب ابن كثير في تخريجها إلى احتمال أن القصة كلها كانت ورسول الله ﷺ كان كبيرًا، ليتفق سنه مع ما جاءت به الرواية من إرسال أبي بكر الصديق بلالاً معه في طريق عودته، وهذا ـ في نظر هؤلاء الناقدين ـ يقتضى أن يكون أبو بكر رجلاً متأهلاً وبلالاً مملوكًا له.

ولا ندري ما الذي يوجب ذلك؟ وما الذي يبعد أن يكون أبو بكر خرج في هذه السفرة وهو غلام على مثل ما خرج عليه رسول الله ﷺ من تعلقه بعمه أبي طالب، فأخرجه معه صبابة به ومحبة له ورقة عليه، فيكون بعض آل أبي بكر أخرجه معه على نحو قريب من هذا، أو يكون أبو بكر قد آجر نفسه لبعض تجار قريش يكون معه حارسًا أو مناولاً أو رسولاً كالذي نراه في متعارف الناس ومتصرفاتهم، وحينئذ فلا استغراب في وجوده في هذه الرحلة.

ونظرًا لتقارب سنه من سن رسول الله ﷺ كان بينهما من تقارب القلوب والألفة ووشائج الصداقة ما يكون بين اللدات والأتراب، ولاسيما إذا توافقت المشارب في السفر والغربة، ولعل هذا كان أول شعاع من الضياء انبثق في أفق صداقتهما الخالدة.

وأما بلال فالاحتمال في وجوده في هذه السفرة أرجح وأقرب؛ إذ ما المانع أن يكون قد خرج في هذه السفرة على صغره؛ ليخدم بعض سادته إذا كان قد استرق منذ طفولته؛ أو يكون خرج أجيرًا مع بعض أهله أو غيرهم؛ ولما عرض حديث الراهب عن رسول الله ﷺ ونصح عمه أبا طالب، ليرجع به إلى بلده خشية عليه من أعدائه الذين يبغونه الغوائل رغب أبو بكر إلى بلال رغبة رفيق إلى رفيق ورضى ولي بلال إسعادًا لأبي طالب أن يكون بلال صحبة رفيقهما محمد ﷺ في أوبته ليؤنسه، وكانت حال بلال تسمح بهذه الصحبة فرحب بلال ورضى مغتبطًا أن يكون الرفيق الأنيس لمحمد ﷺ، وهذا تفسير طبيعي للحادث لا يحتاج إلى أن يتأهل أبو بكر أو يملك بلال أو يوهم الرواة.

وعلى أن الطعن في هذه الكلمة من الحديث لا يضير قصة تظليل الغمامة وما ذكر معها من عجائب كونية وخوارق معجزة؛ لأن جميع الرواة متفقون على صحتها وتوثيق رواتها؛ وقد قدمنا من البحث ما يكفي في تزييف رأي المتشبثين بسنن الحياة العامة؛ ومعروف العقول؛ وقضايا العلم والمنطق؛ ليخلصوا من ذلك إلى جحود المعجزات الكونية في سيرة محمد ﷺ، بيد أن كثيرًا من الباحثين المتحررين من عبودية الاستشراق والتجديد الزائف وقفوا في بحوثهم مع الإنصاف لعقولهم في فهم عوالم الغيب وسنن الله ـ تعالى ـ في الملأ الأعلى؛ يقول أحد هؤلاء المتحررين في تفسير قول الله ـ تعالى ـ: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ

ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰ وَٱسۡتَكۡبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾

[البقرة: ٣٤]

من هم الملائكة؟ من هو إبليس؟ كيف قال لهم الله؟ كيف أجابوا؟ أين كان هذا الحوار؟ ومتى كان؟ وما هي الأسماء التي علمها الله لآدم؟ من الذين عرضهم الله على الملائكة فلم يعرفوا أسماءهم؟.

هذه وأمثالها في القرآن الكريم مما لم يرد فيه تحديد ولا تفصيل كله غيب من الغيب الذي أسلفنا أن العقل البشري عنه محجوب، وأن الإيمان به صيانة للطاقة الفكرية من أن تتبدد في غير مجالها، ومن أن تنفق عبثًا بلا جدوى، ومتى آمن العقل بالبديهة الأولي بديهة أن الجزء لا يمكن أن يدرك الكل، وأن الذي خلق أعلم بما خلق ممن خلق، متى آمن العقل بالقدرة المطلقة وبالعلم المطلق فأولي به إذن أن يدع هذا الغيب الذي لا يملك وسيلة لإدراكه، أن يدعه لعالم الغيب والشهادة لا استسلامًا جاهلاً أعمي؛ ولكن تسليمًا بالبديهة العقلية الأولي، وإذا كان العقل لا يدرك هذا الغيب، ولا يجد إلى الاطلاع عليه سبيلاً فليس معنى عجزه أن يتبجح وينكر، فالإنكار حكم يحتاج إلى برهان، واحترام العقل ذاته يقتضيه ألا ينكر إلا وقد أحاط علمًا بما ينكره واستيقن من عدم وجوده.

إن الاستسلام للوهم والخرافة شديد الضرر والخطورة، ولكن أخطر منه وأضر التنكر للمجهول كله، وإنكاره، لأنه تنكر لتلك البديهة

الأولي، وإنكار لطبيعة العقل وحدوده، وإقحام لهذا العقل في غير مجاله، وتبديد لطاقته في غير مجالها، وتطاول منه على حكم لا يملك أسانيده.

هذا كلام واضح مستقيم الحجة بين المحجة، يستطيع كل قارئ وكل باحث أن يضعه إلى جانب كل آية كونية ومعجزة خارقة تثبت صحة الرواية وقوعها؛ فإذا هي حقيقة تاريخية يجب الإيمان بها دون توقف مع سنن الحياة ومعروف العقول، وقضايا العلم ومقاييس المنطق، لأن كثيرًا من الحقائق الواقعية ولاسيما الحقائق الروحية والمعاني الغيبية العليا التي تتعلق بالله -تعالى- وصفاته وأسمائه الحسنى، ومظاهر ذلك في الحياة والأحياء وما يتصل به من النبوة والرسالة والوحي والملائكة والجن وسائر عالم الغيب، والملأ الأعلى لا يخضع لسنن الحياة التي نعرفها، ولا لمعارف العقول التي وصلت إليها.

وحديث الغمامة مما أجمع عليه رواة السيرة، ولم يذكر في كتب بأصح من رواية الترمذي المتقدمة، غير أن روايات أصحاب السير جاءت كلها خالية من الكلمة التي نقد من أجلها حديث الترمذي.

روي ابن سعد في الطبقات من طريق عبد الله بن جعفر الزهري وداود بن الحسين قال: لما خرج أبو طالب إلى الشام، وخرج معه رسول الله ﷺ وهو ابن ثنتى عشرة سنة؛ فلما نزل الركب بصرى من

الشام وبها راهب يقال له بحيرا في صومعة له، وكان علماء النصارى يكونون في تلك الصومعة يتوارثونها عن كتاب يدرسونه؛ فلما نزلوا ببحيرا، وكانوا كثيرًا ما يمرون به لا يكلمهم حتى إذا كان ذلك العام ونزلوا منزلاً قريبًا من صومعته قد كانوا ينزلونه قبل ذلك كلما مروا، فصنع لهم طعامًا ثم دعاهم، وإنما حمله على دعائهم أنه رآهم حين طلعوا وغمامة تظل رسول الله ﷺ من بين القوم حتى نزلوا تحت الشجرة.

ثم نظر إلى تلك الغمامة أظلت الشجرة وأخضلت أغصان الشجرة على النبي ﷺ حين استظل تحتها، فلما رأي ذلك نزل من صومعته وأمر بذلك الطعام فأتى به وأرسل إليهم فقال: إني قد صنعت لكم طعامًا يا معشر قريش وأنا أحب أن تحضروه كلكم ولا تخلفوا منكم صغيرًا ولا كبيرًا، حرًّا ولا عبدًا، فإن هذا شيء تكرمونى به.

فقال رجل: إن لك لشأنًا يا بحيرا، ما كنت تصنع بنا هذا فما شأنك اليوم؟ قال: فإني أحببت أن أكرمكم ولكم حق، فاجتمعوا إليه وتخلف رسول الله ﷺ من بين القوم لحداثة سنه ـ ليس في القوم أصغر منه في رحالهم ـ تحت الشجرة فلما نظر بحيرا إلى القوم فلم ير الصفة التي يعرف ويجدها عنده وجعل ينظر ولا يرى الغمامة على أحد من القوم، ويراها متخلفة على رسول الله ﷺ.

قال بحيرا: يا معشر قريش لا يتخلفن منكم أحد عن طعامي. قالوا: ما تخلف أحد إلا غلام هو أحدث القوم سنًّا في رحالهم. فقال: ادعوه فليحضر طعامي، فما أقبح أن تحضروا ويتخلف رجل واحد مع إني أراه من أنفسكم. فقال القوم: هو والله أوسطنا نسبًا، وهو ابن أخي هذا الرجل - يعنون أبا طالب - وهو من ولد عبد المطلب، فقال الحارث بن عبد المطلب بن عبد مناف: والله إن كان بنا للؤم أن يتخلف ابن عبدالمطلب من بيننا، ثم قام إليه فاحتضنه وأقبل به حتى أجلسه على الطعام والغمامة تسير على رأسه، وجعل بحيرا يلحظه لحظًا شديدًا وينظر إلى أشياء في جسده قد كان يجدها عنده من صفته فلما تفرقوا عن طعامهم قام إليه الراهب فقال: يا غلام أسألك بحق اللات والعزى إلا أخبرتني عما أسألك. فقال رسول الله ﷺ:

«لا تسألني باللات والعزى فوالله ما أبغضت شيئًا بغضهما» قال: فبالله إلا أخبرتني عما أسألك عنه؛ قال: سلني عما بدا لك، فجعل يسأله عن أشياء من حاله حتى نومه، فجعل رسول الله ﷺ يخبره فيوافق ذلك ما عنده، ثم جعل ينظر بين عينيه، ثم كشف عن ظهره، فرأي خاتم النبوة بين كتفيه على موضع الصفة التي عنده، فقبل موضع الخاتم، وقالت قريش إن لمحمد عند هذا الراهب لقدرًا، وجعل أبو طالب لما يرى من الراهب يخاف على ابن أخيه.

فقال الراهب لأبي طالب: ما هذا الغلام منك؟ قال أبو طالب:



ابني. قال: ما هو بإبنك، وما ينبغي لهذا الغلام أن يكون أبوه حيًّا. قال: فابن أخي. قال: فما فعل أبوه؟ قال: هلك وأمه حبلى به. قال: فما فعلت أمه؟ قال توفيت قريبًا. قال: صدقت، ارجع بابن أخيك إلى بلده واحذر عليه اليهود، فوالله لئن رأوه وعرفوا منه ما أعرف؛ ليبغُنَّهُ عنتًا، فإنه كائن لابن أخيك هذا شأن عظيم نجده في كتبنا وما روينا عن آبائنا، واعلم إني قد أديت إليك النصيحة.

فلما فرغوا من تجارتهم خرج به سريعًا، وكان رجال من اليهود قد رأوا رسول الله ﷺ وعرفوا صفته فأرادوا أن يقاتلوه، فذهبوا إلى بحيرا فذاكروه أمره، فنهاهم أشد النهي، وقال لهم: أتجدون صفته؟ قالوا نعم، قال فما لكم إليه سبيل، فصدقوه وتركوه، ورجع به أبو طالب، فما خرج به سفرًا بعد ذلك خوفًا عليه.

وذكر من طريق عبد الرحمن بن أبزي: قال الراهب لأبي طالب: لا تخرجن بابن أخيك إلى ما ها هنا، فإن اليهود أهل عداوة، وهذا نبي هذه الأمة وهو من العرب؛ واليهود تحسده تريد أن يكون من بني إسرائيل فاحذر على ابن أخيك.

ورواية ابن أبزى كالتكملة لرواية الزهري وابن حصين المطولة، وهي أوفى الروايات وأضبطها في هذا الباب، وقد رواها الطبري وابن هشام وابن عساكر والبيهقي وأبو نعيم وابن الأثير وأبو الفداء وجم

غفير مع اختلاف طفيف في بعض ألفاظها.. وقد اخترنا رواية محمد ابن سعد لحسن سياقها ولطف مأتاها واستيفائها ما تبعثر في مجموع الروايات سواها.

وفي حديث ابن سعد من طريق محمد بن عقيل رواية تختلف مع هذه الرواية اختلافًا بينًا وليس فيها ذكر لقصة الغمامة قال: أراد أبو طالب المسير إلى الشام، فقال له النبي ﷺ: «أي عم إلى من تخلفني ههنا؟ فما لي أم تكلفني، ولا أحد يؤويني» فَرَقّ له ثم أردفه خلفه، فخرج به فنزلوا على صاحب دير، فقال صاحب الدير: ما هذا الغلام منك؟ قال: ابني. قال: ما هو بابنك ولا ينبغي أن يكون له أب حي. قال: لأن وجهه وجه نبي، وعينه عين نبي. قال: وما النبي؟ قال الذي يوحي إليه من السماء فينبئ به أهل الأرض. قال: الله أجل مما تقول، قال: فاتق عليه اليهود.

ثم خرج حتى نزل براهب صاحب دير أيضًا، فقال: ما هذا الغلام منك؟ قال: ابني. قال: ما هو بابنك وما ينبغي أن يكون له أب حي. قال: ولم ذلك؟ قال: لأن وجهه وجه نبي وعينه عين نبي. قال أبو طالب: سبحان الله، الله أجل مما تقول، وقال: يا ابن أخي ألا تسمع ما يقولون؟ قال: «أي عم لا تنكر لله قدرة».

هذه الرواية تذكر الوسيلة التي نفذ بها رجاء محمد ﷺ إلى قلب عمه، فرَقَّ له وصحبه في سفره، وهي وسيلة فيها من الاستعطاف

والاسترحام ما يثير العواطف ويحرك الرحمة، وأي شيء أنفذ إلى قلب أبي طالب الذي تخيره عبد المطلب دون سائر بنيه وصيًّا على محمد ﷺ يكفله ويرعاه من قول محمد عليه السلام: «أي عم إلى من تخلفني هنا؟ فما لي أم تكْفُلِي، ولا أحد يؤويني».

وفي هذه الرواية أن أبا طالب مر براهب صاحب دير، فحدثه عن ابن أخيه، وذكر له أنه النبي المنتظر فسأل أبو طالب: وما النبي؟ وإني لأبي طالب وغطارفة قريش أن يعلموا شيئًا عن النبوة والنبي، وهم في شغل من وثنيتهم المستحجرة؟ فلما بين له الراهب معنى النبي وأنه هو الذي يوحى إليه من السماء فينبئ أهل الأرض استعظم ذلك؛ لأنه مربوط العقل والروح بالأرض، فلا يمكن له أن يعقل صلة أحد من البشر بالسماء.

وتذكر الرواية أنه مر براهب آخر فجرى له معه مثل ما جرى مع الراهب الأول ولكنه في هذه المرة التفت إلى ابن أخيه معجبًا: يا ابن أخي ألا تسمع ما يقولون؟ ولكن محمدًا في طفولته كان ذا قلب يفقه وعقله واسع الأفق دراك، فقال لعمه: «أي عم لا تنكر لله قدرة»، وهي كلمة العقل الذي أعده الله منذ برأه لفهم الحقائق العليا والمعاني الإلهية التي تصله في تفكيره بعالم السماء، وأي عجب أن يتفضل خالق السماء والأرض والإنس والجن والملائكة؛ فيوحي بكلمته إلى من يصطفيه من خلقه رسولاً يبلغها عنه إلى من يشاء؟.

بل العجب كل العجب ألا يفعل ويترك خلقه يتعبدون لأحجار لا تبصر ولا تسمع، ولا تغنى عنهم من الله شيئًا، وتفكير أبي طالب هذا ـ وهو من سادات قريش أرجح قبيلة في العرب ميزانًا ـ يطلعنا على لون من حياة الجاهلية التي كان يحياها العرب قبل مشرق الإسلام، فالجاهلية الجاهلة تعظم الله عن أن يتصل بخلقه عن طريق وحيه ولا تعظمه عن التقرب إليه بعبادة الأحجار! هذا هو العجب يا ابن عبدالمطلب، «فلا تنكر لله قدرة».

وليس في هذه الرواية ما يفيد أنها رواية الراهب بحيرا التي تذكر فيها قصة تظليل الغمامة وغيرها من العجائب الكونية والخوارق المعجزة، ويميل بنا الظن إلى أنها رواية مستقلة في سفرة كانت قبل سفرة الراهب بحيرا، ويرشح ذلك أن أبا طالب كفل رسول الله ﷺ وسنه ثماني سنين، وسفرة بحيرا تذكر رواياتها أن سن محمد عليه السلام كانت فيها اثنتي عشرة سنة، ويبعد جدًّا أن يبقى أبو طالب في مكة أربع سنوات لا يرحل فيها بتجارته وهو رجل قليل المال كثير العيال في حاجة إلى العمل المتواصل في تجارته؛ ليحصل نفقات أولاده وأسرته وواجبات مكانه في قومه، وأيضًا فإن هذه الرواية اشتملت على هذه الكلمة التي توسل بها محمد عليه السلام إلى قلب عمه ليصحبه معه، وهي أقرب إلى أن تكون في مبدأ كفالته له لصغر سنه وجدة أحزانه على جده وأمه.

أما إذا بلغ اثنتي عشرة سنة، فقد اشتد عوده ومرن على العمل فتبعد أن تكون وسيلته إلى عمه هذا اللون من الاستعطاف الرقيق الرحيم، ولعل رغبة محمد عليه السلام في سفرة الراهب بحيرا كانت لقصد مشاركته في العمل التجاري تمرينًا ومساعدة لعمه؛ لأن سنه ـ إذ ذاك ـ كانت مؤهلة للمشاركة والتمرين.

لم يكن من المعهود في حياة الناس ولا الذين أوتوا عقولاً لماحة، وقلوبًا يقظة واعية، وأرواحًا مشرقة مضيئة أن تمر بهم أحداث في طريقهم، وهم بعيدون عن الجو الطبيعي والاجتماعي الذي عاشوا بين جنباته، ولا يكون لهذه الأحداث أثر في أنفسهم خصوصا إذا كانت الأحداث تمسهم من قريب أو بعيد، فلابد أن سفر محمد ﷺ إلى الشام كان ذا أثر في نفسه، فهو قد رأي قومًا غير قومه، وعادات غير عاداتهم، وتفكيرًا غير تفكيرهم، وعقائد غير عقائدهم، ومتعبدات غير متعبداتهم، وأخلاقًا غير أخلاقهم، ومعيشة غير معيشتهم، وجوًا غير جوهم، وبلادًا غير بلدهم، وجرت أحاديث وأحداث كان هو محورها وقطب دائرتها.

وكان محمد ﷺ من الذكاء والفطانة ولقانة القلب ولطف الخلق وإشراق الروح وضياء العقل وثقوب الذهن ورجاحة التفكير بالمكان الأرفع، فلا يمكن أن تمر به هذه الصور ثم لا تترك أثرًا في نفسه يرجع به إلى بلده ويأخذ حيزًا من حياته وتفكيره، ولكنه الأثر الذي تتسع له

حياة طفل في الثانية عشرة من عمره نشأ نشأة صقلها اليتم، وهذبها كرم النحيزة وشرف الأصل، وطهارة الأعراق، وعزة المنبت، مع رعاية الله وحفظه عن التدنس بدنس البيئة الجاهلية وأوضارها.

عاد محمد ﷺ إلى مكة من رحلته وقد علم ما تحدث به الرهبان عنه مما دعا عمه إلى الإسراع به خوفًا عليه من غوائل اليهود، فأي صورة ارتسمت في نفس محمد ﷺ لهذه الأحاديث التي تتحدث عن النبوة والوحي، وعن هذا الغلام اليتيم الأمي الذي سيكون نبي هذه الأمة، فما النبوة؟ وما الوحي؟ ومتى؟ وكيف؟ هذه أسئلة من الممكن القريب أن تكون دارت في تفكير محمد ﷺ وهو عائد إلى مكة، وهو يرى أهلها يسبحون في عمياء الوثنية الجاهلة البليدة، وهو يعتز لهم في أعيادهم ومواسمهم وينأى بجانبه كارهًا مبغضًا لأصنامهم، راثيًا لأحوالهم، متعجبًا من ضلال عقولهم، ولكن هل حظي محمد ﷺ من داخل نفسه، أو مما يحيط به من عوامل وعوالم بجواب عن هذه الأسئلة؟

ليس في حياته ﷺ قبل البعثة ما يشعر بشيء سوى أنه وجه إلى لون من الحياة يملؤها الإحساس بعظمة الخالق جل شأنه، والشعور بسلطان قدرته المبسوط على الوجود، ومن هنا كان جوابه على تعجيب عمه له من أقوال الرهبان وأحاديثهم عنه وعن نبوته: «أي عم: لا تنكر لله قدرة».

رعيه عليه السلام الغنم

ومن هنا ـ أيضًا ـ كانت عزلته عن حياة قومه، تلك الحياة الصاخبة الجوفاء، ومن هنا كان ميله إلى الصحراء وفضائها الذي لا يتناهي، فما أشبه هذه الصحراء في امتدادها بالفكرة التي تملأ نفس محمد عليه السلام، ومن هنا كان ميله إلى الهدوء تحت ظلال الأشجار أو قلل الجبال، ولكن محمدًا عليه السلام شاب يستقبل الرجولية فلابد له أن يعمل ليعيش شريفًا كريمًا، فحسب عمه ما يحمل من ثقل عياله، وحسبه ما أسبغ عليه من حب ورعاية أبوية منذ حفظ وصية جده فيه، فليعمل محمد ﷺ بنفسه، وليسع ليعيش من كده، فهو شاب كريم الأخلاق، قوى البنيان، قويم السيرة، أمين محبوب بين قومه، كلهم يوده ويحب أن يعمل معه، ولكن أي عمل هذا الذي يرضى هدوء محمد ﷺ؟.

إنه وهو طفل في المهد كان يخرج في بيداء بني سعد مع إخوته ولداته يرعون الغنم، فما أيسر هذا لعمل وما أقربه إلى نفسه، إنه عمل يتيح له الهدوء الذي تتطلبه نفسه الكريمة، ويتيح له المتعة بجمال الصحراء، ويتيح له التطلع إلى مظاهر جلال الله في عظمة الخلق، ويتيح له مناجاة الوجود في هدأة الليل، وظلال القمر، ونسمات الأشجار، ويتيح له لونًا من التربية النفسية من الصبر والحلم والأناة، والرأفة والرحمة والعناية بالضعيف حتى يقوى، وزم قُوى القوي حتى يستمسك الضعيف ويسير بسيره، وارتياد مشارع الخصب والري،

وتجنيب الهلكة ومواقع الخوف من كل ما لا تتيحه حياة أخرى بعيدة عن جو الصحراء وهدوئها، وسياسة هذا الحيوان الأليف الضعيف، وهذا لون من الحياة اختاره القدر الإلهي لكل من اصطفاهم الله لرسالته في سياسة الخلق، وتعليمهم شرائع الحياة الصالحة، وأدب العبودية، ومعرفة الخالق، ودلائل قدرته في صنائعهن.

وقد ذكر القرآن قصة موسى عليه السلام مع بنتي الرجل الصالح وسقيه لهما أغنامهما، وانتهاء القصة إلى تأجيره نفسه ثماني حجج يرعى فيها أغنام هذا الشيخ الذي تذكر الرواية التاريخية أنه شعيب نبي الله عليه السلام، وذكر نبينا محمد ﷺ عددًا من الأنبياء عملوا في شبابهم رعاة للغنم، ففي الحديث الصحيح الذي رواه البخاري عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ما بعث الله نبيًّا إلا راعى غنم» فقال له أصحابه: وأنت يا رسول الله؟ قال: «وأنا رعيتها لأهل مكة بالقراريط».

وقد أفاد محمد عليه السلام من العمل الكريم خبرة بشئون البادية ونباتها، فقد روي أن بعض أصحابه مَرَّ عليه بثمر الأراك فقال لهم: «عليكم بما اسْوَدَّ منه، فإني كنت أجتنيه إذ أنا راعى الغنم» قالوا: يا رسول الله ورعيتها؟ قال: «نعم، وما من نبي إلا قد رعاها».

وعن جابر بن عبد الله من حديث الزهري قال: كنا مع النبي ﷺ نجنى الكباث[1] فقال: «عليكم بالأسود منه فإنه أطيبه، فإني كنت أجنيه

(١) الكباث: نضيج الأراك.



إذ كنت أرعى الغنم» قلنا وكنت ترعى الغنم يا رسول الله؟ قال: «نعم، وما من نبي إلا قد رعاها».

وروي ابن سعد قال: كان بين أصحاب الغنم وبين أصحاب الإبل تنازع، فاستطال عليهم أصحاب الإبل، فبلغنا أن النبي ﷺ قال: «بعث موسى عليه السلام وهو راعى غنم، وبعث داود عليه السلام وهو راعى غنم، وبعثت وأنا أرعى غنم أهلي بأجياد»[1].

(١) أجياد: مكان بمكة كان مخصبًا.



محمد ﷺ بين أترابه

كان محمد ﷺ في طفوليته طفلاً كأحسن ما يكون الأطفال ذكاءً ونشاطًا، وطهارة نفس، وصفاء قريحة، وتوقد ذهن، وسرعة بديهة، وكان في شبابه شابًا كأفضل ما يكون الشباب رجاحة عقل، وقوة أيد، واستواء بنية، ودماثة خلق، فهو في طفولته كان يخرج مع إخوته من الرضاعة في بني سعد يلعب معهم كما يلعب الأطفال، ويتحدث عن ذلك بعد بعثته فيقول: فبينما أنا ذات يوم منتبذ من أهلي في بطن وادٍ مع أتراب لي من الصبيان نتقاذف بيننا بالجلة إذ أتانا رهط ثلاثة».

وعن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ كان يلعب مع الصبيان فأتاه آت فأخذه فشق بطنه، وكان جده عبد المطلب يقول لحاضنته ـ بعد ما رأي وسمع تطلع أهل الكتاب إليه وأحاديثهم عنه ـ: «يا بركة لا تغفلي عن ابني فإني رأيته مع غلمان قريبًا من السدرةً، ولما هاجر ﷺ إلى المدينة المنورة رأي ملاعب طفولته فيها فذكرها وذكر من كان يلعب معه فيها، وذكر ألوانًا من اللعب والرياضة كان يطيب له ولأترابه من الفتيان والفتيات أن يتريضوا بها.

فقد روي أنه لما نظر إلى أطم بني عدي بن النجار عرفه، وقال: «كنت ألاعب أنيسة ـ جارية من الأنصار ـ على هذا الأطم، وكنت مع غلمان من أخوالي نطير طائرًا كان يقع عليه».. وتحدث عن لون من

الرياضة كان يظن ألا يعتني بها إلا أهل الأنهار وسكان سواحل البحار، وهي رياضة العوم والسباحة، ولكن الفطر السليمة يحبب إليها حتى في ألعابها كل لون محبب مفيد، وفي ذلك يقول النبي ﷺ متحدثًا عن طفولته: «وأحسنت العوم في بئر بني عدي بن النجار».

وكان يتحدث عن حفظ الله ـ تعالى ـ له في صغره ورياضة طفولته فيقول: «لقد رأيتني في غلمان من قريش ننقل الحجارة لبعض ما يلعب الغلمان، كلنا قد تعرى وأخذ إزاره وجعله رقبته يحمل عليه الحجارة، فإني لأقبل معهم كذلك وأدبر إذ لكمنى لاكم لا أراه لكمة وجيعة ثم قال: شد عليك إزارك فأخذته فشددته عليَّ ثم جعلت أحمل الحجارة على رقبتي وإزارى عليَّ من بين أصحابي».

ولم يكن حفظ الله ـ تعالى ـ له عن بعض معايب الجاهلية ليصرفه عن مشاركة لداته وأقرانه من الغلمان والأطفال مع رعاية ما يرشد إليه من الخير والأدب، ففي هذا الحديث تراه يتحدث عن عادة شائعة بين أطفال البوادي والريف هي عادة التكشف والتعري في ألعابهم ورياضتهم وبعض أعمالهم، وهي عادة تعيبها الآداب الراقية والعادات الحضرية، وتنكرها عوارف المجتمعات الفاضلة، ومحمد ﷺ أرادته المقادير الإلهية ليكون في تمام رجولته هاديًا ومرشدًا، والهداة المرشدون أكمل الناس أدبًا، وأرقاهم عادة، وأحسنهم صنعًا، فطرة

يفطرهم الله عليها، وتأديبًا يؤدبهم الله به، وإعدادًا صالحًا يعدهم له في منشئهم ومرباهم، ولكنه تأديب وإعداد لا يخرجهم عن طبيعة الإنسان التي فطرهم الله عليها.

فمحمد ﷺ أخذ مع أقرانه في رياضتهم ينقل الحجارة على الصورة التي ألفها الغلمان في البوادي والحراج، وهم ألفوا التعري ليقوا بأزرهم أجسامهم الغضة من ألم الحجارة، فكانوا يضعونها على رقابهم يحملون عليها الحجارة، فأُرْشِد بما شاء الله إلى أدب اجتماعي لا يصلح أن يُجَرَّدَ منه الهداة المرشدون في جميع مراحل حياتهم، فأسرع إلى الامتثال وأخذ عليه إزاره وأقبل على رياضته مع أترابه يحمل الحجارة على رقبته وإزاره عليه من بين أصحابه، ولم ينفصل عنهم ويهجر لعبتهم المحببة، بل آثر أن يبقى معهم وأن يستمر في رياضتهم متحملاً ألم حمل الحجارة دون وقاية في سبيل التكمل بهذا الأدب الاجتماعي النبيل.

وهكذا كانت طفولة محمد ﷺ طفولة مرحة محببة يحوطها الله ـ تعالى ـ برعايته، ويرعاه فيها بعنايته، فشب محفوظًا من أقذار الجاهلية وشنائتها ومعايبها لما يريد الله من كرامته ورسالته.

قال ابن سعد في الطبقات: وشب رسول الله ﷺ مع أبي طالب يكلؤه الله ويحفظه ويحوطه من أمور الجاهلية ومعايبها لما يريد الله به

من كرامته، حتى بلغ أن كان رجلاً أفضل قومه مروءة، وأحسنهم خلقًا، وأكرمهم مخالطة، وأحسنهم جوارًا، وأعظمهم حلمًا وأمانة، وأصدقهم حديثًا، وأبعدهم من الفحش والأذي، وما رُئِيَ ملاحيًّا ولا مماريًّا أحدًا حتى سماه قومه «الأمين»، لما جمع الله له من الأمور الصالحة.

وفي سيرة ابن هشام من طريق ابن إسحاق: فشب رسول الله ﷺ والله ـ تعالى ـ يكلؤه ويحفظه ويحوطه من أقذار الجاهلية لما يريد به من كرامته ورسالته حتى بلغ أن كان رجلاً أفضل قومه مروءة، وأحسنهم خلقًا، وأكرمهم حسبًا، وأحسنهم جوارًا، وأعظمهم حلمًا، وأصدقهم حديثًا، وأعظمهم أمانة، وأبعدهم من الفحش والأخلاق التي تدنس الرجال تنزهًا وتكرمًا، حتى ما اسمه في قومه إلا «الأمين» لما جمع الله فيه من الأمور الصالحة.

محمد ﷺ يشهد حرب كنانة وقيس في يوم الفجار

الحرب سنة من سنن العرب المألوفة التي قضت بها عليهم حياتهم الاجتماعية والاقتصادية في بيئتهم الطبيعية التي وضعهم الله فيها، وتاريخهم مشحون بالحديث عنها وتعداد أيامها التي شهرت بين قبائلها، وأدبهم ـ شعره ونثره ـ مفعم بأخبارها نصرًا وهزيمة؛ شجاعة وجبنًا، فروسية وبطولة حتى كادت تستوعب مناحي الحياة كلها، والمتقصي لأسباب تلك الحروب التي استأثرت بالحياة العربية وشغلت العرب في جزيرتهم بأنفسهم يجد في كثرتها توافه ما كانت تستأهل أن تكون دوافع إلى تسعير نيران قتال تأكل الرجال أكلاً، وتُشَرِّدُ الأطفال، وتُرَمِّلُ النساء، وتُذِلُّ الأعزاء، وتُفْزِعُ الآمنين، ولكنها الطبيعة والفراغ، والحاجة هي التي تقف من وراء توافه الأمور فتذكيها نارًا تلتهب.

بيد أن أيامًا من أيام تلك الحروب كانت أسبابها تتصل بالكرامة القومية أو الدفاع عن النفس، فكانت جديرة أن تثبت في تاريخ العرب لتسجل لهذا الشعب الكريم طبيعة من طبائعه الغلابة، تلك هي طبيعة الأنفة عن قبول الضيم والتسامي عن الرضا بالذل كالذي نقرؤه في دواعي حرب ربيعة وبكر التي بدأت بقتل كليب سيد ربيعة في ناقة البسوس ـ خالة جساس بن مرة ـ فإنه كان يكمن وراء ذلك استذلال

كليب لبني عمومتهم من البكريين، حتى امتلأت قلوبهم ولاسيما شبابهم بالضغينة والغيظ المحنق، فكان هذا الحادث التافه الصغير منفذًا إلى تلك العظائم المدمرة والحروب المستعرة ردًّا على كبرياء ربيعة في بطر كليبها وبأوه، وكالذي نقرأ في دوافع قتل حجر ملك كندة وأبي امرئ القيس الشاعر، فقد روي التاريخ من تعاليه واسبطراره على بني أسد ما أحرق أكبادهم غيظًا فانتقموا بقتله لكرامتهم وشرفهم، واستعرت بين أسد وكندة حروب أفنت العديد من القبيلتين.

ومن هذا القبيل يوم فجار قيس وكنانة الذي شهده محمد ﷺ في شبابه مع عمومته فقد قيل في سببه أن النعمان بن المنذر ـ ملك الحيرة ـ كان قد تعود إرسال لطيمة (نوافح المسك) إلى سوق عكاظ لتباع هناك، وكان يتخذ لخفارتها في طريقها على أحياء العرب رجلاً من رجالات العرب مرهوبي السلطان، وكان عنده في مجلسه يومئذ البراض بن قيس الكناني ـ وكان رجلاً فاتكًا خليعًا قد خلعه قومه لكثرة شره ـ وعروة بن عتبة بن جعفر بن كلاب القيسي المعروف بالرحال، فقال النعمان: من يجير لي لطيمتي هذه حتى يبلغها عكاظ، فقال البراض: أبيت اللعن أنا أجيرها على كنانة. فقال النعمان: إنما أريد من يجيرها على كنانة وقيس.

فقال عروة: أكلب خليع يجيرها لك على أهل الشيح والقيصوم من أهل تهامة وأهل نجد، فغضب البراض وقال: وعلى كنانة تجيرها يا

عروة؟ قال عروة: وعلى الناس كلهم فدفع النعمان لطيمته إلى عروة الرحال وأمره بالمسير بها فتبعه البراض وتحين غفلته فقتله، واستاق العير إلى عكاظ، وفي طريقه لقي بشر بن أبي خازم الأسدي الشاعر، وأمره أن يلقي بالخبر إلى عبد الله بن جدعان وحرب بن أمية في جماعة من رؤوس كنانة، فأخبرهم فخرجوا موائلين منكشفين إلى الحرم بعد أن ألقوا إلى سيد قيس البراء بن مالك ملاعب الأسنة بخدعة حتى لا يستوحش هو وقومه وأهل السوق من خروجهم المفاجئ.

فلما فشا الخبر واستيقنه قيس قال البراء: ما كنا من قريش إلا في خدعة، وخرجت قيس في آثار كنانة فأدركوهم، وقد دخلوا الحرم فلم يقع بينهم هذا العام قتال، وقيل: بل أدركوهم قبل الحرم فاقتتلوا حتى دخلت كنانة الحرم مع الليل فحجز ذلك بينهم، وتواعدوا إلى مثل هذه الأيام من العام المقبل، وأخذ كل فريق يجمع جموعه، وفرقت قريش السلاح في كنانة وحلفائها من الأحابيش، وخرجوا للموعد على كل بطن منهم قائد، وكان على بني هاشم الزبير بن عبد المطلب، وإخوته أبو طالب وحمزة والعباس ومعهم رسول الله ﷺ وكانت سنه ـ فيما يرويه ابن هشام عن أبي عبيدة وأبي عمرو بن العلاء ـ خمس عشرة سنة، وفيما يرويه ابن إسحاق وابن سعد عشرين سنة، ولعل هذا الاختلاف منظور فيه إلى بداءة الحرب ونهايتها؛ لأنها كما يقول المؤرخون مكثت أعوامًا، فقد تكون سنه عند بداءتها خمس عشرة سنة

وبذلك أخذ ابن إسحاق، وتكون سنه عند نهايتها بالصلح بين الفريقين عشرين سنة وبذلك أخذ رواة ابن سعد.

وقد كانت الجولة الأولي لقيس على كنانة؛ ثم عادت إلى كنانة فأسرفت في القتل من قيس وقتلوهم قتلاً ذريعًا حتى نادى عتبة بن ربيعة ـ وهو يومئذ شاب ما كملت له ثلاثون سنة ـ إلى الصلح فاصطلحوا على أن تدى قريش ما قتلت فضلاً عن قتلى قيس، ووضعت الحرب أوزارها.

وقد تحدث رسول الله ﷺ عن شهوده الحرب في يوم الفجار.. قال ابن هشام: وشهد رسول الله ﷺ بعض أيامهم؛ أخرجه أعمامه معهم؛ وقال رسول الله ﷺ: «كنت أنبل على أعمامي» أي أرد عليهم نبل عدوهم إذا رموهم بها؛ وهذا الموقف يناسب ما ذكر في سنه باعتبار بداءة الحرب.

وقد روي ابن سعد أنه ﷺ رمى فيها بأسهم، وهذا يلائم ما ذكر من سنه؛ فقد ذكر عن رسول الله ﷺ أنه قال ـ وهو يذكر الفجار ـ: «قد حضرته مع عمومتي ورميت فيه بأسهم، وما أحب أنى لم أكن فعلت».

محمد ﷺ يشهد حلف الفضول

كان حلف الفضول أكرم حلف سمع به في الجاهلية وأشرفه في العرب، وكان بعد الفجار بأشهر، وأول من دعا إليه وقام بأمره الزبير بن عبد المطلب عم رسول الله ﷺ، وكان سببه أن رجلاً من زبيد قدم مكة ببضاعة فاشتراها منه العاص بن وائل فحبس عنه حقه، فاستعدى عليه الزبيدي الأحلاف: عبد الدار ومخزومًا وجمحًا وسهمًا، فأبوا أن يعينوا على العاص بن وائل وانتهروا الرجل الزبيدي، فلما رأي منهم الشر أوفي على أبي قبيس عند طلوع الشمس - وقريش في أنديتهم حول الكعبة فنادى بأعلى صوته:

يا آل فهر لمظلوم بضاعته
ببطن مكة نائِيَ الدار والنفر
ومحرم أشعث لم يقض عمرته
يا للرجال وبين الحجر والحجر
إن الحرام لمن تمت كرامته
ولا حرام لثوب الفاجر الغدر

فقام الزبير بن عبد المطلب، وقال: ما لهذا مترك، فاجتمعت هاشم وزهرة وتيم بن مرة في دار عبد الله بن جدعان فصنع لهم طعامًا، وتحالفوا في ذي القعدة في شهر حرام، فتعاقدوا وتحالفوا بالله ليكونن يدًا واحدة مع المظلوم على الظالم حتى يؤدى إليه حقه، ما بل بحر

صوفه ومارسا ثبير وحراء مكانهما، وعلى التآسي في المعاش، فسمت قريش ذلك الحلف حلف الفضول، وقالوا: لقد دخل هؤلاء في فضل من الأمر، ثم مشوا إلى العاص ابن وائل فانتزعوا منه سلعة الزبيدي، فدفعوها إليه، وفي ذلك يقول الزبير بن عبد المطلب:

حلفت لنعقدن حلفًا عليهم		وإن كنا جميعًا أهل دار
نسميه الفضول إذا عقدنا		يعزيه الغريب لذي الجوار
ويعلم من حوالي البيت أنَّا		أباة الضيم نمنح كل عار

ويقول أيضًا:

إن الفضول تعاقدوا وتحالفوا		ألا يقيم ببطن مكة ظالم
أَمْرٌ عليه تعاقدوا وتواثقوا		فالجار والمعتر فيهم سالم

وقد شهد النبي ﷺ هذا الحلف وسنه عشرون سنة، وأثنى عليه حين ذكره في الإسلام، فقال ـ فيما يرويه الواقدي عن جبير بن مطعم ـ: «ما أحب أن لي بحلف حضرته بدار ابن جدعان حمر النعم، وإني أغدر به: هاشم وزهرة وتيم تحالفوا أن يكونوا مع المظلوم ما بل بحر صوفه ولو دعيت به لأجبت، وهو حلف الفضول.

وروي ابن كثير من طريق الحميدي عن سفيان بن عيينة عن عبد الله عن محمد وعبد الرحمن ابني أبي بكرة قالا: قال رسول الله ﷺ: «لقد شهدت في دار عبد الله بن جدعان حلفًا لو دعيت به في الإسلام

لأجبت، تحالفوا أن يردوا الفضول على أهلها ولا يعز[1] ظالم مظلومًا» وقد بقى أثر هذا الحلف في الإسلام وتداعى به الحسين بن على وعبد الله بن الزبير والمسور بن مخرمة.

روي ابن هشام عن محمد بن إسحاق أنه قال: كان بين الحسين ابن على بن أبي طالب ـ رضى الله عنهما ـ وبين الوليد بن عتبة بن أبي سفيان ـ والوليد يومئذ أمير على المدينة، أمره عليها عمه معاوية بن أبي سفيان ـ منازعة في مال كان بينهما بذي المروة، فكأن الوليد تحامل على الحسين في حقه لسلطانه، فقال له حسين: احلف بالله لتنصفني من حقي أو لآخذن سيفي ثم لأقومن في مسجد رسول الله ﷺ، ثم لأدعون بحلف الفضول. فقال عبد الله بن الزبير ـ وهو عند الوليد حين قال حسين ما قال ـ: وأنا أحلف بالله لئن دعا به لآخذن سيفي ثم لأقومن معه حتى ينصف من حقه أو نموت جميعًا، وبلغت المسور بن مخرمة ابن نوفل الزهري فقال مثل ذلك، وبلغت عبد الرحمن بن عثمان بن عبيد الله التيمي فقال مثل ذلك، فلما بلغ ذلك الوليد بن عتبة أنصف الحسين من حقه حتى رضي.

(١) يعز: يغلب، ومنه المثل: من عزَّبز، أي من غلب سلب.

محمد ﷺ يعمل في بناء الكعبة

الناظر إلى موضع الكعبة المشرفة من مكة المكرمة، يراها في مطمئن من الأرض تحيط بها الجبال من كل جانب مما جعلها في الأزمنة الغابرة ـ قبل أن يعمر ما حواليها بالبيوت والمساكن ومشيد البنيان ـ عرضة لجوارف السيل، وقد حذرت قريش عواقب ذلك وخافت على البيت أن تهدمه السيول فأقامت ردمًا من حوله جعلوه مطلاً على البيت لحمايته، فكانت السيول تأتي من فوق هذا الردم حتى كادت تزيله، وكانت تعلوه حتى تدخل البيت فتصدع وخافوا أن ينهدم، وكانت أبواب البيت لاطئة بالأرض فسرقت خزائنه وهداياه التي كانت تهدي إليه فتلقي في بئر بداخله، فاجتمعت قريش وقالوا: لو بنينا بيت ربنا، وكان البيت شرفهم وعزهم فقسموه أرباعًا واقترعوا عليه، فوقع لبني عبد مناف وزهرة ما بين الركن الأسود إلى ركن الحجر، ووقع لتميم ومخزوم ما بين ركن الحجر إلى الركن اليماني، ووقع لسهم وجمح وعدى وعامر بن لؤي ما بين الركن اليماني إلى الركن الأسود، وقد شجعهم على بنائه أن سفينة مشحونة بمواد البناء من الرخام والخشب والحديد كان قيصر ـ ملك الروم ـ سرحها مع رجل رومي يقال له باقوم إلى بلاد الحبشة لبناء كنيستها التي أحرقها الفرس، فلما بلغت الشعبية وكانت مرفأ السفن قبل جدة لعبت بها العواصف فحطمتها، وتسامعت بها قريش فابتاعوا ما فيها، وكلموا باقوم فقدم

معهم إلى مكة، ولما أجمعوا أمرهم على هدم الكعبة وبنيانها، قام فيهم أبو وهب عمرو بن عابد بن عبد بن عمران بن مخزوم، وهو خال أبي رسول الله ﷺ، وكان رجلاً شريفًا ممدحًا فقال لهم:

يا معشر قريش لا تدخلوا في بنيانها من كسبكم إلا طيبًا، لا يدخل فيها مهر بغي، ولا بيع ربا، ولا مظلمة أحد من الناس، ثم أخذوا في البناء على مواضعهم، فلما انتهوا إلى حيث يوضع الركن الأسود من البيت قالت كل قبيلة: نحن أحق بوضعه، واختلفوا حتى خافوا القتال، ثم جعلوا بينهم حكمًا أول من يدخل من باب بني شيبة فيكون هو الذي يقضي بينهم؛ فكان أول داخل عليهم من ذلك الباب محمد بن عبد الله ﷺ فلما رأوه قالوا: هذا الأمين قد رضينا بما يقضي بيننا؛ ثم أخبروه الخبر؛ فوضع رسول الله ﷺ رداءه وبسطه في الأرض ثم وضع الحجر فيه ثم قال: ليأت من كل ربع من أرباع قريش رجل فكان في ربع بني عبد مناف عتبة بن ربيعة، وكان في الربع الثاني أبو زمعة، وكان في الربع الثالث أبو حذيفة بن المغيرة، وكان في الربع الرابع قيس بن عدي، ثم قال رسول الله ﷺ ليأخذ كل رجل منكم بزاوية من زوايا الثوب ثم ارفعوه جميعًا؛ فرفعوه ثم وضعه رسول الله ﷺ بيده في موضعه.

قال ابن سعد: فذهب رجل من أهل نجد ليناول النبي ﷺ حجرًا يشد به الركن؛ فقال العباس بن عبد المطلب: لا، ونحاه وناول العباس

رسول الله ﷺ حجرًا فشد به الركن؛ فغضب النجدي حيث نُحِّيَ فقال النبي ﷺ: إنه ليس يبني معنا في البيت إلا منا. فقال النجدي: يا عجبًا لقوم أهل شرف وعقول وسن وأموال عمدوا إلى أصغرهم سنًا وأقلهم مالاً فرأسوه عليهم في مكرمتهم وحرزهم كأنهم خدم له؛ أما والله ليفوتنهم سبقًا وليقسمن بينهم حظوظًا وجدودًا.

وقد بنت قريش البيت على أسسه التي هو عليها اليوم؛ وأخرجت منه الحجر قريبًا من سبعة أذرع؛ وكان داخلاً فيه على قواعد إبراهيم وإسماعيل ـ عليهما السلام ـ فلما قصرت النفقة بقريش تركوا منه ما تركوا.

روي الواقدي فيما ذكره عنه تلميذه محمد بن سعد عن عائشة ـ رضى الله عنها ـ قالت: قال رسول الله ﷺ: «إن قومك استقصروا من بنيان الكعبة، ولولا حداثة عهدهم بالشرك أعدت فيه ما تركوا منه، فإن بدا لقومك من بعدى أن يبنوه فهلم أريك ما تركوا منه» فأراها قريبًا من سبعة أذرع في الحجر. ثم قالت عائشة: قال رسول الله ﷺ في حديثه: «ولجعلت لها بابين موضوعين في الأرض شرقيًا وغربيًا، أتدرين لم كان قومك رفعوا بابها؟» فقلت له لا أدرى. قال: «تعززًا ألا يدخلها إلا من أرادوا».

قال الواقدي: حدثني عبد الله بن يزيد الهذلي عن سعيد بن عمر عن أبيه قال: رأيت قريشًا يفتحون البيت في الجاهلية يوم الاثنين ويوم

الخميس، فكان حجابه يجلسون على بابه فيرقي الرجل فإذا كانوا لا يريدون دخوله دفع فطرح فربما عطب.

وقال ابن كثير في البداية: وقد كانوا أخرجوا منها الحجر - وهو ستة أذرع أو سبعة أذرع من ناحية الشام - قصرت بهم النفقة، أي لم يتمكنوا أن يبنوه على قواعد إبراهيم، وجعلوا للكعبة بابًا واحدًا من ناحية الشرق، وجعلوه مرتفعًا لئلا يدخل إليها كل أحد فيدخلوا من شاءوا ويمنعوا من شاءوا.

وقد ثبت في الصحيحين عن عائشة - رضى الله عنها - أن رسول الله ﷺ قال لها: «ألم ترى أن قومك قصرت بهم النفقة ولولا حدثان قومك بكفر لنقضت الكعبة وجعلت لها بابًا شرقيًا وبابًا غربيًا، وأدخلت فيها الحجر» ولهذا لمّا تمكن ابن الزبير بناها على ما أشار إليه رسول الله ﷺ وجاءت في غاية البهاء والحسن كاملة على قواعد الخليل، لها بابان ملتصقان بالأرض شرقيًا وغربيًا، يدخل الناس من باب ويخرجون من الآخر، فلما قتل الحجاج ابن الزبير كتب إلى عبد الملك بن مروان - وهو الخليفة يومئذ - فيما صنعه ابن الزبير واعتقدوا أنه فعل ذلك من تلقاء نفسه، فأمر بإعادتها إلى ما كانت عليه، فعمدوا إلى الحائط الشامي فحصوه فأخرجوا منه الحجر ورصوا حجارته في أرض الكعبة فارتفع بابها وسدوا الغربي، واستمر الشرقي على ما كان عليه.

فلما كان زمن المهدى - أو أبيه المنصور - استشار مالكًا في إعادتها

على ما كان صنعه ابن الزبير، فقال مالك ـ رحمه الله ـ: إني أكره أن يتخذها الملوك ملعبة، فتركها على ما هي عليه، فهي إلى الآن كذلك، قلت: وهي في هذه الأوصاف والنعوت التي ذكرها باقية إلى يومنا هذا سنة ١٣٧١ هجرية ـ حيث متعنا الله بالنظر إليها في حجتنا الفريضة ـ زادها الله شرفًا وهيبة وجلالاً.

كان رسول الله ﷺ يعمل في بنائها مع عمومته، وينقل الحجارة إليها.. روي البخاري ومسلم من حديث عبد الرزاق عن عمرو بن دينار عن جابر بن عبد الله يقول: لما بنيت الكعبة ذهب رسول الله ﷺ ينقل الحجارة، فقال العباس لرسول الله ﷺ: اجعل إزارك على عاتقك من الحجارة ففعل فخر على الأرض وطمحت عيناه إلى السماء، ثم قام فقال: «إزاري» فشد عليه إزاره.

وروي البيهقي عن عكرمة، قال: حدثني ابن عباس عن أبيه أنه كان ينقل الحجارة إلى البيت حين بنت قريش البيت، قال العباس: وأفردت قريش رجلين رجلين، الرجال ينقلون الحجارة وكانت النساء تنقل الشيد فكنت أنا وابن أخي ، وكنا نحمل على رقابنا وإزرنا تحت الحجارة، فإذا غشينا الناس اتزرنا، فبينما أنا أمشى ومحمد أمامي فخر منبطحًا على وجهه فجئت أسعى وألقيت حجري وهو ينظر إلى السماء، فقلت: ما شأنك؟ فقام وأخذ إزاره فقال: «إني نهيت أن أمشى عريانًا» وكنت أكتمها من الناس مخافة أن يقولوا مجنون، ولما رآه عمه

أبو طالب يلبس إزاره قال له: يا ابن أخي اجعل إزارك على رأسك فقال: «ما أصابني ما أصابني إلا من التعري».

وقد اختلفت الروايات في سِنِّ رسول الله ﷺ يوم أن بنت قريش الكعبة، فذهب محمد بن إسحاق على أنه كان قد بلغ خمسًا وثلاثين سنة، وذلك بعد الفجار بخمس عشرة سنة، وكان الفجار بعد الفيل بعشرين سنة، وفي عام الفيل ولد رسول الله ﷺ، وإلى رأي ابن إسحاق جنح جمهور المؤرخين ومؤلفي السير والمغازي، وذهب مجاهد وعروة وجبير بن مطعم إلى أن سن رسول الله ﷺ كانت حين بنت قريش الكعبة خمسًا وعشرين سنة، لأنهم ذكروا أن بناء الكعبة كان قبل المبعث بخمس عشرة سنة، وكان مبعثه ﷺ على رأس أربعين سنة من عمره، ولعل البيهقي في ذكره بناء الكعبة قبل تزويج خديجة مال إلى قول مجاهد ومن معه في وقوع بناء الكعبة سنة التزوج بخديجة، هذا في أول العام وذاك في آخره.

محمد ﷺ يتسامى عن دنس الجاهلية

لو أن قلمًا عبقريًّا تتبع حياة محمد ﷺ منذ ولادته إلى أن بعثه الله رحمة للعالمين ليضعها في إطار يجمع بين ألوانها، ويوحد بين أحداثها وحوادثها لأخرج للحياة صورة إنسانية فطرية تمثل محمدًا ﷺ وقد ولدته أمه يتيمًا، تلقته بادية هوازن في بني سعد رضيعًا وفطيمًا وغلامًا ناشئًا، يخرج مع إخوته وأخواته يلعبون وراء بيوت الحي ويرتادون لأغنام قومهم المراعي ومشارع الماء وظلال الشجر، وفي هذه البادية الطلقة ينشأ على فصاحة البيان ورصانة المنطق وخصائص العرب مما تمدح به في رجولته فقال لأصحابه: «أنا أعربكم، أنا من قريش، ولساني لسان بني سعد بن بكر».

وترده البادية إلى مكة فيجد أمه وحيدة حزينة، ولكنها تجده غلامًا يسامى الفتيان في شبابه، فيملأ سمعها وبصرها، ويستحوذ على فراغ قلبها، ويُسَرِّى عنها أحزانها، وتحدثه عن أبيه ويغلبها الشوق لزيارة قبره فتتحمل به مع حاضنته إلى مثوى أبيه بيثرب، وهنالك ينفسح له مجال الطفولة فيلعب مع لداته وأترابه في ملاعب يذكرها بعد أن صارت يثرب المدينة المنورة بهجرته وهجرة أصحابه ونصرة أهلها لدعوته ورسالته ﷺ، ويتحدث عن تلك الملاعب حديث الغبطة والتحبب، ويراه يهود يثرب مع حاضنته فيلحظونه، ويطوفون حوله ويتحدثون

عنه، ويبلغ حديثهم مسامع أمه فتخشاهم عليه، وهي به غريبة عن بلدها وبلده وأهلها وأهله، فتسرع عائدة به إلى مكة.

وفي طريق عودتها يشهد محمد عليه السلام مرضها ووفاتها ويواريها قبرها، ويرجع مع حاضنته الوفية الأمينة وحيدًا بلا أم تكفله ولا أب يؤويه، ويتلقاه جده عطوفًا كريمًا فيرعاه ويكفله، حتى إذا بلغ ثماني سنين شهد موت هذا الجد العطوف، فبكى خلف سريره وهو يشيعه إلى مقره الأبدي، وعاد ليجد عمه - صنو أبيه وشقيقه - أبا طالب يفتح له ذراعيه ليضمه إلى صدره ويكون له نعم الكافل الحبيب.

وفي هذه الكفالة ومحمد ﷺ شاب في مهد الشباب يبتهج أمثاله بالأعياد والمحافل والمواسم، وما يجري فيها من مراسم وعادات وأساطير وخرافات وألعاب وسخافات، تمثل العقيدة والأخلاق ومألوف العرف ومنحدر الوراثة، لحظ أعمامه وعماته عليه انطواء عن أعيادهم ومحافلهم ومراسم عقائدهم وطقوس عباداتهم، ورأوا فيه بغضه لآلهتهم وتجافيًا عن تقديسها كما يقدسونها، فهو لا يطوف بها ولا يتمسح، ولا يتبرك بها ولا يقرب إليها، مع أنهم يرونه مع أترابه من الغلمان يلعبون ويمرحون بعيدًا عن أعيادهم ومواسمهم، فحدثوه في ذلك حتى رؤى الغضب في وجه عمه ومحبه وكافله أبي طالب، وغضب عليه عماته غضبًا شديدًا فعاتبنه حتى حملنه على المشقة والعنت.

روي ابن سعد في الطبقات من طريق شيخه الواقدي عن عكرمة عن ابن عباس قال: حدثتني أم أيمن قالت: كانت بوانة صنمًا تحضره قريش تعظمه، تنسك له النسائك، ويحلقون رؤوسهم عنده يومًا إلى الليل، وذلك يومًا في السنة، وكان أبو طالب يحضره مع قومه، وكان يكلم رسول الله ﷺ أن يحضر ذلك العيد مع قومه فيأبي رسول الله ﷺ ذلك حتى رأيت أبا طالب غضب عليه، ورأيت عماته غضبن عليه يومئذ أشد الغضب، وجعلن يقلن: إنا لنخاف عليك مما تصنع من اجتناب آلهتنا، وجعلن يقلن: ما تريد يا محمد أن تحضر لقومك عيدًا ولا تكثر لهم جمعًا.

قالت أم أيمن: فلم يزالوا به حتى ذهب فغاب عنهم ما شاء الله: ثم رجع إلينا مرعوبًا فزعًا فقال له عماته؛ ما دهاك؟ قال: «إني أخشى أن يكون بي لمم» فقلن: ما كان الله ليبتليك بالشيطان وفيك من خصال الخير ما فيك فما الذي رأيت؟ قال: «رأيت أنى كلما دنوت من صنم منها تمثل لي رجل أبيض طويل يصيح بي: وراءك يا محمد، لا تمسه» قالت أم أيمن: فما عاد إلى عيد لهم حتى تنبأ.

وقد قدمنا في قصة بحيرا الراهب أنه لما رأي قريشًا تحلف باللات والعزى سأل رسول الله ﷺ بهما، فقال له رسول الله ﷺ: «لا تسألني باللات والعزى شيئًا فوالله ما أبغضت شيئًا قط بغضهما»، وكذلك

قدمنا قصة تعريه لنقل الحجارة لبعض ما يلعب به الغلمان، وأنه لُكِمَ لكمة وجيعة ليشد عليه إزاره، وحديث البخاري في بناء الكعبة وَتَعَرِّيهِ مع عمه العباس لنقل الحجارة فلبط به فلما قام شد عليه إزاره، فقال له عمه: ما شأنك؟ فقال: «إني نُهِيْتُ أن أمشى عريانًا».

وروي البيهقي عن زيد بن حارثة مولي رسول الله ﷺ قال: كان صنم من نحاس يقال له أساف ونائلة يتمسح به المشركون إذا طافوا، فطاف رسول الله ﷺ (أي بالكعبة) وطفت معه فلما مررت مسحت به فقال رسول الله ﷺ: «لا تمسه»، قال زيد: فطفنا فقلت في نفسي لأَمَسَّنَّهُ حتى أنظر ما يكون، فمسحته فقال رسول الله ﷺ «ألم تُنْهَ»؟ قال زيد: فوالذي أكرمه وأنزل عليه الكتاب ما استلم صنمًا قط حتى أكرمه الله - تعالى - بالذي أكرمه وأنزل عليه.

وقد حفظه الله - تعالى - في شبابه من نزعات الشباب ودواعيه البريئة التي تنزع إليها الشبوبية بطبعها، ولكن لا تُلائِم وقار الهداة وجلال المرشدين.

روي ابن إسحاق والبيهقي والطبري عن محمد بن الحنفية عن أبيه على بن أبي طالب قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما هممت بشيء مما كان أهل الجاهلية يهمون به إلا ليلتين، كلتاهما عصمنى الله - عز وجل - فيهما، قلت ليلة لبعض فتيان مكة - ونحن في رعاء غنم أهلها

ـ فقلت لصاحبي: أبصر لي غنمي حتى أدخل مكة أسمر فيها كما يسمر الفتيان فقال: بلى! فدخلت حتى جئت أول دار من دور مكة سمعت عزفًا بالغرابيل والمزامير، فقلت: ما هذا؟ قالوا: تزوج فلان فلانة، فجلست أنظر، فضرب الله على أذني فوالله ما أيقظني إلا مس الشمس فرجعت إلى صاحبي، فقال: ما فعلت؟ فقلت: ما فعلت شيئًا، ثم أخبرته بالذي رأيت، ثم قلت له ليلة أخرى: أبصر لي غنمي حتى أسمر ففعل فدخلت فلما جئت مكة سمعت مثل الذي سمعت تلك الليلة، فسألت فقيل نكح فلان فلانة، فجلست أنظر فضرب الله على أذني، فوالله ما أيقظني إلا مس الشمس فرجعت إلى صاحبي فقال: ما فعلت؟ فقلت: لا شيء، ثم أخبرته الخبر، فو الله ما هممت ـ ولا عدت بعدهما لشيء من ذلك حتى أكرمني الله عز وجل ـ بنبوته.

ومن حديث رواه أبو نعيم: إن العباس بن عبد المطلب خرج في تجارة إلى اليمن في ركب فيهم أبو سفيان بن حرب، وكان أبو سفيان يجلس إلى حبر من اليهود، فسأله الحبر عن رسول الله ﷺ فلم يشفه أبو سفيان، قال العباس: فنادى الحبر فجئت فخرجت حتى جلست ذلك المجلس من الغد، وفيه أبو سفيان بن حرب والحبر، فقلت للحبر: بلغني أنك سألت ابن عمي عن رجل منا زعم أنه رسول الله وأخبرك أنه عمه، وليس بعمه ولكن ابن عمه، وأنا عمه وأخو أبيه، قال: أخو أبيه؟ فأقبل على أبي سفيان فقال: صدق؟ قال نعم صدق، فقلت:

سلني، فإن كذبت فيرد عليَّ، فأقبل عليَّ فقال: نشدتك هل كان لابن أخيك صبوة أو سفهة؟ قلت: لا وإله عبد المطلب، ولا كذب ولا خان، وأنه كان اسمه عند قريش الأمين.

ولما خرج محمد ﷺ في مال خديجة لِيُتْجِرَ لها حضر سوق بصرى فباع سلعته التي خرج بها واشترى غيرها، فكان بينه وبين رجل اختلاف في شيء، فقال له الرجل احلف باللات والعزى، فقال رسول الله ﷺ: «ما حلفت بهما قط وإني لَأَمُرُّ فأعرض عنهما» فصدقه الرجل وقال: القول قولك.

وروي ابن سعد عن الربيع بن خيثم قال: كان يُتَحَاكَمُ إلى رسول الله ﷺ في الجاهلية ثم اخْتُصَّ في الإسلام، وكان ﷺ مع تساميه عن دنس الجاهلية ومعايبها يشارك قومه في أعمال الخير والمكرمات، وقد سمعت قوله في حرب الفجار التي شهدها مع عمومته، وقوله في حلف الفضول الذي شهده في در ابن جدعان مع أشراف قريش، وسمعت روايات التاريخ، وصحيح الأحاديث في عمله في بناء الكعبة.

وكان ﷺ كلما تقدمت به سنه واقترب من كمال الرجولية ورأي ما عليه قومه من ضلالة الوثنية زاد انطواء على نفسه وَفَرَّ من المجتمعات إلى الانفراد والعزلة كراهة لحياتهم، وفرارًا من أقذارهم وسقطاتهم.

قال ابن كثير: وإنما كان رسول الله ﷺ يحب الخلاء والانفراد عن قومه لما يراهم عليه من الضلال المبين من عبادة الأوثان والسجود

للأصنام، وقويت محبته للخلوة عند مقاربة إيحاء الله إليه ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ.

وقال ابن إسحاق عن بعض أهل العلم: وكان رسول الله ﷺ يخرج إلى حراء في كل عام شهرًا من السنة يتنسك فيه ـ وكان من نسك قريش في الجاهلية ـ يطعم من جاءه من المساكين حتى إذا انصرف من مجاورته لم يدخل بيته حتى يطوف بالكعبة.

وهكذا كانت نشأة محمد ﷺ منذ ولدته أمه إلى أن بعثه الله رحمة للعالمين أكمل نشأة، تولاه الله ـ تعالى ـ فأدبه، ورباه فكمله، ورعاه فحفظه مما كان يغمر حياة قومه من وثنية وعادات مسترذلة حتى غدا أكمل إنسان، لم يستطع أحد أن يريبه في حياته أو يزن شبابه بغميزة أو ريبة على كثرة الخصوم والأعداء والمتربصين فضلاً من الله ونعمة، والله ذو الفضل العظيم.

محمد ﷺ يتجر في مال خديجة

تختلف الروايات هل خرج محمد ﷺ إلى الشام تاجرًا بعد خروجه مع عمه أبي طالب في سفرة بحيرا الراهب وقبل خروجه عاملاً في مال خديجة بنت خويلد.

فقد أخرج ابن منده عن ابن عباس أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه صحب النبي ﷺ وهو ابن ثمان عشرة سنة والنبي ﷺ ابن عشرين سنة، وهم يريدون الشام في تجارة حتى نزل منزلاً فيه سدرة فقعد في ظلها، وذهب أبو بكر إلى راهب يقال له بحيرا يسأله عن شيء فقال له: من الرجل الذي في ظل الشجرة؟ فقال له: محمد بن عبد الله بن عبد المطلب قال: هذا والله نبي، ما استظل تحت ظلها بعد عيسى إلا محمد، ووقع في قلب أبي بكر الصديق، فلما بعث النبي ﷺ اتبعه.

قال ابن حجر في الإصابة: إن صحت هذه القصة فهي سفرة أخرى بعد سفرة أبي طالب، وقد ضَعَّفَ القسطلاني سند هذه الرواية، وضَعْفُ السند لا يلزمه انتفاء القصة.. ونحن نميل إلى أنها سفرة أخرى بعد سفرة أبي طالب التي كانت فيها سن النبي ﷺ اثنتي عشرة سنة.

والجمهور على أن أبا بكر الصديق لم يكن في تلك السفرة، وقد أجزنا وجوده فيها ولم نستبعده، أخذًا برواية الترمذي المتقدمة، أما هذه السفرة فقد كانت فيها سن النبي ﷺ عشرين سنة، ولم يُذْكَرْ فيها

أبو طالب عم رسول الله ﷺ وذُكِرَ فيها أبو بكر، فالظاهر أن النبي ﷺ خرج في هذه السفرة مستقلاً يتجر لنفسه، وكان يصحبه فيها أبو بكر مع من كان في العير من تجار قريش، وكان قبلها منذ عاد به عمه أبو طالب من سفرة بحيرا مقيمًا بمكة يشتغل برعى الغنم، ويشهد مع عمومته حلف الفضول وحرب الفجار، فلما بلغ عمره عشرين سنة خرج في هذه السفرة مع عير قومه ليشتغل بالتجارة، ولعل هذه السفرة هي التمهيد الذي وجه خديجة إلى رغبتها في رسول الله ﷺ أن يتجر لها بمالها مع ما عرف به من الأمانة والصدق والعفة والسمو في الأخلاق.

روي الطبري وابن هشام وابن كثير عن ابن إسحاق قال: كانت خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصي امرأة تاجرة ذات شرف ومال تستأجر الرجال في مالها وتضاربهم إياه بشيء تجعله لهم منه، وكانت قريش قومًا تجارًا فلما بلغها عن رسول الله ﷺ ما بلغها من صدق حديثه وعظم أمانته وكرم أخلاقه بعثت إليه فعرضت عليه أن يخرج في مالها إلى الشام تاجرًا وتعطيه أفضل ما كانت تعطى غيره من التجار مع غلام لها يقال له ميسرة، فقبله منها رسول الله ﷺ، فخرج في مالها ذلك، وخرج معه غلامها ميسرة حتى قدما الشام فنزل رسول الله ﷺ في ظل شجرة قريبًا من صومعة راهب من الرهبان فأطلع الراهب رأسه إلى ميسرة فقال:

من هذا الرجل الذي نزل تحت هذه الشجرة؟ فقال له ميسرة: هذا

رجل من قريش، من أهل الحرم. فقال له الراهب: ما نزل تحت هذه الشجرة قط إلا نبي، ثم باع رسول الله ﷺ سلعته التي خرج بها واشترى ما أراد أن يشترى ثم أقبل قافلاً إلى مكة ومعه ميسرة، فكان ميسرة ـ فيما يزعمون ـ إذا كانت الهاجرة واشتد الحر يرى ملكين يظلانه من الشمس وهو يسير على بعيره، فلما قدم مكة على خديجة بمالها باعت ما جاء به فأضعفت أو قريبًا من ذلك، وحدثها ميسرة عن قول الراهب، وعما كان يرى من إظلال الملكين.

هذه الرواية تفيد أن خديجة هي التي رغبت في استئجار رسول الله ﷺ، وهي التي طلبت إليه ذلك لما سمعته عن صفاته النبيلة وأخلاقه الحميدة، وتخالفها في ذلك رواية الواقدي عن نفيسة بنت منبه، وهي عند ابن سيد الناس أتم سياقًا وأحسن مساقا قالت: لما بلغ رسول الله ﷺ خمسًا وعشرين سنة، وليس له بمكة اسم إلا الأمين لما تكاملت فيه خصال الخير، قال له أبو طالب: يا ابن أخي أنا رجل لا مال لي وقد اشتد الزمان علينا، وألحت علينا سنون منكرة، وليس لنا مادة ولا تجارة، وهذه عير قومك قد حضر خروجها إلى الشام، وخديجة بنت خويلد تبعث رجالاً من قومك في عيراتها فيتجرون لها في مالها ويصيبون منافع، فلو جئتها فعرضت نفسك عليها لأسرعت إليك وفضلتك على غيرك لما يبلغها عنك من طهارتك، وإن كنت لأكره أن تأتى الشام وأخاف عليك من يهود ولكن لا نجد من ذلك بدًّا.

وكانت خديجة بنت خويلد امرأة تاجرة ذات شرف ومال كثير وتجارة تبعث بها إلى الشام فتكون عيرها كعامة عير قريش، وكانت تستأجر الرجال، وتدفع إليهم المال مضاربة، وكانت قريش قومًا تجارًا ومن لم يكن تاجرًا من قريش فليس عندهم بشيء فقال رسول الله ﷺ: «فلعلها ترسل إليَّ في ذلك» فقال أبو طالب: إني أخاف أن تولي غيرك فتطلب أمرًا مدبرًا.. وبلغ خديجة ما كان من محاورة عمه له، وقبل ذلك ما بلغها من صدق حديثه وعظم أمانته وكرم أخلاقه، فقالت: ما علمت أنه يريد هذا، ثم أرسلت إليه، فقالت: إنه دعاني إلى البعثة إليك ما بلغني من صدق حديثك وعظم أمانتك وكرم أخلاقك، وأنا أعطيك ضعف ما أعطى رجلاً من قومك ففعل رسول الله ﷺ ولقي أبا طالب فذكر له ذلك، فقال إن هذا لرزق ساقه الله إليك.

فخرج مع غلامها ميسرة حتى قدما الشام فنزلا في سوق بصرى في ظل شجرة قريبًا من صومعة راهب يقال له «نسطورا»، فاطلع الراهب إلى ميسرة ـ وكان يعرفه ـ فقال يا ميسرة من هذا الذي نزل تحت هذه الشجرة؟ فقال ميسرة: رجل من قريش من أهل الحرم فقال له الراهب: ما نزل تحت هذه الشجرة إلا نبي، ثم قال له: في عينيه حمرة؟ قال ميسرة: نعم لا تفارقه. قال الراهب: هو هو وهو آخر الأنبياء، ويا ليت أنى أدركه حين يؤمر بالخروج.

فوعى ذلك ميسرة، ثم حضر رسول الله ﷺ سوق بصرى فباع

سلعته التي خرج بها واشترى فكان بينه وبين رجل اختلاف في سلعة، فقال الرجل: احلف باللات والعزى. فقال رسول الله ﷺ: «ما حلفت بهما قط وإني لأَمُرُّ فأعرض عنهما»، فقال الرجل: القول قولك، ثم قال لميسرة وخلا به: يا ميسرة هذا نبي، تجده أحبارنا منعوتًا في كتبهم، فوعى ذلك ميسرة ثم انصرف أهل العير جميعًا، وكان ميسرة يرى رسول الله ﷺ إذا كانت الهاجرة واشتد الحر يرى ملكين يظلانه من الشمس وهو على بعيره، وكان الله ـ عز وجل ـ قد ألقي على رسول الله ﷺ المحبة من ميسرة فكان كأنه عبد لرسول الله ﷺ، وباعوا تجارتهم وربحوا ضعف ما كانوا يربحون.

فلما رجعوا فكانوا بممر الظهران (واد قريب من مكة) قال ميسرة: يا محمد انطلق إلى خديجة فأخبرها بما صنع الله لها على وجهك، فإنها تعرف لك ذلك، فتقدم رسول الله ﷺ حتى دخل مكة في ساعة الظهيرة ـ وخديجة في علية لها معها نساء فيهن نفيسة بنت منية ـ فرأت رسول الله ﷺ حين دخل وهو راكب على بعيره وملكان يظلان عليه فأرته نساءها فعجبن لذلك ودخل عليها رسول الله ﷺ فخبرها بما ربحوا فَسُرَّتْ بذلك، فلما دخل عليها ميسرة أخبرته بما رأت فقال لها ميسرة: قد رأيت هذا منذ خرجنا من الشام، وأخبرها بقول الراهب نسطورا وقول الآخر الذي خالفه في البيع، وربحت تجارتها ضعف ما كانت تربح، وأضعفت رسول الله ﷺ ضعف ما سمت له.

وفي هذه الرواية ضروب من المعاني التاريخية، فهي تذكر أن أبا طالب هو الذي رغب إلى محمد ﷺ أن يعرض نفسه على خديجة بعد أن مَهَّدَ لهذه الرغبة بعذره وقلة ماله، وأن الزمان قد اشتد عليه والسنين المنكرة ألحت عليه وليس له مادة ثابتة في بلده ولا تجارة بعيدة يرجوها، وَبَيَّنَ له أنه يحرص عليه أشد الحرص ويذكر وصية بحيرا الراهب له في ألا يقدمه الشام حذر اليهود.

وهذا تصوير يقرب القصة من طبيعة النفوس والأشياء فيجعلها أقرب إلى الواقع التاريخي من تصوير رواية ابن إسحاق التي تقول: إن خديجة هي التي بعثت إلى رسول الله ﷺ بادئ ذي بدء فعرضت عليه العمل في مالها.

وفي هذه الرواية - أيضًا - لون من تصوير بعض خصائص الخلق الكريم الذي امتاز به محمد ﷺ، فعمه قد عرض عليه رغبته وحفها بلونين من الترغيب والإغراء: لون عاطفي ولون مادي، فالعاطفي تمثل في وصف حال أبي طالب من قلة المال واشتداد الزمان وكلب السنين، والمادي تمثل في إشعار محمد ﷺ أنه لا يرضى له أجرًا مثل أجر غيره من الرجال، بل لا يرضى له بدون ضعف رجل من الرجال، فما كان محمد ﷺ إلا أن رد على عمه في هدوء الرجل الذي يشعر أنه فوق هذه المغريات، فلا يعرض نفسه ولا يطلب من أحد شيئًا إلا أن يكون

مكرمة من مكارم الرجال، وقد تلطف مع عمه وترك المجال في يده واكتفي بقوله: «فلعلها ترسل إليَّ في ذلك».

ولكن أبا طالب حرصًا على منفعة مواتية يخشى إن هو تاني وتلبث أن تفوت فلا تعود، أظهر تخوفه ذلك لمحمد ﷺ عساه يبعث فيه شيئًا من اللهفة والحرص على عرض نفسه كما طلب منه فقال له: إني أخاف أن تولي غيرك فتطلب أمرًا مدبرًا.

وبقى محمد ﷺ في موقفه من العزة والتسامي فبلغ هذا الحوار خديجة فرأت منفذًا أرسلت منه صوتها تدعو محمدًا ﷺ وتعرض عليه العمل في مالها في إطار من التكريم والتعظيم يشعره أنها هي التي تتطلع إلى ذلك؛ ولكنها ما كانت تعلم أنه يريده، فلما بلغ أبا طالب ما كان بين محمد ﷺ وخديجة من اتفاق فرح فرحًا شديدًا، وقال لرسول الله ﷺ حين لقيه: هذا رزق ساقه الله إليك.

وفي هذه الرواية ـ أيضًا ـ ما يظهر من حرص عمومة رسول الله ﷺ وحذرهم اليهود، فقد علموا منذ سفرته الأولي وهو غلام في رفقة عمه أبي طالب وكان في العير معهم الحارث بن عبد المطلب من حديث الراهب بحيرا: أن اليهود يعرفونه بأوصافه ويحسدونه على ما يؤتيه الله من فضله، فهم يبغونه الغوائل لو قدروا عليه فمن هنا كان أعمامه يوصون به أهل العير في هذه السفرة حتى يكون بنجوة من كيد اليهود،

وقد قال له عمه أبو طالب ذلك في صراحة حين عرض عليه أمر خديجة؛ ولكنه اعتذر إليه أنه لا يجد بدًّا من سفره، وقد حفظ الله رسوله وأحاطه برعايته حتى كانت هذه السفرة بما كان فيها من الخير والبركة ذات أثر مبارك في حياة محمد ﷺ.

وذكر أبو جعفر الطبري وابن كثير وابن سيد الناس عن ابن شهاب الزهري أنه قال: لما استوى رسول الله ﷺ وبلغ أشده وليس له كبير مال استأجرته خديجة بنت خويلد إلى سوق حباشة، وهو سوق بتهامة، واستأجرت معه رجلاً آخر من قريش فقال رسول الله ﷺ وهو يحدث عنها: «ما رأيت من صاحبة لأجير خيرًا من خديجة ما كنا نرجع أنا وصاحبي إلا وجدنا عندها تحفة من طعام تخبئه لنا».

ولعل هذه الرواية تعنى سفرة أخرى في مال خديجة قبل سفرة الشام التي اتفق عليها جميع الرواة، فيكون رسول الله ﷺ قد آجر نفسه من خديجة ليعمل لها في مالها تاجرًا مرتين، مرة إلى سوق حباشة بتهامة من أرض الجزيرة العربية وهي أولاهما، وكان فيها غير منفرد بل كان له رفيق من قريش يشاركه في العمل، ولعل هذا الرفيق هو الذي أشار إليه أبو طالب في قوله لرسول الله ﷺ: يا ابن أخي قد بلغني أن خديجة استأجرت فلانًا ببكرين ولا نرى لك بمثل ما أعطته.

ومرة أخرى إلى الشام، وهي الثانية التي كان فيها رسول الله ﷺ مستقلاً بالعمل وليس معه من جهة خديجة سوى غلامها ميسرة

لخدمته، ويرشح ذلك ما رواه البيهقي عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «آجرت نفسي من خديجة سفرتين بقلوص.. «فهذا الحديث صريح في أنه ﷺ سافر في مال خديجة سفرتين، ولم تحدد في الحديث الجهة التي كان إليها السفر.

ورواية الجمهور حددت الشام، ورواية الزهري حددت سوق حباشة بتهامة، فَتُحْمَلُ كل سفرة على جهة بعينها لتتوافق روايات التاريخ، وظاهر قول أبي طالب المتقدم أن خديجة كانت قد تعاقدت مع القرشي ليسافر بمالها ببكرين، فلما علمت بما دار بين رسول الله ﷺ وعمه، وعرفت رغبة أبي طالب في أن يلى رسول الله ﷺ العمل في مالها، واعتذرت عن سبقها إلى استئجار القرشي بقولها: ما علمت أنه يريد هذا، لم تر مانعًا من إشراك رسول الله ﷺ مع القرشي اغتنامًا لفرصة استئجاره حتى إذا أتيحت لها فرصة استقلاله بالعمل أسرعت إلى انتهازها في المرة الثانية، وهي التي كان السفر فيها إلى الشام.

تزوج محمد ﷺ
خديجة رضى الله عنها

كان تقدير خديجة لمحمد ﷺ تقديرًا واقعيًّا دافعًا لها على أن تفكر في شأنه تفكيرًا آخر أكبر من كونه عاملاً في مالها يتجر لها فيه فيربح ويربح، إنها عرفت محمدًا بما عرفه به قومه أمينًا صدوق الحديث، عزوفًا عن الدنايا، طموحًا لعوالي الأمور، متاسميًا بنفسه عن مغامز المروءة، كسوبًا للخير؛ بل هي قد عرفت محمدًا أكثر مما عرفه قومه، عرفته عاملاً في مالها وصحبه في سفره غلامها الأمين ميسرة فحدثها عن أخلاق محمد ﷺ في السفر والعمل، وحدثها عما شهد من دلائل مستقبل هذا الفتى الكريم، وحدثها عن تنبؤات الرهبان، وحدثها عن مظاهر رعاية الله ـ تعالى ـ له، ورأت هي من مظاهر الرعاية ما عجبت منه نساؤها، وذكرت حديثًا كان حدثها به يهودي في نسوة اجتمعن معها في عيد من أعياد قريش يتصل بمستقبل محمد ﷺ في الحياة ومستقبل الحياة على يد محمد ﷺ.

قال الزرقاني في شرح المواهب: ذكر ابن إسحاق في المبتدأ قال: كان لنساء قريش عيد يجتمعن فيه، فاجتمعن يومًا فيه، فجاءهن يهودي فقال يا معشر نساء قريش إنه يوشك فيكن نبي فأيتكن استطاعت أن تكون له فراشًا فلتفعل فحصبنه وقبحنه وأغلظن له، وأغضت خديجة على قوله ولم تعرض فيما عرض فيه النساء ووقر ذلك في نفسها، فلما

أخبرها ميسرة بما رآه من الآيات وما رأته هي قالت: إن كان ما قال اليهودي حقًا ما ذاك إلا هذا. ثم هي امرأة خلية من الزوج، شريفة حسيبة، ذات مال كثير، يحتاج إلى يد أمينة تدبره وتنميه، ومحمد ﷺ في ذروة الشرف من قومه، أليس هو ابن عبد المطلب شريف قريش وسيدها؟ وهو أنبل فتى وأعقله، وأعظمه أمانة وأكمله مروءة، وهو خلى لم يتزوج وقد بلغ سن اكتمال الشباب فما يمنعها أن تكون زوجًا له وما يمنعه أن يكون زوجًا لها؟ فلتدس إليه صديقة من صديقاتها اللائي يتنسمن رغباتها فتلقي إليه هذه الرغبة إلقاءً عارضًا لتعرف مكانها من نفسه.

روي ابن سعد من طريق شيخه الواقدي عن نفيسة بنت منبه قالت: كانت خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصي امرأة حازمة جلدة شريفة مع ما أراد الله بها من الكرامة والخير، وهي يومئذ أوسط قريش نسبًا، وأعظمهم شرفًا، وأكثرهم مالاً، وكل قومها كان حريصًا على نكاحها لو قدر على ذلك، قد طلبوها وبذلوا لها الأموال، فأرسلتني دسيسًا إلى محمد ﷺ بعد أن رجع من عيرها من الشام، فقلت: يا محمد: ما يمنعك أن تزوج؟ فقال: «ما بيدي ما أتزوج به» قلت: فإن كفيت ذلك ودعيت إلى الجمال والمال والشرف والكفاءة، ألا تجيب؟ قال: «فمن هي؟» قلت: خديجة، قال: «وكيف لي بذلك؟» قلت: عليَّ، قال: «فأنا أفعل»، فذهبت فأخبرتها: فأرسلت إليه أن ائت

لساعة كذا وكذا، وأرسلت إلى عمها عمرو بن أسد ليزوجها فحضر ودخل رسول الله ﷺ في عمومته فزوجه أحدهم: فقال عمرو بن أسد: هذا البضع لا يقرع أنفه، وتزوجها رسول الله ﷺ وهو ابن خمس وعشرين سنة وخديجة يومئذ بنت أربعين سنة، ولدت قبل الفيل بخمس عشرة سنة.

في هذه الرواية أن خديجة هي التي تسامت بالرغبة في أن يكون محمد ﷺ زوجًا لها فدست إليه صديقتها نفيسة بنت منبه، وفيها أن محمدًا ﷺ كان واضح القصد، واضح العذر فهو لم يتكلف التأبي على الزواج، ولم يتظاهر بعدم حاجته إليه؛ بل لعله أبدى أنه في حاجة إليه، ولكن يمنعه من الإقدام أن يده لا تملك ما يتزوج به، لقد وضح الطريق وسهلت مهمة الصديقة الأمينة، ودعى محمد ﷺ، إلى الجمال والمال والشرف والعقل والكمال، إلى خديجة بنت خويلد سيدة نساء العالمين فأجاب. كفءً كريمًا وزوجها عمها، وزوج محمدًا ﷺ عمه وكانت خديجة في سن اكتمال الأمومة، وكان محمد ﷺ في سن اكتمال الشباب.

وفي هذا من أسرار الموافقات النفسية ما تضيق دون أدائه العبارة، لأن محمدًا ﷺ كان ـ بعد ماضى من عمره فيما قدر الله من ألوان الحياة الصارمة ـ إلى عاطفة الأمومة وحنانها وبرها أدنى منه حاجة إلى عاطفة

الزوجة وحبها، وخديجة كانت هي الزوجة في حبها، وهي الأم في حنانها وبرها، ومن ثم كانت خديجة امرأة واحدة لم تتكرر في الحياة.

هذه الرواية في تزوج محمد ﷺ بخديجة هي أثبت الروايات وأوفاها، وهي صريحة في أن الذي زوجها منه هو عمها عمرو بن أسد، وهذا مروي في حديث عروة عن عائشة، وحديث عكرمة عن ابن عباس، ففي حديث عائشة أن عمها عمرو بن أسد زوجها رسول الله ﷺ، وأن أباها مات قبل الفجار، وفي حديث ابن عباس: زوج عمرو بن أسد بن عبد العزى بن قصي خديجة بنت خويلد النبي ﷺ وهو يومئذ شيخ كبير لم يبق لأسد لصلبه يومئذ غيره.

وروي البيهقي أن عمار بن ياسر كان إذا سمع ما يتحدث به الناس عن تزويج رسول الله ﷺ خديجة وما يكثرون فيه يقول: أنا أعلم الناس بتزويجه إياها، إني كنت له إلفًا وخدنًا، وإني خرجت مع رسول الله ﷺ ذات يوم حتى إذا كنا بالحزورة أجزنا على أخت خديجة وهي جالسة على أدم تبيعها فنادتني فانصرفت إليها ووقف لي رسول الله ﷺ، فقالت: أما لصاحبك هذا من حاجة في تزويج خديجة؟ قال عمار: فرجعت إليه فأخبرته فقال: «بلى لعمري» فذكرت لها قول رسول الله ﷺ، فقالت: اغدوا علينا إذا أصبحنا وغدونا عليهم فوجدناهم قد ذبحوا بقرة وألبسوا أبا خديجة حلة، وصفرت لحيته، وكلمت أخاها فكلم أباه، وقد سقى خمرًا فذكر له رسول الله ﷺ ومكانه وسأله أن

يزوجه فزوجه خديجة وصنعوا من البقر طعامًا، فأكلنا منه ونام أبوها ثم استيقظ صاحيًا، فقال: ما هذه الحلة؟ وما هذه الصفرة؟ وهذا الطعام؟ فقالت له ابنته التي كانت قد كلمت عمارًا: هذه حلة كساكها محمد بن عبد الله ختنك، وبقرة أهداها لك فذبحناها حين زوجته خديجة، فأنكر أن يكون زوجه، وخرج يصيح حتى جاء الحجر، وخرج بنو هاشم برسول الله ﷺ فجاءوه فكلموه. فقال: أين صاحبكم الذي تزعمون أني زوجته خديجة؟ فبرز له رسول الله ﷺ فلما نظر إليه قال: إن كنت زوجته فسبيل ذلك، وإن لم أك فعلت فقد زوجته.

وروي الطبري عن ابن شهاب الزهري قال: وكان الذي زوجها إياه خويلد، وكانت التي مشت في ذلك مولاة مولدة من مولدات مكة، وكذلك عند ابن إسحاق، فقد جاء في روايته: لما أخبرها ميسرة بما أخبرها بعثت إلى رسول الله ﷺ فقالت له ـ فيما يزعمون ـ يا بن عم إني قد رغبت فيك لقرابتك ووسطيتك في قومك وأمانتك وحسن خلقك وصدق حديثك، ثم عرضت عليه نفسها، وكانت خديجة يومئذ أوسط نساء قريش نسبًا وأعظمهن شرفًا وأكثرهن مالاً، كل قومها كان حريصًا على ذلك منها لو يقدر عليه، فلما قالت ذلك لرسول الله ﷺ ذكر ذلك لأعمامه، فخرج معه حمزة بن عبد المطلب عمه حتى دخل على خويلد بن أسد فخطبها إليه فتزوجها.

وقد ساق ابن سعد في الطبقات رواية البيهقي مختصرة عن أبي



مجلز فقال: إن خديجة قالت لأختها انطلقي إلى محمد فاذكريني له، وإن أختها جاءت فأجابها بما شاء الله، وإنهم تواطؤوا على أن يتزوجها رسول الله ﷺ، وإن أبا خديجة سقى من الخمر حتى أخذت فيه ثم دعا محمدًا ﷺ فزوجه، وألقيت على الشيخ حلة فلما صحا قال: ما هذه الحلة؟ قالوا: كساكها ختنك محمد فغضب وأخذ بنو هاشم السلاح وقالوا: ما كانت لنا فيكم رغبة، ثم إنهم اصطلحوا بعد ذلك.

قال ابن سعد: أخبرنا محمد بن عمر ـ الواقدي ـ بغير هذا الإسناد أن خديجة سقت أباها الخمر حتى ثمل ونحرت بقرة وخلقته بخلوق وألبسته حلة حبرة، فلما صحا قال: ما هذا العقير؟ وما هذا العبير؟ وما هذا الحبير؟ قالت: زوجتني محمدًا قال: ما فعلت، أنا أفعل هذا وقد خطبك أكابر قريش فلم أفعل.

قال الواقدي: فهذا كله عندنا غلط ووهل (وهم وضعف)، والثبت عندنا المحفوظ عن أهل العلم أن أباها خويلد بن أسد مات قبل الفجار، وأن عمها عمرو بن أسد زوجها رسول الله ﷺ.

وَنَقْدُ الواقدي مُنْصَبٌّ على جميع الروايات التي أَسْنَدَتْ تزويج خديجة من رسول الله ﷺ إلى أبيها خويلد، وهو نقد تاريخى ينسفها نسفًا ولا يقيم لها وزنًا، ولو لم ينهض الواقدي به لنادى بزيف ما فيها من تدليس وخداع تأباه أخلاق العرب عامة وتنأي عنه مكارم محمد

ﷺ، وتساميه عن هذه الأساليب المدلسة التي لم يعرف عنه في حياته أنه سلك قط سبيلها أو حام حولها.

قال الزرقاني في شرح المواهب: وفي سيرة الزهري ـ وهي أول سيرة ألفت في الإسلام أنه ﷺ قال لشريكه الذي كان يتجر معه في مال خديجة: هلم فلنتحدث عند خديجة، وكانت تكرمهما وتنفحهما، فلما قاما من عندها جاءت امرأة فقالت له: جئت خاطبًا يا محمد؟ قال: كلا قالت: ولم؟ فوالله ما في قريش امرأة وإن كانت خديجة إلا تراك كفؤًا لها، فرجع ﷺ خاطبًا لخديجة مستحيًا منها.

وهذه المرأة المذكورة في هذه الرواية تحتمل أن تكون هي أخت خديجة المذكورة في رواية عمار بن ياسر، ويحتمل أنها هي نفيسة بنت منبه، ويحتمل أنها المولدة المذكورة في رواية الزهري عند الطبري، وهذا أقرب الاحتمالات لاتفاق مصدر الروايتين فيحمل المطلق منهما على المقيد، ويرد المبهم إلى المفسر.

وهذه الرواية تشير إلى أن حديثها مشى به المتصلات بخديجة من صواحباتها فأرادت هذه المرأة الوسيطة أن يكون الهمس جهرًا، والرغبة حقيقة واقعية، فحدثت محمدًا ﷺ إثر خروجه وصاحبه من عند خديجة لتشعره بالرغبة فيه حتى يقدم في غير تردد، وجعلت خديجة مثلاً في رفعة الشرف، وهي تقصدها بالحديث قصدًا لا يشرك

معها غيرها، ولكنها صاغت قصدها في عبارة لا يدرك لحنها إلا المفردون من الحذاق، ولما أدرك محمد ﷺ قصدها أدركه من الحياء ما يدرك الرجل الكريم، فرجع على استحياء منه خاطبًا خديجة.

وعند ابن سعد أن خديجة قالت له: اذهب إلى عمك فقل له: عَجِّلْ إلينا بالغداة، فلما جاء قالت: يا أبا طالب ادخل على عمي فقل له يزوجنى من ابن أخيك، فقال أبو طالب، هذا صنع الله.

وذكر المبرد أن أبا طالب خطب خطبة الأملاك فقال: الحمد لله الذي جعلنا من ذرية إبراهيم، وزرع إسماعيل وضئضئ (أصل) معد، وعنصر مضر، وجعلنا حضنة بيته، وسواس حرمه، وجعل لنا بيتًا محجوجًا وحرمًا آمنًا، وجعلنا الحكام على الناس، ثم إن ابن أخي هذا محمدًا بن عبد الله لا يوزن برجل إلا رجح به، فإن كان في المال قَلَّ، فإن المال ظل زائل وأمر حائل، ومحمد من قد عرفتم قرابته؛وقد خطب خديجة بنت خويلد، وبذل لها ما آجله وعاجله من مالي عشرين بكرة.. وفي رواية: وقد بذل لها من الصداق اثنتي عشرة أوقية ذهبًا ونشأ - أي نصف أوقية - ووفق بعضهم بأن أبا طالب دفع البكرات من ماله ودفع رسول الله ﷺ الذهب من عنده، فكان الجميع صداقًا لها؛ ثم قال أبو طالب: وهو والله بعد هذا له نبأ عظيم وخطر جليل فزوجها.

وفي المنتقي: فلما أتم أبو طالب الخطبة تكلم ورقة بن نوفل - وكان حاضرًا في رؤوس مضر - فقال: الحمد لله الذي جعلنا كما ذكرت،

وفضلنا على ما عددت فنحن سادة العرب وقادتها، وأنتم أهل ذلك كله لا تنكر العشيرة فضلكم، ولا يرد أحد من الناس فخركم وشرفكم، وقد رغبنا في الاتصال بحبلكم وشرفكم، فاشهدوا عليَّ معاشر قريش بأني قد زوجت خديجة بنت خويلد من محمد بن عبد الله على أربعمائة دينار، ثم سكت فقال أبو طالب: قد أحببت أن يشركك عمها؛ فقال عمها: اشهدوا عليَّ يا معشر قريش أني قد أنكحت محمدًا بن عبد الله خديجة بنت خويلد، وشهد على ذلك صناديد قريش.

وورقة ابن عم خديجة ومن أشراف قومها وذوي أسنانهم فلا غرابة أن يقدموه في الرد على خطبة أبي طالب، وكأنما أحب أبو طالب أن يوثق العقد ويؤكد الرضا منهم فأحب أن يشارك عم خديجة ابن عمها فأسرع عمها إلى إجابة أبي طالب إلى طلبته.. وفي رواية أن أخاها عمرًا هو الذي تولي زواجها.

والناظر في هذه الروايات يرى أن بعضها يكمل بعضًا، وأن الرواة لما اختلفت مصادرهم اختلفت عباراتهم وأخذ كل راو بطرف من القصة وحكاه كما سمع.

وقد أَوْلَمَ رسول الله ﷺ على زواجه بخديجة وفرحت خديجة بهذا الزواج فرحًا شديدًا، روي أن رسول الله ﷺ لما تزوجها ذهب ليخرج فقالت له: إلى أين يا محمد اذهب وانحر جزورًا أو جزورين

وأطعم ا لناس، ففعل. وقال في المنتقي: فأمرت خديجة جواريها أن يرقصن ويضربن بالدفوف، وقالت: مر عمك ينحر بكرًا من بكراتك وأطعم الناس، وهلم فقل مع أهلك فأطعم الناس، ودخل ﷺ فقال معها، فأقر الله عينه، وفرح أبو طالب فرحًا شديدًا، وقال: الحمد لله الذي أذهب عنا الكرب ودفع عنا الهموم.

ظاهرتان في حياة محمد ﷺ
الظاهرة الأولي: شظف العيش

ظاهرتان اجتماعيتان كانتا تسودان حياة محمد ﷺ منذ أن ولد ثم نهد فشب عن الطوق واستوى غلامًا يافعًا في شباب قريش وفتىً سويًا بين فتيانهم إلى أن اقترن بزوجه النبيلة الطاهرة الأمينة الوفية السيدة خديجة بنت خويلد، وسنه إذ ذاك ـ على أرجح روايات التاريخ ـ خمس وعشرون سنة.

أما الظاهرة الأولي: فهي ظاهرة اجتماعية تسم البيئة العربية كلها بميسمها، وتعنون الحياة فيها بعنوانها، فهي ليست من الظواهر التي تعد من خصائص محمد ﷺ في شبابه إلا كما يحمل الفرد عنوان الجماعة لكونه منها بمكان الطرة من الكتاب، تلك هي ظاهرة شظف العيش وقلة ما في اليد من حطام الدنيا، فقد ولد محمد ﷺ يتيمًا لم يرث من أبيه غير خمسة أجمال وغنيمة وجارية، وهذا شيء ضئيل بالنظر لما كانت تضطرب به مكة عامة وقريش خاصة من أموال موئلة أو تجارات مدبرة تدر الربح في المواسم والأسواق، وقد عرف التاريخ أن آظار بني سعد ومرضعات هوازن أعرضن عن محمد ﷺ وهو ملفف بلفائفه في مهده، وقلن: يتيم لا مال له، فما عسى أن تصنع لنا أمه أو جده.

وعرف التاريخ أن جده وعمه كفلاه حتى اشتدت قناته فآجر نفسه يرعى غنم أهله، وعرف أنه بعد ذلك آجر نفسه من خديجة ليعمل في

مالها تاجرًا لها، فليس في تاريخ شباب محمد ﷺ مدة تغير فيها وضعه المادي، بل ظل على حالة واحدة لازمته منذ ولادته، بل ربما كانت حاله في طفولته أيسر منها في شبابه.

ولهذه الظاهرة أثرها العميق في تمحيص الإنسانية العليا في الأفراد الذين تلزمهم أيام شبابهم، وهي أيام اجتماع قوى الاندفاع وعناصر الهوى النفسي، ونزغات المراهقات ومنافذ الغرائز المادية النهمة، ومسارب استطالة الشباب وطموحه، وهو تمحيص شاق أشد المشقة ولا تصبر له إلا نفس قوية التركيب البنائي في جوهر تكوينها، ومن ثم كانت مثله التاريخية آحادًا من الأفذاذ في القرون والحقب، ومن عجائبه أنه يتجاوب في يسر مع النزعات الدينية الداعية إلى الإيمان بالغيب، فتكثر نسبيًا أمثلته من النماذج الإنسانية الحية في أوقات تسود فيها الروحانية، فإذا عاشت شخصية إنسانية في عصر مادي وبيئة مادية، وحياة مادية، ثم تعرضت لهذا الامتحان الفاتن الممحص وخرجت منه كما خرج محمد ﷺ في شبابه أكمل الناس إنسانية وأعظمهم خلقًا وأضخمهم أمانة، وأبعدهم عما يشين مروءة الرجال، حتى ما يستطيع عدو بله ولي أن يقول فيه لو ولا وليت، ومن ثم كانت هذه الشخصية هي النموذج الأعلى لكمال خصيصة الإنسانية العليا في فرد من بني الإنسان.

الظاهرة الثانية

تكافـؤ الخلـق

أما الظاهرة الثانية فهي ظاهرة التكافؤ الخلقي في شخصية محمد ﷺ، ونعنى بالتكافؤ الخلقي أن أخلاق محمد ﷺ كانت كلها تنبع من فطرته بنسب متفقة متساوية، فصبره مثل شجاعته، وشجاعته مثل كرمه، وكرمه مثل حلمه، وحلمه مثل رحمته، ورحمته مثل مروءته، وهكذا لا تجد له خلقًا في موضعه من الحياة يزيد أو ينقص على خلق آخر في موضعه منها، ومن هنا كان جماع أمره عند قومه «الأمين» وهذا اسم يمثل التكافؤ الخلقي أصدق تمثيل.

هذا التكافؤ الخلقي في وجوده الواقعي في شخصية محمد ﷺ يوشك أن يكون معجزة الحياة في الإنسان، لأن التاريخ لم يذكر من النماذج العليا للبشرية من كان هذا التكافؤ الخلقي خليقته العامة سوى محمد ﷺ، وإذا ذكر التاريخ غيره من النماذج العليا ذكره عنوانًا لتبريز جزئي في بعض الأخلاق والفضائل، فهذا مثل مضروب في الصبر، وذاك في الحلم، وثالث في الكرم، ورابع في الشجاعة وهكذا تتفرق النهايات في الأخلاق والفضائل في نماذج متعددة ولكنها تجتمع متكافئة في شخصية محمد ﷺ، وهذا هو سر الإعجاز الإنساني في حياته ﷺ.

وهذا التكافؤ الخلقي في وجوده الواقعي في شباب محمد ﷺ

معجزة الإنسان في الحياة؛ لأن الشباب معترك الغرائز، وهي مختلفة الأغراض والغايات، فالتكافؤ الخلقي في الشباب ضرب من المحالات في متعارف الحياة، فإذا حققه الوجود الواقعي في شباب محمد ﷺ كان وجوده معجزة الإنسان في الحياة.

وهذا التكافؤ الخلقي في وجوده الواقعي في شباب محمد ﷺ مع ملازمة الظاهرة الاجتماعية الأولي لحياته في شبابه ضرب آخر من الإعجاز الإنساني في الحياة؛ لأن تلك الظاهرة الاجتماعية كانت قمينة أن تدفع الشباب إلى طيش الغرائز، فتنقلب به الفضائل إلى رذائل جامحة، فوجود ضابط نفسي يعصم الإنسان من الانزلاق وراء تيارات الغرائز في إبان قوتها العارمة هو الآية الكبرى على أن التكافؤ الخلقي الذي ينبع منه ذلك الضابط النفسي ليس من صنع الإنسان.

والتكافؤ الخلقي بهذا المقياس لم تعرفه الحياة الواقعية لإنسان غير محمد ﷺ، وهو في شباب محمد ﷺ مفطور مجبول، لم يصنعه علم ولا تثقيف لأن بيئة محمد ﷺ في شبابه لم تكن بيئة علم وثقافة، ومن الطبعي أن تكون ثمرات هذا التكافؤ الخلقي محدودة بحدود البيئة التي عاش فيها، حتى إذا أتيح له أن يمتد ويتسع مع الرسالة العامة الخالدة امتد واتسع، فكان هو العنوان الذي رسم به القرآن الكريم الفضيلة العليا في حياة محمد ﷺ فقال: في معرض الرد عنه مدافعًا ومادحًا: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤].

وهـذا التعبيـر في موضـعه يكـافئ تعبيـر الفطـرة الملقـي علـى ألسـنة قومـه في تسـميته (الأمـين) فكمـا مثـل (الأمـين) التكـافؤ الخلقـي هنـاك أصـدق تمثيـل، مثلـه هنـا - أي في دور الرسـالة العامـة الخالـدة - (الخلـق العظـيم) أصـدق تمثيـل، والفـرق بـين التعبيـرين هـو الفـرق بـين محمـد المرسـل رحمـة للعـالمين، ومحمـد الشـاب الأمـين، وفي تعبيـر القـرآن الكـريم إشـارة إلـى عمـل في التكـافؤ فـوق عمـل الفطـرة والجبلـة، وهـو أثـر النبـوة والرسـالة، وهـو معنـى مـا يشـير إليـه الحـديث الشـريف الـذي رواه ابـن الأثيـر في البدايـة مـن قولـه ﷺ «أدبنـي ربـى فأحسـن تـأديبي»، ولهـذا الكـلام بقيـة تـذكر في شـيء مـن التفصـيل المقـرون بالأمثلـة الواقعيـة عنـد الحـديث عـن أخـلاق محمـد رسـول الله ﷺ، وإنمـا قصـدنا هنـا إلـى الإشـارة العـابرة لنبـين أن الخلـق الأصـيل النـابع مـن الفطـرة يسـتطيع أن يتغلـب علـى الظـواهر الاجتماعيـة ويوجههـا في طريـق الفضـيلة، حتـى تصـبح تلـك الظـواهر عنـد صـاحب هـذا الخلـق الأصـيل النابع من الفطرة فضيلة من فضائله.

هكذا يصور التاريخ الواقعي شخصية محمد ﷺ في شبابه، حتى تزوج خديجة، وهي امرأة حسيبة شريفة كثيرة المال، عرفت محمدًا ﷺ في شظف عيشه وقلة ذات يده، وعرفته في تكافئه الخلقي، فرغبت فيه لهذه المعرفة وتزوجته بعد هذه المعرفة فأصبح - عرفًا - مالها ماله

وثراؤها ثراءه، وغدا محمد ﷺ بين عشية وضحاها من أغنياء قريش، وذوي ثرواتها.

ولكن محمدًا ﷺ ظل بعد هذا الثراء الغامر كما كان منذ ولد ونهد وشب يعيش في شظف عيشه لا من قلة المال في يده؛ بل لأن خصيصة التكافؤ الخلقي عنده طبعته على الزهادة في الحياة المادية المترهلة التي كانت تحياها مكة وتعيش فيها قريش، وطبعته على التسامي بنفسه عن المطامع التي تتحلب لها أشداق الماديين إذا هبط عليهم الثراء من غير كد ولا تعب، فعمل التكافؤ الخلقي هنا أبلغ من عمله هناك، لأن حياة محمد ﷺ قبل زواجه خديجة كانت حياة تقلل من الدنيا، لأنها كانت في يده قليلة، أو لأنه لم يكن في يده منها شيء، فالفضيلة فيها في قوة الصبر على عدم التطلع إليها وتطلبها بما يمل بميزان التكافؤ الخلقي فيبطل عمله، وحياته بعد زواج خديجة حياة تقلل من الدنيا وهي ملء يده، فالفضيلة فيها في قوة الصبر معها عن الانزلاق في غمرات المادية التي تدفع إلى الانزلاق فيها البيئة ومؤثراتها.

ومضى محمد ﷺ في حياته الجديدة أمينًا مع نفسه، أمينًا مع قومه، أمينًا مع زوجه، أمينًا لماضيه، أمينًا لمستقبله، وبقي يعيش في ظاهرتيه من شظف العيش والتكافؤ الخلقي حتى كأن آخر حياة شبابه منهما صورة من أولها، وظل يتجر في مال زوجه خديجة، ولكن التاريخ لم يحدثنا عن رحلات له خارج جزيرة العرب بعد زواجه، وحدثتنا

الروايات أنه كان يأتي المواسم والأسواق الداخلية، يبيع ويشتري، ويلتمس معاشه فيها.

فقد روي ابن كثير في مساءلة قريش وتعنتهم مع رسول الله ﷺ بطلب أنواع من الآيات وخوارق العادات على وجه العناد أنهم قالوا: إن كنت رسولاً ـ كما تزعم ـ فاسأل ربك أن يجعل لنا جنانًا وكنوزًا وقصورًا من ذهب وفضة ويغنيك عما نراك تبتغي، فإنك تقوم في الأسواق وتلتمس المعايش كما نلتمسها حتى نعرف فضل منزلتك من ربك.

وفي أحاديث قس بن ساعدة أن رسول الله ﷺ كان قبل البعثة يرد أسواق العرب عكاظ وذا المجاز ومجنة وأنه رأي قسًا فيها وسمع كلامه وهو يدعو الناس ويذكرهم نبيًّا أظلهم وقته ودينًا خيرًا من دينهم.

وقد ذكرنا ـ فيما سبق ـ حديث أبي سفيان وقصته مع أمية بن أبي الصلت، وأنه قدم إلى مكة بعد سفره إلى اليمن تاجرًا فقال: فبينا أنا في منزلي جاءني الناس يسلمون عليَّ ويسألون عن بضائعهم حتى جاءني محمد بن عبد الله ـ وهند عندي تلاعب صبيانها ـ فسلم عليَّ ورحب بي وسألني عن سفري ومقامي، ولم يسألني عن بضاعته، ثم قام فقلت لهند: والله إن هذا ليعجبني، ما من أحد من قريش له معي بضاعة إلا وقد سألني عنها، وما سألني هذا عن بضاعته.

قال أبو سفيان: فبينا أنا أطوف بالبيت إذ بي قد لقيته فقلت له: إن بضاعتك قد بلغت كذا وكذا وكان فيها خير فأرسل من يأخذها ولست آخذ منك فيها ما آخذ من قومي فأبى عليَّ، وقال: إذن لا آخذها، قلت: فأرسل فخذها وأنا آخذ منك مثل ما آخذ من قومي، فأرسل إلى بضاعته فأخذها وأخذت منه ما كنت آخذ من غيره.

فهذا ونحوه صريح في أن محمدًا ﷺ كان في هذه المدة التي تقع بين زواجه وبعثته يتسبب لمعاشه بالتجارة على نهج قومه فيها، يباشرها بنفسه في الأسواق الداخلية ويؤاجر عليها أهل المعرفة في الرحلات الخارجية إلى اليمن أو الشام، ولم نر في شيء من الروايات أنه اشتغل بشيء آخر غير التجارة في التماس معاشه بعد زواجه.

وكان كلما تقدمت به الحياة ازداد انطواء عن حياة الناس وحبب إليه الاعتزال والتنسك، فكان يتنسك في غار حراء يطعم المساكين ويفكر في جلال الوجود وعظمة الكون، ويتأمل فيما حوله من حال قومه وإغراقهم في وثنيتهم البليدة وماديتهم المظلمة، وينظر فيرى في طيات هذه الكسف الحالكة ومضات من نور تلمع هنا وهناك في أشخاص هؤلاء المتحنفين ممن خالطوا أهل الكتاب فسمعوا عن الدين الحق شيئًا فطلبوه عندهم فلم يجدوا معهم إلا أخلاطًا من تحريفات وتأويلات فاسدة لبست الحق بالباطل.

وطلبوه في مجالات عقولهم وفطرهم فقصرت بهم عن الغاية، ولكنها رفعتهم من حضيض الوثنية إلى ضرب من المعرفة الحائرة، أرفع درجاتها ما يتمثل في قول زيد بن عمرو بن نفيل: اللهم إني لو أعلم أحب الوجوه إليك عبدتك به ولكنى لا أعلم، ثم يسجد على راحته، وكان زيد أمثل الطائفة وأعدلها أمرًا، وقد كان شام اليهودية والنصرانية فلم يرض شيئًا منهما وكان يقول: آمنت بما آمن به إبراهيم، ويقول: أنفي لك عان راغم مهما تجشمني فإني جاشم، وقد شهد له النبي ﷺ أنه يبعث يوم القيامة أمة وحده.

تعبده ﷺ قبل البعثة

والذي يلفت النظر ويدعو إلى التأمل أن تتضافر روايات التاريخ عن ورقة بن نوفل وتنصره وزيد بن عمرو وتحنفه، وقس بن ساعدة وترهبه، وأمية بن أبي الصلت وتطلعه؛ ولكنها تسكت عن محمد ﷺ في هذه الفترة من شبابه، فلا تذكر عنه إلا أنه كان من نسك قريش، يخلو بغراء حراء يتعبد فيه الليالى ذوات العدد، يطعم من جاءه من المساكين حتى إذا قضى تحنثه نزل فطاف بالبيت ثم ألم بأهله وتزود لمثلها، وعاد إلى معتكفه، ومن هنا تعددت أقاويل العلماء وروايات التاريخ في تعبده، على أي نهج كان؟ هل كان بطريق الاستغراق في التفكير والتأمل في ملكوت الله ـ تعالى ـ ومظاهر الوجود وعجائبه مما يقطع العقل أنه لا يكون إلا عن قدرة قاهرة وإرادة مدبرة، وحكمة سامية، والخلوة في الغار مما يساعد على ذلك ويكشف عن البصائر أسجاف القيود والحدود، ويعبر بها إلى آفاق الحقائق العليا حيث الدلائل القاهرة على وجود الله ووحدانيته وصمديته، وهذا هو الذي جنح إليه جمهور الأمة، وحذاق العلماء من السلف والخلف.

قال الزرقاني في شرح المواهب: ولم يأت تصريح بصفة تعبده بحراء، فيحتمل أنه أطلق على الخلوة بمجردها تعبدًا، فإن الانعزال عن الناس ولاسيما من كان على باطل عبادة.

وعن ابن المرابط وغيره أنه ﷺ كان يتعبد بالفكر، وهذا هو قول الجمهور، وقال أيضًا: وفي تعبده قبل البعثة بشريعةٍ، أم لا؟ قولان، الجمهور على الثاني، أي أنه كان يتعبد بالفكر والاجتهاد فيما يصل إليه فكره من تقديس الله ـ تعالى ـ.

وقال ابن كثير: وقد اختلف العلماء في تعبده عليه السلام قبل البعثة، هل كان على شرع أم لا؟ وما ذلك الشرع؟ فقيل شرع نوح، وقيل: شرع إبراهيم، وهو الأشبه الأقوى، وقيل: موسى، وقيل: عيسى، وقيل: كل ما ثبت أنه شرع عنده اتبعه وعمل به.

وهذا القول الأخير ـ وإن رجحه بعض الباحثين ـ لا طائل تحته، لأن الشرع هو ما شرع الله لأنبيائه ورسله بطريق الوحي إليهم، ولم يعرف في جزيرة العرب شرع أوحى الله به إلى رسول من أنبيائه وبقيت معالمه في أحاديث الناس التي يأثرونها سوى ما عرف من شرع إبراهيم وإسماعيل وأثرهما الخالد ببناء الكعبة المشرفة وجعلها بيتًا لله ـ تعالى ـ محجوجًا، يتعبد الناس بالطواف حوله والدعاء والتضرع عنده.

وسوى ما عرف من شريعة موسى وعيسى ـ عليهما السلام ـ عن طريق اليهود والنصارى الذين كانوا يتوطنون أماكن من الجزيرة العربية في شمالها وجنوبها، وكانوا يتحدثون عن شرائعهم متفاخرين بها على وثنية الجمهرة من العرب.

ولا طريق لإثبات شرع إلهي في هذه الجزيرة الحبيسة بجبالها ووديانها وصحاريها القاحلة الجرداء غير ما كان يسمع من أفواه المتحنفين الذين كانوا يتطلعون بفطرهم ـ التي أنكرت سخف ما كان من انحدار العقلية الجاهلية عند سواد الناس إلى وثنية بليدة مزرية بالعقل الإنساني ـ إلى لون من الهداية يرقى بعقولهم عن مستوى التعبد للأحجار والأشجار.

وغير ما كان يتحدث به رهبان النصارى وأحبار اليهود من أقاويل عن شرائعهم تحدثًا يغلفها بالتحفظ والغموض.

ونحن نميل مطمئنين إلى أن تعبده ﷺ في خلواته واعتزاله قبل مبعثه كان أساسه التفكر في آيات الله الكونية والتأمل في مظاهر الطبيعة ودلائل الإبداع الإلهي في نظام الوجود، وسيره على سنن متناسقة مقدرة، تدل على حكمة التدبير والإبداع.

وكان في جانب منه قائمًا على أساس ما ثبت عنده ﷺ من معالم الحنيفية ملة جديه إبراهيم وإسماعيل ـ عليهما السلام ـ ودليل ذلك القاطع ما التزمه ﷺ من تعظيم الكعبة المشرفة والطواف بها على رغم ما كانت تعج به ساحتها من الأصنام والأوثان التي كانت أبغض شيء إلى نفسه المطهرة، ولم يمنعه هذا البغض للأصنام والأوثان من التمسك بما ثبت عنده من شرعة تعظيم بيت الله المحرم الذي رفع قواعده جداه إبراهيم وإسماعيل ـ عليهما السلام ـ.

وهذا التعظيم للبيت لم يكن من قبيل عبادة التفكر التي أساسها سبحات العقل في مظاهر الكون وآياته الباهرة؛ وإنما كان من قبيل اتباع ملة إبراهيم فيما عرف أنه بقى منها في أعمال الناس وأذهانهم.

والعقل في منطقه بمعزل عن إدراك شرعية هذا الجانب من هذا التعبد وحكمته؛ فهو تعبد عملي شرعه الله في ملة إبراهيم عليه السلام وعرفه محمد ﷺ قبل بعثته واطمأنت نفسه إلى شرعيته؛ فعبد الله به كما عبده بمحض التفكر والتأمل في بديع جلال الكون وما أودع الله فيه من آيات حتى جاءه الحق؛ وبعثه الله رسولاً إلى الناس كافة بشيرًا ونذيرًا؛ وداعيًا إلى الله بإذنه وسراجًا منيرًا؛ على رأس أربعين سنة من عمره الشريف المبارك؛ فصلوات الله وتسليماته وبركاته عليه وعلى آله الأطهار؛ وأصحابه الأخيار ما تعاقب الليل والنهار.

محمد الصادق عرجون

المحتويات

الموضوع	الصفحة